

كتاب

حضارة الاسلام
في
دار السلام

تأليف

الفقيه ابو تعالى
جميل بن فخر المديري

طبع بالرخصة الرسمية نمرو ٧١ في مطبعة المنتطف بمصر سنة ١٨٨٨

على نفقة الامام السيد المرغني ومطبعة المنتطف

الحمد لله

هذه رسائل أودعتها طرفاً من مآثر العرب ومفاخر الإسلام
 ووضعتها عن لسان أمير من الفرس قدم العراق في المئة الثانية
 للهجرة ونقل بالمناصب في دولة البرامكة الى ان نكبهم الرشيد
 كما ستره في موضعه من الكتاب

فكان في النفس ومن عزم بعض الخللان الي ان أبقي الحديث
 عن لسانه الى خلافة المأمون لذكر ما هو حقيق بان يوصف به من
 الحلم والفضل والبروءة والعفاف غير اني كنت أحرص على التاريخ
 من ان أدخل فيه الحكاية التي لا أرجع بحجتها الى الاسناد في ابقاء
 المناصب بيد الفرس بعد نكبة البرامكة اذ كنت أوجب على نفسي
 ان لا آتي الا على ذكر الحقائق وتقييد الاحوال كما كانت عليه في
 ذلك الزمان ولذلك لما أوردت الاسباب التي رفعت العرب
 الى العظمة وجلالة القدر أعرضت عن ذكر ما دعاهم من بعد
 الى التواني والانحطاط كما اني في ذكر آدابهم وفنونهم وصناعاتهم
 وقفت على حد الإخبار المجرد من غير ان اتهم الغاية التي
 وصلوا اليها من العلوم لما لا يخفى من حدوث ذلك كله بعد
 الرحلة وما وجب في هذا التأليف من النظر الى عصر الرشيد
 وليس الى ما بعده من الأيام

وقد اتخذت في هذا الكتاب طريقة الاسناد للدلالة على ما ذكر اهل العلم مما انا بصدده من الكلام واني لأرجو ان ينفع اخواني من اهل الوطن العزيز بما اروم لهم من الخير والله أسأل ان يرشدني واياهم الى الصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل

جدول الاسفار التي وجدت بين يدي واسندت اليها رواية الرحالة

اعلام الدين والشرع

١٢٨٧	طبع بولاق سنة ١٢٨٧	الاتقان في تفسير القرآن للسيوطي
١٨٥٢	بُن ١٨٥٢	الاحكام السلطانية للماوردي
١٢٨٦	بولاق ١٢٨٦	رد المحتار على الدر المختار لابن عابد بن
١٢٧٦	القسطنطينية ١٢٧٦	مجمع الانهر في ملحق الاجهر لشيخ زاده
١٢٧٩	بولاق ١٢٧٩	شرح الزرقاني على موطأ مالك
١٢٨٧	مصر ١٢٨٧	كليات لابي البقاء

ومطالعات في صحيح البخاري وكشاف الزمخشري وتفسير البيضاوي

علوم اللغة

الجمهوري صحاح اللغة
الفيروز ابادي المحيط
النعالي فقه اللغة

الممالك والبلدان

١٨٧٧	لیدن ١٨٧٧	احسن التفاسيم في معرفة البلدان والاقاليم للنفدي
١٨٧٢	لیدن ١٨٧٢	المسالك والممالك لابن حوقل

- السبوطي الانس الجاهل في تاريخ المقدس والخليل مصر ١٢٨٢
- السبوطي حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة مصر طبع على حجر
- ابو الحسن النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة ابدن ١٨٥١
- الانليدي اعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس بولاق ١٢٨٠
(خط)
- الوافدي في فتوح الشام بولاق ١٢٩٠
- الفرماني آثار الأول بولاق ١٢٨٢
- محمد بن شاكر فوات الوفيات العقد الفريد لابن عبد ربه بولاق ١٢٩٢
- ابن ابي دينار المونس في اخبار افرقية وتونس شرف الدين الانصاري قضاة الشام تونس ١٢٨٦
(خط)
- الاسحاقي اطائف الاخبار الأول فيمن تصرف في مصر من ارباب الدول مصر ١٢٠٠
- الشرقاوي تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين مصر ١٢٠٠
- ومطالعات في ابن الورددي واخبار مكة للازرقى واخبار العرب لابن كتيبة وغيرهم
- العلوم الأدبية
- ابو يعقوب الوراق التهرست
- حجي خانه كشف الظنون عن العلوم والفنون لندن ١٨٦٢
- ابو الفرج الاصبهاني الاغانى بولاق ١٢٨٥
- ابن خلدون المقدمة بيروت ١٨٧٩
- ابن الاثير المثل السائر بولاق
- الماورددي أدب الدين والدنيا قسطنطينية ١٢٩٩
- الدميري حيوه الحيوان بولاق ١٢٧٥
- الغزويني عجائب المخلوقات كوتنكن ١٨٤٩
- ابن حجة الحموي خزانه الادب بولاق ١٢٩١
- الحريري المقامات طبع بيروت
- الميداني مجمع الامثال بولاق ١٢٨٤

ليدن ١٨٥٢	الرحلة (الى المشرق) لابن جبير
ليبسيك ١٨٦٦	معجم البلدان لياقوت
باريس ١٨٤٠	تقوم البلدان لابي الفداء
باريس ١٨٦٥	المسالك والممالك لابن خردادبه
باريس ١٨٢٧	الفيض المديد في النيل السعيد لأحمد المنوفي
ليدن ١٨٧٠	مسالك الممالك للاصطخري
بولاق ١٢٧٠	المخطوط والآثار للمقريزي
نوبك ١٧٨٩	آثار مصر لعبد اللطيف
رومية	ترجمة المشتاق في اختراق الآفاق الادريسي
باريس ١٨٥٢	تحفة النظار في عجائب الاسفار لابن بطوطة
غوتنغن ١٨٤٨	اخبار العباد وآثار البلاد للقزويني
(خط)	جواهر البحور ووقائع الدهور لابراهيم بن وصيف شاه
	نشق الازهار في عجائب الاقطار لمحمد بن اياس
	السهر والاعخبار وايام الناس
بولاق ١٢٩٠	ابن الاثير الكامل
ليدن ١٨٨٠	الطبري تاريخ الملوك واعمارهم
بولاق ١٢٨٤	ابن خلدون ديوان المبتدا والخبر
فسطاطينية ١٢٨٦	ابوالفداء التاريخ
غرينزولد ١٨٥٨	المقريزي الآداب السلطانية والدول الاسلامية
بولاق ١٢٨٢	المسعودي مروج الذهب
بولاق ١٢٧٩	المقري نفع الطيب في غصن الاندلس الرطيب
بولاق ١٢٧٥	ابن خلكان وفيات الاعيان
اكسفور ١٦٦٢	ابو الفرج الملقب تاريخ مختصر الدول
طبع بولاق	الخمس اخبار الدول والاسلام
(خط)	السيوطي تاريخ الخلفاء

- الفخ بن خاقان فلاند العقيان ١٢٧٧ باريس
- الابشيهي المنطرف في كل فن منظر ١٢٧٩ بولاق
- نوح البلاغة لعلّي بن ابي طالب رضه مصر طبع على حجر
ابو عبيدة طبقات الشعراء (خط)
- الفناوي شرح لامية ابن الوردي مصر ١٢٧٨
- الطرطوشي سراج الملوك بولاق ١٢٨٩
- الشعراني الطبقات الكبرى بولاق ١٢٨٦
- قدامة بن جعفر مختصر كتاب الخراج باريس ١٨٦٢
- الشريشي شرح مقامات الحريري بولاق ١٢٨٤
- السبوطي الكثر المدفون والملك المشعون بولاق ١٢٨٨
- بهاء الدين العاملي الكشكول (خط)
- الثعالبي بنية الدهر في شعراء اهل العصر دمشق
- ابواسحق المصري زهر الآداب وثمر الآداب بهامش العقد الفريد
- ابواسحق الطوطاط غرر النصائح الواضحة بولاق ١٢٨٤
- ابن نباتة المصري شرح العيون لرسالة ابن زيدون (خط)
- داود بن عمر تزيين الاسواق في احوال العشاق بولاق ١٢٩١
- ابن عرب شاه فاكهة الخلفاء الموصل ١٨٦٩
- ابن عون الاجوبة المسكنة (خط)
- الشهابي نور الابصار في مناقب آل بيت النبي المختار بولاق ١٢٩٠
- كتاب الف ليلة وليلة بولاق ١٢٥١
- عبد الله بن المقفع كليله ودينه طبع باريس
- شمس الدين النواحي حلبة الكميث بولاق
- عبد المسيح بن اسحق الكندي رسالة الى عبد الله بن اسمعيل الهاشمي طبع لندن
- ابوالقاسم الحسن بن بشر الموازنة بين ابي تمام والجزري طبع النمطانية ١٢٨٧
- ومطالعات في اطائف العرب وبيع الارال الزمخشري وغير ذلك كثير في كتب الأدب

فهرست الكتاب

الرسالة الأولى (كتبت في النهران سنة ١٥٦ للهجرة) وجه

القدوم الى العراق وفيه يذكر الرحالة قدومه الى البصرة وبقاءه بعض علمائها ا
الكلام عن البصرة وفيه يصف عمران البصرة ويذكر صبر اهلها على طلب العلم و
العرب البادية وفيه طرف من تأثر العربان وكرمهم وعفافهم وان سكانهم
في الوتر امر طبيعي وانهم لا يجامون الضيم ولا يدخلون في ولاية الملوك وان
الفرس والروم لم يتغلبوا الا على مكان الانصار من العرب وجه ٩
الاتصال عن البصرة وفيه كلام عن واسط . ولعة من اخبار الحجاج . وانه اقام
دولة الامويين في العراق وجه ١٠

مدائن كسرى وفيه وصف الايوان ومخططة الخليفة ابي جعفر لتخريبه وان حفظ
الآثار الجميل جميل اثر الملوك المتغلبين وجه ٢٠

الرسالة الثانية (كتبت في بغداد سنة ١٥٧)

المنام في دار السلام وفيه ذكر وصول الرحالة الى بغداد . والتفاته بأبي جعفر في
بعض المساجد ونزوله على ابي يوسف القاضي ضيفا يتخرج في الفقه عليه ٢٤
في وصف الزوراء وفيه وصف اقليمها وعمرانها وبلوغ اهلها من سعة العيش ما لم
تبلغه الامم المترفة من قبلهم ٢٨

النصرانية في الاسلام وفيه ان سكان الزوراء والعراق كثير من أمم النصرانية .
وانهم في خلطة وصفاء مع المسلمين . وان ابا جعفر قرّبهم في طلب الهارين
من ملوك أمية . وان استخداهم في الدولة لا يمس الاسلام بكروه ٢٢
في لقاء رجال الدولة وفيه ذكر نفث الرحالة من البرامكة وانقطاع اليهم .
ولقاءه مع بن زائدة وانه على غرض ابي جعفر في السياسة . وانه ما نكس ابا
مسلم الأمية مع اهل النهث وجه ٢٧

لمعة من اخبار ابي جعفر وفيه ان يقدم الموالي في الاحكام خوفاً من ميل العرب
مع اهل البيت . وانه يتفاهم بالخراج ويقطع عنهم الهبات حتى يتقدم بضيق
ذات اليد عن الخروج في دعوتهم ٤٢

قوة الاسلام ايام النوح وفيه ذكر رسالة النبي صامع . واتباع خلفائه الرسوم التي
حفظوها عنه . وان العدل هو الذي حفظ لهم البلدان . وان النصارى
كانوا يشاركونهم في الفتح . وفيه رد على ما يقول الاعاجم من ان الاسلام
غلب امماً لا مدنية عندها ٤٨

الرسالة الثالثة (أصدرت من بغداد سنة ١٥٨)

في لقائي ولي العهد وفيه ذكر السبب الذي قرب الرحالة الى المهدي وهو ولي
عهد . وان المهدي أنعم عليه بيت على دجلة ٥٢

في صفات موسى وهرون وفيه ان المهدي اقامة مؤدباً على ولد به موسى (الهادي)
وهرون (الرشيد) . وان هرون اقرب الى تناول العلم من اخيه وان في طبعه
ميلاً الى الادب واهله ٦٠

بقية من اخبار ابي جعفر وفيه انه ساهر على الرعية وبروم اربابها بالجبروت .
وان صلاح دولته قائم بمخالد البرمكي . وان قنلة العلويين ظلم واقع عليه
وعلى آله من بعده عارة وجزاؤه ٦٤

ركوب ابي جعفر الى الحج وفيه وصف موكبه وركوبه في البردة والحاتم والتضبيب .
وقيام المهدي بالامر والنهي في بغداد . وسرور الناس من ابتعاد ابي جعفر
وزوال ظلمه وبتالان تجارته ٦٩

شعراء الدولة لثمة الايام وفيه طرف من اخبار بشار ومروان بن ابي حفصة
وابي العتاهية وابي دلامة وابن المولى والسيد الحميري واشجع السلمي وغيرهم .
وذكر ما لم من الابيات الحسان ٧٢

الرسالة الرابعة (من بغداد سنة ٦١ او كان الرحالة على لبالي السفر الى خراسان)
جاوس المهدي على الخلافة وفيه رسوم المباينة . وان الخلافة صارت الى المهدي
بجيلة الربيع الذي أوهم الناس عند موت ابي جعفر بانه حي لم يمت فاجابوه

الى البيعة على غير رضئ من نفوسهم الا الخوف من ظلم ابي جعفر ٨٢
شهادة المهدي في استمالة الرعية اليه وفيه انه استمال الناس بما قسم فيهم من
الاموال وازال عنهم من ضرائب الخراج ورد لهم من الضياع التي قبضها
عنهم أبو جعفر . وانه اقام لهم ديوان المظالم ٨٧

في خلع عيسى بن موسى عن ولاية العهد وفيه ان الطمع طيعة في العباسيين وان
الفتن في الاسلام كان شأنها لاخلاف الرأي في المعايعة ٩١

ظهور المهدي بمنصرة العلم وفيه انه يقيم خلافة باجلال العلم والدين . ويتخذ
لاهل الادب في كل سنة مجالس يعرضون فيها عليه بضاعتهم من فن أو علم
أو صناعة ثم يجيزهم على ذلك بما هو واسع له من الكرم ٩١

ولوع المهدي بزاوله الصيد وفيه ان المهدي قد جمع الى خلافة الملة ابهة الملك .
وانه يخرج الى الصيد في العدد المزيينة والمواكب العظيمة . وان الصيد
لا يعاب على الملوك الا متى فرطوا فيه وكانوا اقرب به الى البطر منهم الى
النزهة والرياضة ١٠٢

ثمة اخبار المهدي ورسالتني الى خراسان وفيه ذكر حج المهدي وبنائه الكعبة
واقامته ديوان الازنة . وظهر دعوة المنتع في خراسان . وان المهدي ارسل
الرحالة للنظر في امرها ١٠٧

الرسالة الخامسة (أصدرت من بغداد سنة ١٨١)

طرف من اخبار المهدي والهادي وفيه ذكر رجوع الرحالة من خراسان وما
حدثه بو ابو يوسف من اخبار الهادي والمهدي بعد طول الغيبة منه ١١٢

جال بغداد بالرشيد والبرامكة وفيه ان الرشيد يقيم ابهة الملوك ويستأمر في
الدعة والرخاء . وان البرامكة هم زينة الاسلام . وارلادهم يتقايون في
الاموال الجسام ١١٦

انفاس البغادة في طبات العيش وفيه ان لم تصرقا واسعا في التجارة . وان
ظرائف الدنيا تجتمع في مدينتهم . وان الخشيين هم زينة بغداد المترفة ١٢٢
دخولي على هرون الرشيد وفيه يذكر الرحالة ما اقي من انسويه ولكننا يتول انه

كان في قاضي مسند المنقذ بن ابي المأمون على الامين في ولاية العهد مع ان بني
هاشم ماثلون الى الامين

١٢٩

سكة الرشيد في السياسة وفيه انه من فضلاء الملوكة وعقلائهم . يفرغى العدل
في الرعية ويأخذ بالحلم في سياسته كانه يجاليف ابا جعفر في سياسة القتل
والجور وانه ينزل الاسواق ويتخفى في زي التجار ليعرف ما يدور بين الناس

١٢٤

من الحديث

البرامكة نكتة محاسن المنة وعنوان دولتها وفيه ان الدولة قائمة بجبي بن خالد
وان إصدار الامور وإيرادها الى الفضل وجعفر . وان جعفر مكين عند

١٢٩

الرشيد وبينهما من النصافي ما لا يكون مثله بين الاخوان

صلاح تجارة والمعاملة وفيه كلام عن السكة وما وجب على الرشيد من نقد برها

بعد ان تفاحش فيها الغش وانه كان يروم فقع السويس لايصال المشرق

بالمغرب في البحر ولكن جعفر ثابته عن عزمو واظهر له ان خرق السويس

خرق في الاسلام

زينة الدولة بالعلم والادب وفيه ذكر محاسن دولة الرشيد . وانه اجتمع ببابه من

العلماء والادباء والامراء والدماء ما لم يجتمع على باب خليفة غيره قط وان

زينة مجالسه ثلاثة ابو نواس والاصمعي واسحق النديم كلهم امام في الادب ولكن

غلب على ابي نواس الشعر وعلى اسحق النديم والاصمعي النوادر والمخ

الرسالة السادسة (كتبت في بغداد سنة ١٨٥)

دار الخلافة وداخية بيت الرشيد وفيه انه صالح السيرة شديد الاعراق في

الدين . وان امره باليو وجوابه راجع الى مسرور العبد . وان زينة صنع

اعمالاً يتباهى بها الملوكة . وان اولاده منرفون . وليس فيهم أصلح للخلافة من

١٦٣

المأمون

جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم وفيه ان دورهم نسائي دور الخلافة في البهائم .

وان الظالمين اليهم يقصدونهم من اقصى الافاق وانهم انفجروا في الكرم حتى

صار يضرب بهم المثل في سمة العطاء فيقال فلان من الملوكة يتبرمك ١٧٣

الدولة في خلافة الرشيد وفيه ان دولته من اوسع دول الاسلام رفعة مملكة .
 وانه غاب الروم وركب عليهم سيف الاسلام ليس طمعاً فيما يحملونه اليه من
 الجزية ولكن لتعزير الملة والدولة وان السياسة التي اتعمت خاطرهُ كانت
 متجهة لاذلال العلويين في المغرب مع انهم يكونون له درعاً لمرد الفرنجة عنه
 في المشرق ١٨١

عمران بيت المال وفيه ذكر ما يحمل من عين ودرق وابتعة وكسوة وغلات وغير
 ذلك . وان ما يحمل الى الرشيد لم يكن له حساب في دواوين الامويين ١٨٨
 مجلس الغناء بدار الرشيد وفيه خبر الخلاف الذي وقع بين ابراهيم بن المهدي
 واصلح النديم على الغناء . وان المناظرة فيه داعية الى الاجادة به . وفيه ذكر
 الاصوات المشهورة التي اخارها الرشيد من اصوات المتقدمين ١٩٢
 الرسالة السابعة (كتبت في بغداد سنة ١٨٥)

في ذكر آداب العرب وفيه يذكر الرحالة اليهود مجالس الادباء بدار الرشيد .
 وان الرشيد حمد جعفر البرهكي على ما كان آخذاً فيه من تعريب كتب
 اليونان . وان العرب يبلغون الغاية التي يرومون بها من علم او ادب او صناعة
 في اقصر مدة من الزمان . وان مشاهيرهم في سرعة تحصيل العلوم مثلهم في سرعة
 تحصيل الفتح ٢٠٦

الطب والاطباء وفيه ان النصارى برعوا المسلمين في الطب وتقدموا عليهم في
 دور الخلافة وان الحجامة اجدر بالثقة فيها من علم الامراض الباطنية ٢١٠
 النجامة وعلم الاكوان وفيه ان الفرس برعوا فيها العرب . وان المغرب لهم في
 الامام هو ابو جعفر . وان احمد بن محمد التماوندي صور الدنيا الرشيد ٢١٤
 الحديث وعلوم الشرع وفيه ان الحديث هو العلم الذي صبت اليه افئدة المسلمين
 وان ما اكابر اصح الناس حديثاً عن النبي صلعم . وان الكتب التي وضعت
 في الحديث اكثر من ان يأخذها الاحصاء وان من العلماء من اضع عمره
 في نقل ما سبق اليه غيره ٢١٨

اللغة وتصريف الكلام وفيه ان اللغة انما قيدت اضطراراً الى تفسير القرآن .

وان أوّل من سبق الى تدوينها هو الخليل بن احمد . وان كتاب أبي عبيدة
في فقه اللغة يفتقر اليو سكان الامصار ومن ينقطع عهدُهُ باهل الوبر الذين
يحافظون على قوام اللسان العربي . وان اللغة تنقسم الى لغة بدو ولغة حضر
وان كلام السوفة والفاظ المعريين داخله في لغة الحضارة ٢٢٢

الشعر في البداوة وفيه ان الشعر ملكة في العربان حتى ليس فيهم الا من يقدر على
قول الشعر . وانه في البداوة انصح منه في الحضارة . وفي ذكر المعانيات وان
العربان يجيدون في ذكر الربوع والاطلال الى حيث يقف حد البلاغة ٢٢٦
الشعر في الحضارة وفيه ان الشعرا في الحضارة منه في البداوة والشفاء . وان
ازمنة في الاسلام ثلاثة زمن عبد الملك وشعراؤهم جرير والفرزدق والاحطل
وزمن أبي جعفر وشعراؤه من تقدم ذكرهم وزمن البرامكة والشعر في ابي
نواس وابي العتاهية ٢٢٢

الغناء ونحوه واصلاحي وفيه تمييز الاصوات واقسامها وذكر من كان اصل
الغناء عند العرب . ومكان ابراهيم الموصلي من هذه الصائفة . وان ابنه يحيى
فضل المغنين من قوم يونان ٢٤٠

لمعة في علوم الفلسفة وفيه اشارة الى ما حصلت له العرب من العلوم الرياضية . والعلوم
المنطقية . والعلوم الطبيعية . والعلوم الالهية . وذكر ما دونوا في سياسة
الاخلاق وتدير المنزل بتنضي الحكمة ٢٤٥

آدب السيرة والحكايات وفيه ذكر عبد الله بن المقفع بالاسم على كتاب كتابته
ودمنه . وان كتاب الف ليلة وليلة معرب عن الفارسية ولكنه اصح بما زيد
فيه وتصرف به كتابا عربيا لا يمازجه من كلام الفرس الا اثر قليل . وانه
من اطرف الحكايات التي وضعت في غالب الدهر وان الاصمعي دون في
النوادير كتابا اودعه كثيرا من اخبار العرب وعاداتهم ٢٥١

تدوين الاخبار وامام الناس وفيه انها دونت اشفاقا على الحقائق من امتزاجها
بالنص والحكايات . وان ايام العرب كانت محفوظة في الشعر . وان
المؤرخين معروضون عن ذكر الاعاجم في كتبهم ٢٦١

الرسالة الثامنة (كتبها الرحالة في بجزنونس بعد انصرافه من بلاد الروم

سنة ١٨٦)

ذكر رسالتي الى قيصر الروم وفيه ذكر أُلطاف الرشيد الى قيصر الروم . وان

الرحالة هو الذي حملها الى رومة من لدنه وان الرشيد كان بروم الى الفيصر

موافقته على بفي أمية لنزع الاندلس من ايديهم ٢٦٦

طريق الرسالة الى دمشق وفيه مسير الرحالة الى الكوفة وانه وجد في اهلها حبا

لاهل البيت . وان عظماءها هم قوم كنة واكثرهم عالم وحكيم واديب . وان

السام بلاد مباركة من الله ولكنها نكته الحظ في تغلب الامم عليها . وان منشأ

الخلاف فيها تفرق اهلها على اغراض واهواء ٢٧.

في ذكر دمشق وفيه ان دمشق مالا وحياء وان اهلها احسن الناس خُنة وخُنة .

وذكر شتات من اخبار الامويين حدثت بها الرحالة مغنية كانت للوليد

بن يزيد ٢٧٥

ذكر جامع الوليد المعروف بالجامع الاموي وفيه ان الوليد بن عبد الملك عوّض

النصارى عن نصف الكيسة التي كانت موضع هذا الجامع بعض كتابس

صالحهم عليها . وانه استقدم صنّاع الروم الى بناءها . وانه صور فيها المدن

والاشجار واتخذ فيها قناديل الذهب وصبرها نزهة العالم ٢٨٤

المرور ببلدك وركوب البحر من بيروت وفيه ان قلعة ببلدك رفعها الروم

بالحيل الهندسية والقوة الآدمية وليس كما يزعم اهل الجهالة من ان الجن بنتها

لسليمان . وانهم قصدوا منها العجزة ليظهروا ضخامة ملكهم لاهل الشرق . وان

الروم الثانية الذين اخذوا في تعظيم النصرانية عدوا الى تحريمها حتى لا يدعوا

في جوار كنائسهم ما هو احل منها بناء واتم زينة . وفيه كلام عن بيروت

وانها مدينة العلم والحكمة ٢٨٩

لانه الانبرذور والمنصرف من الرسالة وفيه ذكر شيء من عادات الافرنج . وانهم

عرفون في الجهل . وان العرض في المشرق احفظ صيانته منه في المغرب

وفيه ذكر لقاء الفيصرين الرهبان . وان خاطره يتوافق مع خاطر جعفر

٢٩٥

البرمكي في الاعراض عن مناجزة الامويين

الرسالة التاسعة (كُتبت في المشاعر المباركة سنة ١٨٦)

المرور بتونس من بلاد المغرب يذكر فيه الرحالة ولاية ابن الاغاب في تونس.

وبنوة باسم ادريس من اولاد علي بن ابي طالب . وان الاسلام دولة في

المشرق ودولة في المغرب وفي القرآن الذي كتبه عثمان بمحض من الصحابة ٢٠٥

في ذكر الاسكندرية وسعة تجارتها . ومعاش النصارى فيها من الرغد والرفاه .

وانهم في خاظة مع المسلمين لا يتم عليهم الولاة مجازتهم بالانجيل واخراج

آبئهم الى الاسواق ٢٠٩

الديار المصرية والنيل وفيه وصف البلاد وانها عامرة بالناس وموسعة باسباب

الكسب لهم . وان النيل يفيض عليهم الخيرات وتتم غلب عليهم تحببة المال

تحت طباق الارض ٢١٤

في وصف الاهرام وانها رُفعت لحدود الفراعنة وان بناءها ينطق بظلمهم على

مر الزمان . وفي وصف ابي الهول ٢١٩

الى عذاب فحجة فالبلد المحرام وفيه يذكر الرحالة مرورة بارض مصر الى

عذاب . وما كان من احبب الولاة اصحاب الماء في الصحراء وغير ذلك ٢٢٢

في المشاعر المباركة وفيه وصف مكة المكرمة . وتبرك الرحالة برفادته على البيت

الكريم . وما احدث فيه من البناء . وفي ذكر المدينة المنورة وما فيها من الآثار

الكريمة والشاهد المباركة ٢٢٨

الرشيد والبرامكة في مكة وفيه ذكر نحو الرشيد على البرامكة بايعاز النفل

بن الربيع الذي كان يوغر صدره عليهم من العداوة . وان الرشيد كان

يصانعهم ويوهم استرسال نفسه اليهم حتى لا يدع لهم مجالاً الى سوء المظنة فيه

على ما كان يريد من نكبتهم ٢٢٩

الرسالة العاشرة (وهي مصدره من بغداد سنة ١٨٧)

عهدي بالايام يوم نعيم ويوم بؤس ولكني لا اعهد لها يوم لا شيء . وفيه ذكر مقتل

جعفر . . . وان الخطاب قد عمّ الدولة . وان الرشيد يطلب الرحالة طلباً

شديدًا اليفتلة

٢٤٥

وقوع التواني في الدولة بعد نكبة البرامكة وفيه ان الدنيا لا تنفع بعد نكبتهم شيئاً . وان الدولة صارت بعدهم الى رجال لا عزيمة عندهم ولا عزيمه . وان

٢٥٢

الناس صدعوا واحداً في لوم الرشيد على قتلهم فيما يتحدث به الناس من اسباب الرشيد بالبرامكة وفيه يأتي الرحالة على ما يتحدث به الناس من سبب نكبتهم . وان خبر العباسية لا صحة له ولكنه يرد على من ينكر وقوعه من حيث شرف العباسية وتزويرها عن جعفر بانه كان في الامكان حدوثه وان هولم يحدث . ويذكر انه ما نكب البرامكة الا بطلبهم

٢٦٠

مع اهل البيت

خاتمة الكتاب وفيها يختم الرحالة حديثه بذكر حال الدولة وانه يترك الاسلام منفرداً بين العلويين والعباسيين والامويين . وانه يجب ائلافه واجتماع

٢٦٧

كله الى عصبة واحدة في الشرق والغرب

ثم ينظر في دولة العباسيين ويورد خلاصة اخبارهم الى الرشيد . ويقول انهم اشرقوا اشراق الشمس في العظمة والبهاء مع ان دولتهم دولة حيل ومكايد . الى ان ينتهي الى قوله ان دولتهم تحتاج الى رجال عفلاء يدبرون سياستها ويدبرون امرها وانها اذا سقطت على يد خايقة قليل الخبرة بامور الملك ما قام لها قائمة بعد ذلك وهذا آخر الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرسالة الأولى

القدوم إلى العراق

اتيتُ دار السلام لا تخرج في الفقه على لسان الشريعة يعقوب بن ابراهيم بن خنيس الانصاري^(١) وكان خليلاً لابي على صفاً بينهما لم يكن بين اثنين . فانفصلتُ عن هرمز في ربحٍ رخاء زجتُ مركبنا الى البحرين فاطراف العراق هنا تزجية . فلما حاذينا الساحل مما يلي البصرة هبت علينا ريحٌ عاصفة وانحدر بنا الموج الى منعرجٍ في البر من الجركلة رمالٌ ومهاوي ماء . فبتنا ليلنا فيه على أشد ما يكون من الخوف الى ان طلع الفجر . فأقبلت علينا من صدر البحر سفينة حلتنا الى عبادان وأرست بنا على مطلٍ من خشباتٍ^(٢) تنتهي المراكب

(١) هو ابو يوسف الفاضي (٢) المسعودي ١ * ٥٠

اليها ولا تتجاوزها خوفاً من الجزر^(١) لئلا تلحق بالارض وتغوص في
الطين الذي يأتي دجلة^(٢) به في انسيابه

وهذا الجرف بما يقرب من سواحل العراق لا يتسير فيه السير^(٣)
ويخاف فيه السفر ولا يجمد منه الا انه اهل السواحل لما فيها من
مغاصات^(٤) الدر والياقوت والعقيق والباديخ^(٥) وغير ذلك وهي
باب واسعة لطلاب الارزاق وللغواصين عليها اخبار غريبة فيما
سمعت حتى قيل انهم يشقون آذانهم للنفس ويجعلون في آذانهم
القطن ويصطنعون وجوهاً من الدبل كالمشاقيص ويدهنون
ابدانهم بالسواد خوفاً من بلع دواب الجراياهم ويصبحون عند الغوص
مثل الكلاب لتغييرها عنهم فاذا بلغوا القعر عصبوا دهناً يضيء منه
الجريرو الاصداغ التي يتولد فيها اللؤلؤ وتكون مدفونة في ارض
الجزر ملاماً كان او طيناً^(٦) وما يزعمون في هذا اللؤلؤ ان تولده من
مطر نيسان اذ تكون الصدفة مفتوحة على وجه الماء فتقع عليها
القطرات فتتربي فيها درر رائقة الصفاء^(٧)

ولما اخذت نصيباً من الاستراحة اكرت زورقاً الى البصرة
ونزلت بها في سكة بني سمره^(٨) بزاء دار الهيثم بن معاوية اميرها^(٩)

(١) الفناوي ١٢٦ (٢) نفوس البلدان ٢٠٩ (٣) ابن الاثير ٦ * ١٧
(٤) ابن خردادبه ٦١ (٥) المسعودي ١ * ٥٢ (٦) القرطبي ٥ * ١٥٥
(٧) الدميري وعجائب المخلوقات (٨) باقوت ١ * ٦٤٤ (٩) ابن
الاثير ٦ * ٢

وقد طاب لي فيها المقام بما آنت من استئناس أهلها للغريب الى ان ينسى في جوارهم اهله^(١) بما يأنف عندهم من مظاهر الانس والصفاء. ووجدت لهم صبراً على طلب العلم يتخذون المكاتب^(٢) لاولادهم والمحلات^(٣) لشيخهم وتشدد اليهم رجال الطلبة^(٤) من كافة الوجوه لان لهم من الادب^(٥) المكان الذي لا يرفى. غير اني لم ار فيهم الا وهز البنية سقيمها واصفر اللون كاسفه^(٦) وذلك ناشئ فيهم عن عفونة الماء ووقوع اقليمهم في مهاب الرياح المختلفة لان الهواء قد يتبدل في اليوم الواثنا وضروباً فيجبرون للبس القمصان^(٧) مرةً والمبطنات اخرى ولذلك سميت مدينتهم بالرعاء^(٨) وانشد الفرزدق

لولا أبو مالك المرجو نائله ما كانت البصرة الرعاء لي وطنا
وقد لقيت في البصرة جماعة من الادباء مثل واصل بن عطاء^(٩)

وعبد الكريم بن ابي العوجاء^(١٠) والنضر بن شميل تلميذ الخليل بن احمد^(١١) والمؤرج السدوسي الراوية^(١٢) والحسن بن هاني الشاعر^(١٣) وغيرهم. وشهدت حلقة عنية النحوي وابي زيد الانصاري^(١٤) وسمعت

(١) ابن بطوطة ٢ * ١٠ (٢) الايشبي ١ * ١٧٧ (٣) اغاني ١٧ * ١٦

١٧ * ٢٩ وابن خلكان ١ * ٢٩٣ (٤) اغاني ١٧ * ١٠ (٥) ابن بطوطة

(٦) اغاني ١٧ * ٧٨ وابن بطوطة ٢ * ١٦ (٧) القزويني ٦ * ٢ (٨) باقوت

١ * ٦٤٧ (٩) المستطرف ١ * ١٢٦ (١٠) اغاني ٣ * ٢٤

(١١) ابن خلكان ٢ * ٢٣٨ و ١ * ٢٤٤ (١٢) ابن خلكان ٢ * ١٩٠

(١٣) اغاني ٦ * ١٧٩ (١٤) ابن خلكان ١ * ٢٩٣

الحديث عن سفيان بن شعبة الثوري^(١) وشعبة بن الحجاج العنكي^(٢)
 غير اني اصطفيت الخليل بن احمد من بينهم لمخادئات الادب لاني
 وجدته اوسعهم عقلاً^(٣) واحضرتهم رويةً وليس فيهم من يساميه في
 علو الخاطر الا صالح بن عبد القدوس الشاعر ولكني تحاميت
 مجلسه بما يتهم به من الانحراف عن السنة^(٤) وان كنت لا انجس عقله
 حقاً من التعظيم. وقد سمعت انه يجهد نفسه في طلب الدنيا ويلتمس
 السعة منها فلا يحصل عليها الا بعد عصب الريق وفي قوله^(٥)
 لو يرزقون الناس حسب عقولهم ألفيت اكثر من ترى يصدق
 النفات الى ما هو فيه وان النعمة واقعة الى غير اهلها وذلك بخلاف
 الخليل بن احمد فانه متقلل من الدنيا راضٍ منها باليسير والملوك
 تبذل له المال^(٦) وهو لا يقبل منهم شيئاً على مكانه من الحاجة اليه^(٧)
 وقد اشتهر فضله بين الناس بعلم العروض^(٨) ووضعه له على دوائر
 خمس نجزاً منها الأجر الخمسة عشر ولكن ليس هذا كل حظ الادب
 منه فان له في اللغة كتاباً باسمه العين واودعه من عين العلم^(٩) ما هو
 زينة وفخر لدولة الاسلام

(١) ابن خلكان ٢٩٦ * ١ (٢) الخنيس ٢ * ٢٣٠ (٣) ابن خلكان
 ٢١١ * ١ (٤) اغاني ١٢ * ١٥ (٥) انليدي ٢٥٩ (٦) الشريشي
 ٢ * ٢٦٨ والمستطرف ١ * ١٦٨ (٧) ابن خلكان ١ * ٢٤٢ (٨) ابن
 خلكان وابن نباتة والاسعودي ٢ * ٢٦٥ والوطواط ١٩١ والاغاني ١٧ * ١٨
 (٩) ابن خلكان ١ * ٢٤٢ والمقدمة ٢٠٢

الكلام عن البصرة

واقْد ظننتُ البصرة لأول وهلة أنها ليست بالمفرطة الكبر
 فلما طفتُ في ساحاتها وتجوَّلتُ في أرباضها ومحلَّاتها بدا لي أنها
 متسعة البقعة كثيرة العمران^(١) فقلَّ أن يكون بها موضع شُغلاً من
 العمارة خلوًّا من السكَّان . ومبانيها على الغالب من اللبن الآما
 كان من المسجد الجامع فانه مبنيٌّ بالصخر والجصَّ على أتم احكام
 وابدع صناعة واول من بناه عتبة بن غزوان^(٢) واقامة من القصباء
 لاجل ان ينزعه متى شاء ثم يعيد اقامته . فلما جاء ابو موسى الاشعري
 بناه باللبن^(٣) وطلی جداره بالاصباغ ثم قام زياد فزاد فيه واقام
 السقيفة التي في مقدمه^(٤) وحل اليه عمده من الاهواز وبناه بالجصَّ
 والحجر^(٥) ثم لم تنزل به عناية الولاة بعده الى ان وسعت اوقافه وصار
 عالم البصرة وأقيم فيه قاض يفرض النفقات ويحكم في مائتي درهم
 وعشرين ديناراً فادونها^(٦) تخفيفاً عن الدواوين التي لا تحكم الا في
 القضايا المهمة

ثم سرتُ من هذا الجامع الى مسجد علي عليه السلام^(٧) وهو
 مفروش صحنه بالحصباء الحمراء وله اوقاف جزيلة مما وقف له

(١) الماوردي ٦٤٠ * ١ يا قوت (٢) يا قوت ١ * ٦٤١

(٣) اغاني ١٧ * ٢٨ (٤) يا قوت ١ * ٦٤٢ (٥) الماوردي ١٢٢

(٧) ابن بطوطة ٨ * ٢

الفرس ومن يقول بخلافة اهل البيت من العرب وهم يطرقونه
 ويتبركون بزاره كأنَّ وعيد ابي جعفر لم يجد منهم نفوساً راجعة الى
 غرضه فيما أوجد من الفرقة^(١) بين العلوية والعباسية^(٢). ووجدتُ
 في بعض متاخير مصحفاً عليه اثرٌ دافع مثل الدم الجاف يقال^(٣) انه
 القرآن الذي كان يقرأ فيه عثمان لما قُتِلَ. وبعده ان قضيتُ زيارته
 المباركة تجوّتُ في اسواق المدينة فرأيتُ التجارة فيها على اروج ما
 يكون ولا غرو فان البصرة هي فرضة العراق والشام وخراسان وما
 اليها من الديار العالية ما يكسبها حسن الموقع بحيث لا يصدر شيٌ
 من هذه البلدان ولا يرد اليها الا من البصرة^(٤). ولذلك استغل فيها
 العمران وكثرت بها المصانع والصنائع^(٥) الى ان صارت واسطة
 العرب ومنتهى الشرف وقبة الاسلام^(٦)

وما يذكر عن بنائها فيما حدثني الهيثم أميرها ان المسلمين افتقروا
 لاول امرهم الى منزل ينزلون به واذا دهمهم عدوٌ لجأوا اليه واعتصموا
 به فبعث عمر رضي الله عنه عتبة بن غزوان^(٧) واوز اليه ان
 أرند لنا موضعاً في جهة العراق قريباً من المرعى والماء والمخضب فجاءه
 من البصرة اني وجدتُ ارضاً كثيرة القضة في طرف البر الى الريف
 ودونها منافع فيها ماءٌ وفيها قصباء^(٨) فكتب اليه عمران ينزلها بمن

(١) المسعودي ٢ * ٤٠٠ (٢) السيوطي (٣) ابن بطوطة ٢ * ١٠

(٤) الف ابله ولبنة (٥) الفزويني والتناسيم ١٢٨ (٦) المسعودي ٢ * ٦٢

(٧) ابن حوقل ١٥٩ والتناسيم ١١٧ (٨) باقوت ١ * ٦٤٠

معه فوقع تمصيرها في السنة الخامسة عشرة لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم . ولما جلستُ الى التحليل العالم الامثل ودار بيننا الحديث على اخبار الاسلام الأوَّل أخبرني ان البصرة انما اخطها العرب نكايةً للفرس لتحويل التجارة من سواحلهم اليها وذلك لما صالت منهم الأجناد واتسعت لهم الأجناد رأوا ان يستولوا على زمام التجارة فبنوا هذه المدينة فرضةً للعراق والمشرق كله ففشت فيها العمارة وغصت بالناس على ما رحبت ارجاؤها . يقال ان كان فيها من مقاتلة العرب لايام زياد ثمانون ألفاً^(١) واخبرني الهيثم ان اهلها يبلغون اليوم خمسمئة الف من الرجال بدليل المال الذي فرقته فيهم ابو جعفر وكان الف الف درهم ما اصاب الراس منهم الا درهمين^(٢) ليس غير

وتبعد البصرة عن عبَّادان حيث الشاطئ نحو ساعة زمانيةً وعندها تخلط مياه دجلة والفرات^(٣) وتصبُّ في البحر الملح بعد ان تفقد عذوبتها^(٤) لان المدُّ يأتي الى فوق البصرة باميال فاذا امتزج به ماء دجلة صار ملحاً^(٥) ولقد يخال الرأي لأول وقوع المد ان البلاد صارت غديراً كما وقع لمحزة بن عبد الله أمير البصرة لعهد ابن الزبير وقد ركب يوماً الى الفيض فقال ان هذا الغدير ان رفقوا به ليكفيهم صيفتهم هذه فلما كان بعد ذلك ركب اليه فوافقه جازراً فقال قد

(١) ياقوت ١ * ٦٤٤ (٢) الشريشي ٢ * ٤٢٧ (٣) المقدمة ٥٥

(٤) الفناوي ١٢٦ والاصطخري ٨١ (٥) القزويني ٢٠٥

رأيتُ ذات يوم فضنتُ ان لن يكفهم فقال له الاحنف بن قيس
ايها الامير ان هذا لمالا يأتينا ثم يغيض عنا ثم يعود فنجمل وعاب
الشعراء ذلك عليه فيما تناشدوا من الابيات ^(١)

ولقد تصفحت في البصرة كثيراً من قصورها المشرقة واستقرت
اماكنها المشهورة بما وعيتُ عنها من الانبياء واحسن ما استظرفت
منها قصر محمد بن سليمان الهاشمي ^(٢) وهو اوفر بني العباس مالاً
واعطاهم لشاعر نوالاً ^(٣) وغلة ضياعه في كل يوم مئة الف درهم ^(٤).
وقد بناه على بعض الانهار واستفرغ في زيته جهده ^(٥) واتخذ في
جنانه المهي والغزلان والنعام وانواع السباع والطيور المغردة فجمع
فيه محاسن الحضارة والبداءة وفيه يقول الشعراء ^(٦)

زُر وادي القصر نعم القصر والوادي في منزل حاضر ان شئت او بادي
ترقى بو السفن والظلمان حاضرة والضب والنون والملاح والحادي

الى آخر الابيات. واما القصور التي بقيت بعد اربابها فانها الكثير في
البصرة شاهدتُ منها قصر الأوس بن ثعلبة ^(٧) الذي ولي العراق
وخراسان لأيام الامويين وهو قريب من المبرد ^(٨) وعليه قباب
مرفوعة يغص الجوبها صعوداً ومن حوله خمائل رائعة كأن الايام

(١) اغاني ٢ * ١٢٢ (٢) باقوت ٤ * ١١٨ (٣) انليدي ١٤٥

(٤) المسعودي ٢ * ٢٠٨ (٥) الفزوني ٦ * ٢٠٦ (٦) البتية ١ * ٩٦

والفزوني وبقوت ٤ * ١١٨ وابن نباتة والشريشي ٢ * ٤٢٦ (٧) اغاني

(٨) ٢ * ٢٦ اغاني ١٢ * ١٠

لا تزيدها الأخضره ونضارة وقد اجاد ابن ابي عيينة في وصفها
حيث يقول^(١)

بفرس كابكار الجماري وترية كان تراها ماء ورد على مسك
في اطيب ذاك الفصر فصراً وتزماً وبافج سهل غير وعير ولا ضنك
وشاهدت قصر الأحنف بن قيس^(٢) المقدم ذكره في رجة المنجاب^(٣)
وداراً لانس بن مالك خادم النبي صلى الله عليه وسلم^(٤) وابواناً
للزبير بن العوام^(٥) تنزله التجار وارباب الاموال واصحاب الجهات
من البحرين^(٦) وغيرهم. وآخر لعبيد الله بن زياد ويسمى البيضاء^(٧)
والناس يدخلونه لرؤية زينتته والى مقربة منه مجلس ابيه زياد وفيه
خطب خطبته البتراء^(٨) المشهورة التي اخذت بقلوب البصريين وقد
تداعت جدرانها على ممر الايام فلم يبق منه الا اثر شاخص ورسم
ناقص

العرب البادية

ولقد اتيت مريد البصرة عن طريق المهالبة^(٩) فسكة المريد^(١٠)
فاذا هو ساحة كبيرة تنوخ فيها الجمال وتحط بها الرحال^(١١) ويعلق

- (١) ياقوت ٤*١٠٩ واغانى ١٨*١٤ (٢) اغانى ١٧*٥٦ (٣) اغانى (٤) اغانى
١٢*٦٢ (٥) ياقوت ٤*١٠٩ (٦) المقدمة ١٧٨ (٧) المسعودي
١*٢٢٣ (٨) الفزوني ٦*٢٠ (٩) سميت بذلك لانه لم يفتحها بالحد
الله والثناء عليه (١٠) انليدي ٧*١٠ (١١) اغانى ١٢*٦٤ (١٢) نجوم
البلدان ٩*٢٠

ففيها الأشعار التي يتناشدها العربان في أيام من الشهر معلومة يكون
 لهم بها مجالس^(١) وبيعون ويشترون. وهناك موضع يقال له شمس
 الوازنين وفيه مسجد صغير يُعرف بمسجد الانصار^(٢) قد طلي
 بالاصباغ ولم ترتفع صوامعُه الأ قليلاً. ووجدت صحراء البصرة
 وعرة مرملة^(٣) لا يُغرد عليها طير ولا ينبت فيها شجر غير النخيل
 لفقدان الماء فيها^(٤) إنما خيرات البصرة تردها من الأبله وهي عامرة
 بالناس خصبة الجنباب^(٥) كريمة البقعة يشقها جدول من دجلة^(٦) ولا
 تخرق أشعة الشمس أرضها لالتفاف شجرها بعضه على بعض^(٧) وفي
 مرساها مجتمع كثير من مراكب الهند والصين لان الريح فيها واسع
 لاهل التجارة^(٨). وإما النخيل المتصل فيما بينها بالبصرة فاعلى الصحراء^(٩)
 فانه كسب وافر للناس يقال ان ثمنه يُعدل^(١٠) ما يجمل الى بيت المال
 من كافة الاقاليم

والى ما وراء المربد في ظاهر البصرة عربان من عامر^(١١) وقيس
 عيلان كنتُ اجلس الى مشيخة حيم وأبيت في منازلهم وأكل من
 ثريدهم وأشرب من اللبن نوقم واجلس على الوبر والانطاع وأعي

- (١) اغاني ٧ * ٥٠ (٢) اغاني ١٧ * ١٨ (٣) الاصطخري ٨٠
 (٤) تقويم البلدان ٢٠٩ (٥) الاصطخري ٨١ (٦) التقاسيم ١١٨
 (٧) القزويني ١٩٠ وابن حوقل ١٦٠ (٨) ياقوت ١ * ٩٧ (٩) الفرمانى
 ١٥٤ * ٥ (١٠) ياقوت ١ * ٦٥٠ (١١) اغاني ٤ * ١٢٩

أحاديثهم بإقبال واستمتاع واشهد حلقات القصاص فيما يذكرون من أخبارهم وإياهم فوجدتهم يتفاخرون بتأليف الخطب وقول الشعر والسيف والضيف^(١) ولا يهناون الأبطال بولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنج^(٢) . وعلمت من أخبارهم أنهم لا يأتون الفحشاء . بل يعاقبون الزناة بالتل^(٣) ولا يباشرون من النساء إلا من حلت لهم من أهلها حتى لقد يكرهون تزويج اثنين قد انتشرت أخبارهما بالمحبة^(٤) . وذكر هؤلاء القصاص أن جميلاً لما سأله خلاته أن ما علمت مع بثينة طول هذه الأيام قال كنت أمتع عيني من وجهها وسعي من حديثها ولم أمد إليها يداً غير مرة واحدة وقد أخذت يدها ورفعتها إلى صدري حتى تشعر بخفقان قلبي^(٥) . وهذا ما يدل على نبيل الهمة وعفاف النفس وقد بقي في خاطري ذكر رقيق عذب لاجتماعي بهؤلاء العربان وقد طاب لي الجلوس إلى قيس عيلان أكثر منه إلى بني عامر لاني وجدت فيهم بياناً وفصاحة^(٦) غير أنهم لم يلبثوا في البصرة إلا قليلاً ثم سألت نعامتهم وزفراً لهم فرحت أتوجه إلى منازل عامر وعرفت بالمقام بينهم كثيراً من محامد العرب الموصوفة . وقد اعظمت رواج الأدب بينهم والكتابة مقفودة عندهم حتى أنهم يجرون على قواعد اللغة في أشعارهم ومحاوراتهم بما ليس بالامكان أصح منه^(٧) ولم في

(١) العقد الفريد (٢) الجوهري (٣) تزيين الأسواق (٤) اغاني

١٠*١٢ وتزيين الأسواق ٦٤*١ (٥) تزيين الأسواق ٩*٢ (٦) اغاني

٥٢*٢ (٧) هذا نجد فيما دون الأدباء من كلامهم ومحاوراتهم

كلامهم من الامثال الحكيمية ما لا نجدُهُ في كثير من أمم العلم
 والحضارة. وهم اصح الناس ابداناً^(١) اذ ان الرياضة الجسدية موجودة
 في البادية غير مفقودة وطعامهم اللبن واللحم والتمر^(٢) مما لا يجعل الى
 سقم المعدة سبيلاً والظعن كفيلٌ لم بطيب الرياح التي لا تختبث الاً
 مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات^(٣) واكثرهم من صلابة الجسم
 وخفته بحيث يلحق الخيل^(٤) والحمر الوحشية عدواً^(٥) ولقد سمعتُ
 من يحدث عن تابط شراً انه كان اذا جاع نظر في السهل الى الضباء
 فانتقى لنفسه اسنمها ثم يجري خلفه فلا يفوته حتى يأخذهُ فيذبحهُ بسيفه^(٦).
 ووجدتهم يوفون بالقول^(٧) من غير ان يكتبوا العهود^(٨) ويأخذون
 بشارهم اخذاً شديداً ينشأ فيهم من بعدهم عن القضاء لانهم لو كانوا يعانون
 الاحكام لفسد البأس فيهم وذهبت المنعة منهم^(٩). ووجدتهم يضيفون
 نزلاءهم ضيافة يوجبونها على نفوسهم ولو كان النزلاء قنلة آبائهم^(١٠)
 وكنتُ اسمع عن كرمهم احاديث لم اتلقاها من جانب الثقة فلما نزلتُ
 بجوارهم تحققتُها بالمشاهدة والاختبار ووجدتُ ان كلهم كريم حتى لقد
 يكون السخاء تسعة فيهم وواحداً في الناس^(١١) ومن زعم ان حاتم
 الطائي اكرم العرب فقد ظلمهم جميعاً. وظني بأخذهم في هذه الضيافة

(١) المقدمة ٧٧ (٢) المسعودي ١ * ٢٢٧ (٣) المقدمة ٢١٤

(٤) اغاني ١٢ * ٤٩ (٥) اغاني ١٧ * ٨٤ (٦) اغاني ١٨ * ٢١٠

(٧) اغاني ٤ * ٥٧ (٨) العقد الفريد (٩) المقدمة ١٠٩ (١٠) انليدي ١٧

وكتاب الاغاني (١١) المحاضرة ٢ * ١٨١

الواجبة انه امرٌ طبيعيٌ عندهم لان الراحل منهم قد يفوز في الفلوات
اياما طويلاً على جهدٍ من الجوع والعطش فاذا انتهى الى خيابٍ
مضروب وراه أهله بمكانه من المشقة واللغوب اقروه وعلفوا مطبئة
واستوقدوا له ناراً يصطلي بها من كلب البرد كما يقولون حتى اذا
اصابهم في مسيرهم مثل هذا الجهد والعناء تلقاهم الناس على السعة
من الضيافة . وكان ينتهي بهم الكرم الى ان يقوم لقبائلهم منادٍ في
الاسواق ينادي بالناس هل من جائع فنطعمه او خائف فنؤمّنه او
راحل فنحمله وهذا احسن ما يكون من محاسن النفس الشريفة .
وهذه المحامد كلها قد كانت فيهم منذ ازمان الجاهلية ثم كان لهم في
مناقضتها امورٌ لا تطاق فلما نزل القرآن روض منهم الاخلاق
وصرف عنهم المكروه من العادات . . . والافان رجال الجاهلية قد
كانوا يتزوجون بنساء آبائهم^(١) ويألفون غير ذلك من الخشونة التي
ذهبت بمجيء الاسلام بالهدى ودين الحق

انما اضطر العرب الى سكنى البادية لانهم وجدوا في ارض قفرة
قد تراكت عليها الرمال المحرقة وما كانت تنبت لهم حباً ولا بقللاً
وكانت آبارهم تجف في حارة القيظ وتبخل بالماء على بعد قعرها فكانوا
يظعنون لورود غيرها من المناهل ثم ان الله تعالى اوجد لهم الابل
والسائمة فكانوا يرتادون المسارح لها ويتطلبون المرعى والكلاب فكان

سكناهم في الوبر بما قدمنا من الاسباب امراً طبيعياً ولو انهم نزلوا
 الامصار ورفعوا بيوتهم من الحجارة لما اتسعت من حولهم المزارع
 والمسارح لحيواناتهم^(١) فضلاً عن كونهم يحسبون المدن محبساً لا صبر
 لهم عليه لان الحرية عندهم من افضل ما منحهم الله وهم يبذلون نفوسهم
 ونفائسهم دون تقريرها لانفسهم. فانا لا نجد في احاديث النقلة ان امة
 استعبدهم في غابر الدهر قط فهذه الكلدان والسريان واليونان
 والرومان والفرس وآل ساسان قد ملكوا العالم الا العربان وكان
 في نفس الاسكندر الرومي ان يدعوهم الى طاعته بعد ان تم له الغلب
 على المشرق غير ان المنية عاجلته قبل الاقدام على هذا التغير يفرزق
 بهذا الموت سعادة تامة لسلامة غزاته عن الاخفاق والافلوا قدم على
 العربان لما ثبت له جند عليهم وهم بمكانهم من اطلاق النفس على غير
 حصر وحمل بيوتهم الى حيث يبيتون في امن من العدو ولو كثر
 واقد لقيت من هولاء العربان فتى عليه ملاح الذكاء والفتانة
 فذكرت له ان في لقائه الملوك لخير الله وسبيلاً الى نوال العلى فاخبرني
 انه نزل على الزوراء لأول ما بناها ابو جعفر مقبلاً فيها ولكن لم يكن
 الا القليل حتى مل الحضر ومال به الشوق الى البادية وانشدني
 وهو منصرف

ليبت تخفق الارواح فيه أحب الي من قصر منيف

ولبس عباءةً وتقرُّ عيني أحبُّ إليَّ من لبس الشفوفِ
والايات لفتاةٍ من بنات العرب صارت الى الحجاج بن يوسف ثم لم
تطب نفساً بالمقام عنده فرجعت الى البادية وانشأت الايات التي
انشدنيها هذا الغلام^(١) فسبحان من قسم المعاش بين الاجيال
وركب فيهم طباعاً على اميال لا اله الا هو ذو الاكرام والجمال



الانفصال عن البصرة

كان مقامي في البصرة شهراً وثمانية ايام ولما طويت بساط
الاقامة تهيأ لي ان اصعد على دجلة^(٢) سفراً يخفف عني مشقة المركب
على ظهور المطايا فدفعت حمولي الى الرِّبَّان وانفصلتُ عن البصرة
لاول هُدًى من الليل حتى اذا طلع النهار كنا في متوسط بطاح مفروشة
بالنخيل على مد البصر وفيها خيام لبطونٍ من شيبان^(٣) وتيم^(٤) قد
ضربوها على مرتفعات من الارض. فلما كان بعد ايام طلعت علينا
سهومٌ يأخذ حرها بالنفس^(٥) وكدنا ان نتكص على الاعتاب لاختلاف
الريح فوق رأي الرِّبَّان على ان ينزل الملاحون الى البر ويربطوا
المركب بامراسٍ يجرونها بها الى ان يحصل الفرج. ومضى الليل كله
من غير ان تكحل عيني انماضاً من شدة الحر الى ايام عشرة لم نزل

(١) انليدي ٢٦ والوطواط ٢٢ (٢) الف ليلة وليلة (٣) تزيين

الاسواق ٧*٢ (٤) اغاني ٧٨*٩ (٥) اغاني ١٧٨*٩

بها في مغالبة الريح ومقاساة عنتها الشديد الى ان وصلنا الى مدينة
واسط من ارض كسكر^(١)

هذه المدينة في فضاء من الارض طيبة الاقليم والنسيم^(٢) ولكن
الحرق غالب عليها لاقبال الرياح من جهة الرمال المتراكمة على
هضابها^(٣). ومبانيها من الاحكام بمكان سام ولا سيما القصر الذي
ابتناه الحجاج امير العراق^(٤) وهوباق الى هذه الغاية^(٥) في الجهة الغربية
والناس يسمونه الخضراء^(٦) وله قبة مشهورة في مباني الاسلام وفيه
احواض كثيرة يرقى اليها ماء دجلة^(٧) واعظها حوض من الرخام
المجزع في مجلس فسج عليه سرير مذهب^(٨) كان مقعدا للحجاج في
مجالسه العامة. وهذا القصر بهج^(٩) مزخرف بانواع الزينة لان
النفقة عليه بلغت نحواً من عشرين الف الف درهم^(١٠) ولكنه سجع
في عيني بما ورد على خاطري عند مرآة من قبائح الحجاج فكانه بيت
قد رفعت جدرانه على دعائم الظلم والاعساف

وبقيت في واسط ثلاثة ايام لاخلاف الريح ولكن علي كره
من النفس لاني كنت اراها بعين الماقتين^(١١) لها ونزلت بها في فندق

- | | | |
|----------------------|--------------------|---------------------|
| (١) تقوم البلدان ٢٠٧ | (٢) القزويني ٢٢٠ | (٣) القزويني ٢٢٠ |
| (٤) الاصحري ٨٢ | (٥) الشريشي ٢ * ٨٢ | والسعودي ٢ * ١٨٢ |
| (٦) اغاني ١٧ * ٧٠ | (٧) اغاني ١٧ * ٧٠ | (٨) الابشيبي ١ * ٦٣ |
| (٩) يافوت ٤ * ١٨٥ | (١٠) يافوت ٤ * ١٨٧ | (١١) التقاسيم ١١٨ |

على شاطئ النهر حيث الجسر^(١) المقام من السفن^(٢) وإمامة ساحة
تباع فيها الخبول ويكون بها سوق في أيام معلومة من السنة فيأتيها
العربان بما يريدون بيعة من الخيل الآلاف من التي يخفضون
عليها احتفاظ الآباء بالبنين^(٣) فانهم لا يفتنون عنها بالقليل ولا
بالكثير من المال وإذا طلبت اليهم بيعها منك باعها بالثمن فانت
مردود في سؤلك يقولون لك هذه خلاصنا من دهات العدو وإذا
اطلقناها العنان طبقت الآفاق بأسرع من لح البصر

ولم تنزل هذه السوق جارية في واسط منذ بنيت الى هذه الغاية
لانها كانت في اول هذه المائة من عمر العراق^(٤) بما خصها الله من
خصب التربة^(٥) وكثرة الخيرات^(٦) فلما وقع بها الطاعون الجارف
منذ أربعين سنة^(٧) ونزلت بالناس السنون وأخذتهم المجاعات أتى
عليها الخراب والانحلال وتجانى الناس عن سكنائها بما توالى عليها
من الفتن التي وقعت في صدر الدولة الى ان تم الغلب لبني العباس
واستقر فيها السلم وكان عهد الطاعون بها بعيداً فتسارع ارباب
التجارة الى استيطانها لتوسطها في البلاد وما يتسنى لهم فيها من قرب
المناولة والمواصلة اذ ان منها الى دار السلام خمسون فرسخاً ومنها الى

(١) التفاسيم ١١٨ (٢) تقويم البلدان ٢٠٧ والاصطخري ٨٢

(٣) تزيين الاسواق (٤) القناوي ١٢٦ (٥) ابن حوقل ١٦٢

(٦) الفرمانى ٦ * ١٢٦ (٧) ابن الاثير ٥ * ٧١

البصرة خمسون ايضاً ومنها الى الاهواز مثل ذلك ^(١) وظني انها
سميت بواسطة لهذا السبب من توسطها في العراق ^(٢)

وقد اتفق قبل الانفصال عنها اني لقيت فيها شيخاً كان ابوه
خادماً عند الحجاج حاسبه الله فحدثني عن ظلمه وعسفه بما نتفطر له
الأقفة رحمة على اهل البيت واصحابهم ^(٣) لانه كان يقتل منهم جزافاً
على التهمة الى ان بلغ عدد الذين قتلهم صبراً مائة الف وعشرين
الفاً ^(٤) وكان في السجن عندما اهلكه الله اكثر من خمسين الفاً
يرسفون في سلاسل الحديد ولا ذنب لهم الا انهم يعادون من عاداه الله.
وكانت الناس لا يامه اذا تلاقوا في المجالس والجماع والمساجد
والاسواق تساءلوا من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن
قطع ^(٥) وانتهى به الافحاش في الظلم الى ان يأمر الناس بخلق لحامهم
ويعاقب المخالف له بذلك بتسميره في الحائط ^(٦) فموت جوعاً
ولماً وهو لا يستطيع سبيلاً الى الحراك

وقد رسم لي هذا الشيخ صورته بانه كان قوي البنية متجسماً الى
السمن ولا يزال العرق متصباً على جبينه وصدغيه من تحت قلنسوة
قد احاطها بعامة خضراء ^(٧) وكانت له مهابة تقصم ظهر الوافد عليه حتى

(١) الشريفي ٢ * ٨٢ (٢) التفاسيم ١١٨ (٣) كتاب الفخري

(٤) اغاني ١٦ * ٨٢ (٥) المستطرف ١ * ١٢٨ (٦) ابن

خلدون ٢ * ٤٢ (٧) العقد الفريد ٢ * ١١

انه لم ير من الناس من انبسط معه في الكلام او نجراً على ان يرفع اليه
بصره الا الملوك والقواد ومن زهي من الامراء قدره . وكان شديد
التهويل في خطيه واذا صعد المنبر تافع بمطرفه ثم تكلم رويداً فلا
يكاد يسمع حتى يتزايد في الكلام فيخرج يده من مطرفه ثم يزجر الزجرة
فيقرع بها اقصى من في المسجد^(١)

قال وكان ابي محمد ثني عنه انه كان يجدلذة^(٢) في سفك الدماء^(٣)
وارتكاب امور لا يقدم عليها غيره^(٤) ولا سبق اليها سواه حتى اذا
ارسله عبد الملك احد ملوك أمية الى العراق كان اول ما خاطب به
اهل الكوفة ان قال اني والله لأرى ابصاراً طامحةً واعناقاً متطاولةً
ورؤوساً قد ائبعت وحن قطاقها واني انا صاحبها كآني انظر الى
الدماء تفرق بين العام واللى^(٥) . فغلبهم بقوة الرجال لا بالسياسة
والتحليل ولا سيما ان جنوده كانوا من الشام^(٦) وهم على غرض
الامويين ومخالفون لاهل البيت فلما اوجدهم بين اعدائهم لم ير منهم
الا نفوساً مستقتلةً وراجعةً الى رأيه في كل امر ونهي فحلمهم على
منازلة مكة وضربها بالنار ورمي الكعبة بالمنجنيق والعياذ بالله حتى
تصدع جدار البيت الحرام . فاقام ملك أمية على هذا الظلم وقومه لم

(١) العقد ٢ * ١٢ (٢) السعودي ٢ * ١٠٢ (٣) الطواط ٢٢

(٤) ابن خلكان ١ * ١٧٢ (٥) السعودي ٢ * ١٠٤ و ابو الفرج ٢٠٠

والعقد الفريد ٢ * ١٨٧ (٦) الكثر ٢٢٢

الى انتضاء اجلهم وذهاب المخلافة عنهم باذن الله
 هذا تنف يسير من اخبار هذا الظالم الغاشم وقد رأيت تناقل
 الحديث عنه في افواه الواسطيين كتناقل البصريين له عن زياد
 بن ابيه وكلاهما قد اذاقهم من الهوان وانزل بهم من الجفاء ما لا يقدم
 عليه احد من الجبابرة الظالمين. وإن يكن لها فضل في تدبير ما
 خولا من الولاية فان لزياد فضلاً في حسن السياسة وبلاغة الخطاب
 اعظم من فضل الحجاج بن يوسف لان ولايته ما قامت الا
 بالمجبروت الفاهر والسيف الباتر

المرور على المدائن

وكان انفصالنا عن واسط في ليل رطيب قد انفتق سحابة عن
 القمر فتضينا جزءاً كبيراً منه بالسمر ولما بدت تباشير الصباح كداني
 محاذاة قصر يقال له قصر الرمان^(١) ومن حوله خيام مضروبة
 للعربان فوق ذلك من نفسي موقع الاستعبار من الدنيا في نعيمها
 وشقائها اذ كانت الاضداد منها على هذا الوجه فلما يقع عليها النظر
 في وقت واحد. وكان يلوح لنا في صدر السهل الى آخر النهار بنا
 عظيم أخبرت انه من جملة المناظر التي اقامها الحجاج بينه وبين قزوين
 وهي اذ ذاك آخر الثغور حتى اذا ظهر فيها الخوارج دخنت بالنهار

(١) ابن خلكان ١ * ٤٧١ وياقوت ٢ * ٨١٤

فدخنت المناظر كلها أو استوقدت بالليل نارا فاستوقدت المناظر
 فيعلم ذلك^(١). ولم نزل نخترق عباب دجلة يوماً بعد آخر حتى جزنا
 جبل والنعمانية^(٢) واقبلنا على المدائن مع طلوع الفجر فرأينا على البنية
 من موضعنا بناء ذاهباً في العنان أخبرني الربان انه ايوان كسرى
 انوشروان^(٣) فركبت البر مع جماعة الركبان لأشاهد آثار ملوكنا^(٤)
 من آل ساسان وما رفعوه في غابر الزمان فاذا البنيان في غاية
 العظم^(٥) والاتقان طوله نحو من مئة ذراع وعرضه نحو من نصف^(٦)
 ذلك وقدرت في ارتفاعه اكثر من ثمانين ذراعاً وسبك جداره عشر
 اقدام وطول الأجر فيه ثلاثة اشبار في عرض شبر^(٧) واسع . وليس
 في مباني الأجر ما هو أبهى^(٨) ولا أتم حسناً منه^(٩) وكلما يوجد فيه موضع
 غفل من رسم أو نقش أو كتابة وهو بعد من العجائب العظيمة^(١٠)
 ويشهد لما اقتدر عليه الفرس^(١١) في عهد الأكاسرة الذين جبنوا معظم
 الدنيا حتى صار يضرب به المثل^(١٢) فيما جمع من الضخامة والإحكام . ولا
 يرى فيه اليوم من الآثار الجميلة الأصور على جدرانه تمثل آلهة
 جبابرة وسباعاً كاسرة ومشاهد حروب^(١٣) يفوز بها كسرى الخير

- (١) ياقوت ٤ * ١٨٦ (٢) تقوم البلدان (٣) ابن جبير ٢١٧
 (٤) القزويني ٢٠٤ (٥) ياقوت ١ * ٤٢٥ (٦) أشبهي ٢ * ١٧٩
 (٧) ياقوت ١ * ٤٢٥ (٨) ابن خردادبة ١٢٢ (٩) الاصحري ٨٦
 (١٠) المحاضرة ٢ * ٢١ والمفرزي ١ * ٢١ (١١) المقدمة ١٥٤ (١٢) القنوي
 ١٢٥ (١٣) القزويني ٢٠٤

انوشروان^(١) رب هذا القصر واما مادون ذلك من التحف المنقولة
فقد فقدت بعد الفتح وبلغ المحمول منه الى بيت المال الف الف دينار
من الذهب^(٢). وشأنه في الجملة من الفخامة والاثقان مما يجير الاذهان
الثاقبة على ان الايام قد اُحالت عليه بمعول الفناء فلم يقوَ على رفعه
بالطين. وزاد على ذلك كله ان ابا جعفر لما ابتنى الزوراء حمل اليها
من أجره جانباً^(٣) كبيراً على بعد الشقة ووفر النفقة فعارضة خالد
بن رمك رعاه الله وقال يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه مائلاً
يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأهل هذا
الايوان وفي ذلك فخر للاسلام والمسلمين. فاتهمه أبو جعفر في النصيحة
وقال اخذته العرة للفرس وابي الأتعصب لقومه فوالله لا صرعته
قريباً. ثم شرع في هدمه واتخذ له الفؤوس وحماه بالنار وصب عليه
المخل حتى اذا دركه العجز وخاف الفضيحة بعث الى خالد يستشيرهُ
في التجاني عن الهدم. فقال يا أمير المؤمنين قد كنت أرى ان لا تهدم
فاما اذ فعلت فاني ارى ان تستمر على ذلك لئلا يقال عجز سلطان
العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم فعرفها المنصور واقصر عن
هدمه^(٤) ولكن بعد ان قوض جانباً من الأثر
ولما وقفت بالايوان كانت الشمس لأول طلوعها وكان الندى

(١) ياقوت ٤٢٧*١ (٢) المستطرف ١٧٩*٢ (٣) الاصحطري

٨٦ (٤) المقدمة ٣٠٢ والفخرى ١٨٥ والمستطرف ١٧٩*٢ وياقوت ٤٢٦*

بتللاً ما بين الجدران على الاعشاب التي تنبج اليها طيور الخراب
فتعدت اتامل ما كان عليه رب هذا القصر من العزة والقدر
وكيف اخنى عليه الدهر فاخذتني لذلك عبرة من مشاهدة الآثار

الباقيات وتذكرت نظم شاعر يقول هذه الابيات ^(١)

ايها الشامت المعير بالدهر انت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من - الأيام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير
اين كسرى كسرى الملوك انو - شروان أم اين قبله سابور
واخو الخضر اذ بناه واذ دجلة تجي اليه والخابور
شاده مرمرًا وجللة كلسًا فللطير في ذراه وكور
لم يهبة ريب المنون فباد السهلك عنه فبابه مهجور

وكان لمراي هذه الآثار تأثير في خاطري لا يبرح منه الدهر

وكان اقلاعنا عنها قبيل الظهر ونحن على ستة فراسخ ^(٢) من دار

السلام. وقد فرغت من تقييد هذه الرسالة في آخر يوم من شهر

رمضان ارانا الله بركته بمنه وكرمه ونحن قد جزنا موضعاً يعرف

بالنهردان ^(٣) وصرنا على مطل من أم البلدان



الرسالة الثانية

المقام في دار السلام

اتفق وصولي الى دار السلام في عيد الفطر قبيل العتمة وهي
تلتع بالأنوار ويتصاعد منها للمسيحين بحمد الله والمقدسين له
نعمات تأوَّبها معهم ارجاء البلد . وتعذر المسير على مركبنا تجاه باب
البصرة^(١) أو كاد لاذحام الزوارق المشتبكة في هذا المكان بين
صاعدي ومنحدر وهي مطلية بأبهي الاصباغ ومرصعة بالسرج والمشاعل
حتى كأن دجلة مجرَّة السماء لكثرة ما عليه من الأنوار الوقادة^(٢) .
ثم تقدَّمت بنا المركب حتى وقفت بمقربة من الجسر وعلى مطل من
قصور الخلافة التي كانت تلتع بضوء الشان^(٣) فركبت البر متجولاً
في شوارع المدينة حيران^(٤) لما رأيت من زخارف الزينة التي اتخذها
قوم^(٥) قدر كبروا مطايا الترف وتجاروا في ميدان النعيم^(٦)
وكانت الساحات خاصة بالناس وأكثر ما في لباسهم السواد
الفاحم تشبهاً بولاية الامر من آل هاشم^(٧) الذين اتخذوا السواد^(٧)

(١) باقوت (٢) كتاب الف ليلة وليلة (٣) اغاني ٤* ١٨٩

(٤) فاكهة الخلافة ٢٠٨ (٥) اغاني ١٧* ٨٢ (٦) ابن جبير ٤٧ وابن

عابد بن ٥* ٣٤٤ (٧) الماوردي ١٨٥ وابن جبير ٢٠٤ وابن خلكان ١* ١٥

في شعار الخلافة حزناً على شهدائهم من اهل البيت ونعياً على بني أمية^(١) في قلمهم^(٢). وعليهم بدل العمام قلائس طوال^(٣) مصنوعة من القصب والورق ومابسة بالسواد ايضاً وبدل الدروع دراعيات^(٤) مكتوب عليها بين كتفي الرجل^(٥) فسيكفهم الله وهو السميع العليم^(٦) وكان هذا الزي مخصوصاً بمجوزة ابي جعفر منذ ثلاث سنين^(٧) ثم توسع عن الخواص حتى صار في عامة الناس

وقد اخذت في مسيري عن قطعة عيسى الهاشمي الى محلة يقال لها الميدان^(٨) ومنها الى شارع ابي جعفر^(٩) فوجدته كاحسن ما يكون من الشوارع. وله السيادة عليها بامر من الاول رسعه^(١٠) الى اربعين ذراعاً وان كان يشاركه فيه غيره والثاني طوله من دور الخلافة الى محلة باب الشام على استقامة ليس بالامكان أقوم منها. فلما صرت فيه قابلت في دور الخلافة زينة قد اتخذت فوق حنايا عظيمة تحمل قبة عليها ثمانون ذراعاً^(١١) يقال لها القبة الخضراء^(١٢) وهي عام الزوراء ومأثرة بني العباس. ثم اني اقبلت فيه على مسجد حافل عليه ازدحام فملت اليه فاذا برجال متمنطقين بالسيوف يرجعون الناس ويجعلون

(١) المقدمة ٢٢٥ (٢) ابن الاثير ٥ * ٢٤٥ (٣) السبوطي

(٤) اغاني ٩ * ١٢١ و ٥ * ٩٥ (٥) سورة البقرة (٦) ابن الاثير ٥ *

٢٤٥ (٧) اغاني ٢٠ * ٦٦ والوطواط ١١٢ (٨) ابن خلكان ١ * ٢٠

(٩) ابن الاثير ٥ * ٢٢٢ وابن خلدون ٢ * ١٩٧ (١٠) الفزوي ٩ * ٢٠

(١١) المسعودي ٢ * ١٨٢

ممرًا بين جوعهم ووراءهم رجل طويل اسمر^(١) نحيف خفيف العارضين
 معرَّق الوجه^(٢) ناطق العينين عليه ثياب سود وقلنسوة^(٣) مطوّقة
 بوبر اسود من الاوبار الغالية الثمن وفي وجهه مهابة الملوك^(٤)
 وجمالاتهم فعرفت انه ابو جعفر امير المؤمنين علي غير ما دلّت عليه
 حاشيته اذ الشمس لا تخفى وان سترت . ثم لم ازل اتبعه بالعين^(٥)
 حتى نوارى بين الجموع وركب بغلة^(٦) عليها حلية خفيفة من
 الفضة^(٧) وكان لجامها في يد امير مقدم في دور الخلافة

ثم اتي دخلت المسجد وقد غصّ باهله وشرق بحفله فاذا على
 منبره خطيب ذو شفقة يقال له الحجاج بن ارقطاة وقد كان ولي
 القضاء^(٨) لابي جعفر على بعض الاعمال فوجدت قبلة من العلم ما
 يتعذر وجود مثله في صدور الرجال ذلك^(٩) ان كان بمقربة منه
 قرأ سبعة يتلون الآيات من القرآن الكريم الى مئة آية من مواضع
 متفرقة وسور مختلفة فلما فرغوا من تلاوتهم تطيرت اليرقعة في
 مسائل الفقه فاجاب عنها بكلام اقطع من المرفه وحدث عن
 البحر في بعد الغور وقرب المغترف . وعهدي بمن اقيمت من الخطباء
 انهم ما سمعتهم الا وتمنيت ان يسكتوا مخافة ان يخطئوا ما عدا هذا

(١) العقد الفريد ٥ * ٥٢ (٢) الخميس ٢ * ٢٢٤ (٣) ابن عون

(٤) الفخرى ١٨٦ والدميري ١ * ٩٤ (٥) الخميس ٢ * ٢٢٤ (٦) ابن

خلدون ٢ * ١٨٥ (٧) المقدمة ١٤ (٨) العقد الفريد ٢ * ٥٢

(٩) ابن جبير ٢٢٤

الشيخ في جوابه على هذه الرقع . ولما فرغ منها اندفع بخطاب في تفسير كتاب الله وايراد الاحاديث ^(١) عن النبي صلى الله عليه وسلم الى ان أخذ في سرد الآي المقررات وهو يأتي بها على نسق القراءة من غير تقديم ولا تأخير حتى انتهى الى آخر آية وهي قوله تعالى في بيوت أذن الله ان ترفع الآية ^(٢) فانتظم خطبة يذكر بها المسلمين وقافية كلامها الألف اللينة واللام تردداً لموقف الأصال من الآية حتى ارسلت العيون لحشية الله عبراتها

ولما كان الغد بكرت الى لسان الشريعة ابي يوسف ومنزلة على نهر عيسى ^(٣) في قنطرة الزياتين ^(٤) بمقربة من دور الخلافة فتلقاني بالقبول والاكرام وأبي الأضيافتي عنده على الرحب والسعة وقد طيب لي سكني الزوراء وأملني بالحصول على ما ارتجيه من خدمة الدولة لان الفرس لا يعدمون محلاً في مناصبها ^(٥) والوزارة في يد خالد بن برمك من ملوكنا وانا اليوم مقيم عنده اخرج في الفقه عليه وقد وجدت عنده من العقل ما خيل لي ان الحكمة حشو ثيابه رفع الله قدره وسموه وحقق من الخير أمله ومرجوه

(١) الانس الجليل ١ * ٢٩٥ (٢) سورة النور (٣) ابن حوقل ١٦٥

و ابن خلکان ١ * ٢٨٢ (٤) ابن خلکان ١ * ١٠١ واغانى ٢ * ١٨٢

(٥) السبوطي

الكلام عن الزوراء

ولقد اكبرت من الزوراء رواج سوقها بالبخارة^(١) واشتباك
ارضها بالعمارة في مدة عشر سنين حتى جمعت من أسباب العمران^(٢)
ما لا يكون في مدينة بُنيت من قديم الزمان ووجدتها من لطف
الهواء^(٣) وطيب الاقليم^(٤) على ما ليس اجود منه في مدن العراق .
وفيها ما تشتهي النفس وتلذ الاعين واسواقها في نهاية من الاحفال
قد جمعت^(٥) بالكرخ اخلاطاً من التجار^(٦) الأسواق الصاغة منها
فانه منفرد بالفرس وقد بلغوا من الاجادة في صناعتهم بحيث
يرصعون الزجاج بالجوهر^(٧) ويصنعون للملوك اقداحاً^(٨) نفيد
الابصار حسناً واشراقاً ويتخذون على الجمادات صوراً يحكمون صناعتها
الى مقارنة الحقائق رأيت من ذلك جأماً قد صُورت عليه طيور
تطير ومن فوقها عقاب ينقض عليها وهي تهوي في الفضاء وتعالج
بنفسها للخلاص منه^(٩) ولكن بحقيقة تملك النفس وتستوقف الطرف .
والى طرف هذا السوق مما يلي سويقة غالب^(١٠) جماعة من العملة
والبنائين يرفعون الدكاكين لينحول اليها أرباب التجارة كما وقع في

(١) كتاب الف ليلة وليلة (٢) النفاسيم ١٢٠ (٣) الفرمانى ٥ * ١٥٤

(٤) النفاسيم ١١٩ والفرزويني ٢٠٨ (٥) الاصحري ٨٤ (٦) اغاني ٩ *

٢٢ و ١٨ * ٦ (٧) الف ليلة وليلة ١ * ١١٦ (٨) اغاني ٤ * ١٨٩

(٩) اغاني ٢ * ٢٧ (١٠) ابن خلكان ١ * ٢٤

نفس أبي جعفر وقد أمر بنحويل الاسواق كلها الى الكرخ^(١) ليبعد
اخلاط الناس عن جواره

اما دور المدينة فانها متخذة على هندسة الفرس وصنائعها^(٢)
ومثال ما بنت الروم في الشام. وهي مجللة كلسا ومرفوعة على
طابقين^(٣) وبني بالاجر ما ارتفع منها عن الارض وبالحجر ما يماسها
او يقرب منها دفعا للماء في اوان السيل^(٤) ان يبلغ الطين ويمكن
منه. ومنهم من يقوي الاجور بالتصباغ والحلفاء^(٥) ويغسسه بالحص
حتى يصير يابسا وتكون له رنة كرنة الحجر الصلد اذا صلصل. وليس
لدور العوام اسوار تحيط بها وانما طاقاتها مطلة على الشوارع^(٦)
واذا ما ارتفع المار على حبر او على دابة تيسر له ان ينظر الى
مقاصيرها^(٧). واما دور المتولين واهل النعمة فانها ثلاثة اقسام
يجمعها سور واحد وهي مقاصير الحرم^(٨) وحجرات الخدم ومجلس
السلام^(٩) وهي بمكان من الزينة وفي وسط دورها جنان يزرع فيها
البقل والرياحين والرمان وغير ذلك. وعلى جدرانها وستوفها
نقوش^(١٠) في رسم ملون او فسيفساء ذهب^(١١) وعلى دائر الابواب

(١) ابن الاثير ٦ * ٥ (٢) المقدمة ٢١٢ (٣) اغاني ٣ * ٢١ و ٢

* ٧٢ (٤) اغاني ٩ * ١٤٤ (٥) ابن خلدون ٣ * ١٩٧ (٦) اغاني

١٧ * ٤٩ (٧) اغاني ٥ * ٢٨ (٨) اغاني ١ * ٥٩ (٩) التليدي

٢٢٦ (١٠) المقدمة ٢٥٦ (١١) المقدمة ١٥١

كتابة يتخذونها من الزجاج^(١) المقطع ويجو طونها بخشب اسود من
الابنوس وغيره ويلقون عليها رسوماً من النحاس تمثل غصوناً وثماراً
وازهاراً فتمتلئ العين ارتياحاً من النظر الى اشراقها ويعجبني من جمال
مبانيهم ما يتخذون لها من حسن الخارج ايضاً فان القباب التي يرفعونها
في اعلى السطوح على عمدٍ دقيقة ليُخيل للرائي اليها انها لا تستند على
شيء وكانما هي معلقة في الهواء

ولما كان الحر يشتد وهيج في الزوراء وكان افتقار اهلها الى
رطوبة الماء افتقار النفس الى الهواء قل ان يخلو سوق من اسواقهم
او بناية من مبانيهم من سقاية^(٢) يساق^(٣) اليها ماء دجلة. ولذلك
لا يسير الرجل فيها الا محفوفاً بالشجر المزهرو والرياحين^(٤) التي يتناشد
الشعراء ابياتهم في وصفها. وهذا دليل على ان الزوراء كلها ماء ونماء
ولا هلهي في اقامة الاجواض عناية خاصة. فيرفعون عليها عمداً من
الرخام ويعقدون من فوقها قباباً مغطاة بالآيات الموسومة بماء
الذهب^(٥). فتوسعوا من اتخاذها للضرورة الى المغالاة بزينتها على
سبيل الترف والترفة. واذا اشتد عليهم الحر عن ان يطاق اتخذوا
اسراباً تحت الارض واقاموا فيها بالنهار ليكسروا فيها الحر كما
يقولون^(٦) وقد رايتها في كثير من بيوت العامة ايضاً

(١) النزويبي ١٢٧ (٢) كتاب الف ليلة وابانة والانليدي ١٤٧ و ١٤٩

واغانى ٢٠ * ٥ (٣) المقدمة ١٠٥ و ٢٥٧ (٤) باقوت ١ * ٦٨٧

(٥) انليدي ٢٢٦ (٦) ابن خلكان

ولقد عظمت عناية ابي جعفر بهذه المدينة حتى انه أنفق عليها نحواً من اربعة آلاف الف دينار^(١) في بناء السورين اللذين يجيطان بها^(٢) والمسجد ودور الخلافة والمجالس التي عقدها فوق ابواب السور الخارجي من طاقاتها المعقودة وهي اربعة^(٣) اولها^(٤) باب خراسان^(٥) ويسمى باب الدولة لاقبال الدولة العباسية من خراسان والثاني باب الكوفة وهو تلقاء الكوفة والثالث باب الشام والرابع باب البصرة^(٦). وحمل اليها ابوابها من واسط والكوفة والشام^(٧) على بعد الشقة والمشقة. واتخذ الابواب الداخلة مزورة عن الابواب الخارجة^(٨) فسميت المدينة بالزوراء لذلك لا من حيث وجود اسمها مسطوراً في كتاب الراهب الذي فاضه ابو جعفر في بناءها^(٩) كما يزعم كثير من اهل الجهالة

ثم ان تناهي جمالها بما كان من احتفال الامراء اليها وعنايتهم في تزيينها بالمباني التي تقف عندها الغاية في الفخامة والاشراق ولا سيما ما كان من المساجد فانها الكثير في الزوراء اتيت منها على زيارة مسجد عبد الله بن حرب في الحربية^(١٠) ومسجد آل قحطبة في شارع المحرم^(١١)

(١) النفاسم ١٢١ والقناوي ١٢٥ وياقوت ١ * ٦٨٢ (٢) ابوالفرج

٢١٩ (٣) النفاسم ١٢١ (٤) المسعودي ٢ * ٢٨٧ (٥) ياقوت ٤ *

١٤١ (٦) المسعودي ٢ * ١٨٢ (٧) ابن الاثير ٥ * ٢٢١ (٨) تقويم

٢٠٢ (٩) ياقوت ١ * ٦٨١ (١٠) ابن خلكان ١ * ٢٢ وياقوت ٨ * ٤

٥٨٦ والمسعودي ٢ * ٢٨٨ (١١) اغاني ٥ * ١٢٦

ومسجد الخيزران زوج ولي العهد في الخيزرانية^(١) وهو فائق الحسن وصحفة من حجارة سود شديدة البصيص تصف الأشخاص كالمرأة. وعلى جدرانها صور تفاح وثمار وغيصون تخيل الموافد على المسجد انه بين شجر زاه زاهر في روض باه باهر ورأيت العلة قد تقلدوا فيها رسوم الاعاجم على انسجتهم حتى جاءت الحجارة توهم الرائي انها بسط^(٢) حلت من طبرستان ولا فرق بينها الا فرق ما بين الصوف والحجر. وليس في مساجد الزوراء مثله في البهاء الا مسجد بناء ابو جعفر في شارع دجيل^(٣) ما يلي باب الانبار^(٤) والمسجد الجامع^(٥) الذي بجوار دور الخلافة

النصرانية في الاسلام

وقد جمعت الزوراء اخلاطاً من الامم على اختلاف الاجيال وتباعد المشارب والانحال ولكن اهل الشام منهم اعرقم في الحضارة^(٦) لانهم ادركوا آخر الاموية وقد انبسط النعم في مدينتهم وبلغت من الرخاء والسعة ما لم تبلغه مدينة في ذلك العهد قط. وقد صار اليهم من ابي العباس مال كثير على وجه السياسة حين

(١) ابن الاثير (٢) ابن جبير ٢٧٩ (٣) ابن خلكان ١ * ٤٩٨

(٤) المنتطف ١ * ٢٨٩ (٥) الاصطخري ٨٤ (٦) انليدي ١٢١

والمنتطف ١ * ٨٤

فارع مروان بن محمد على الخلافة حتى اذا تم له الغلب عليه بالغ في عطاء من انصوى منهم اليه وفرق فيهم الاموال^(١) التي كان يتقلب فيها صبية الامويين

اما أم النصرانية فان عليهم بعض التضييق في الزوراء وسائر العراق لان المسلمين اتخذوها مقراً لدولتهم فعدوا فيها الى اذلال الحارجين عنها كما انهم اتخذوا الحجاز ومكة والمدينة منزلاً لدينهم فنوعوا المحدثين فيه والمارقين منه من المقام^(٢) فيها. واما الشام ومصر وغيرها من البلدان التي لم تكن مهدياً للاسلام وانما هي له اطراف مملكة فاكثفوا بمصاحبتها على الجزية^(٣) وتركوا الناس على دينهم

ومع ان النصرانية قديمة عهد بالحضارة فاني رأيت من مكارم اهل الاسلام ما لم أراه في امها قط ولا غرو فان اليهود التي كتبوها على انفسهم والطرق التي سلكها المسلمون في معاملتهم تقضي بانهم لا يستعملون على الولايات^(٤) والامارات ولا يتخذ منهم اولياء^(٥) ولا يشبهون بالمسلمين في زي ولا لباس ولا يلبسون العمام والطبلسانات وانهم يتخذون الزنابير في اوساطهم ويجعلون الحجرة على قلائسهم^(٦) ولا يتصدرون في المجالس^(٧) ولا يبدؤون بالسلام والكلام ولا يسلم عليهم بسلام المؤمنين^(٨) ولا يعزؤون مسلماً في ماتم^(٩) ولا يشاركونه في فرح ولا

(١) الفخري (٢) المستطرف ١ * ١٢٨ (٣) الواقدي

(٤) الماوردي (٥) الشرع (٦) المستطرف ١ * ١٢٦ (٧) الانس

الجليل ١ * ٢٢٥ (٨) اغاني ٢ * ١٧٢ (٩) العقد الفريد ٢ * ٤٢

ينزلون عندهم جاسوساً ولا يدلون على عورة المسلمين ولا يدعون
 أحداً إلى شرعهم^(١) ولا ولا إلى آخر العهود التي أخذها عليهم عمر بن
 الخطاب رضه

وانهم مع ذلك كله أعلى أوسع مما كانوا عليه في صدر الإسلام
 لانهم كانوا يمنعون من حمل السلاح والمطاولة على المسلمين في
 بنائهم^(٢) وركوب المطايا في الأزقة اللهم إلا من عجز منهم عن المسير
 وإذا ركبوا كانوا يركبون في شقٍ أي ان تكون رجلاهم من ناحية
 واحدة^(٣) وكانوا يلجأون إلى اضيق الطرق في مسيرهم بما يراد منه
 التحمير والإذلال. لم يزل أمرهم على ذلك حتى وقعت الخلافة في
 بني أمية فازالوا عنهم من المعاملة لهم ما به ذلة عليهم إلا اقصاءهم
 عن الإمارات والتزام زهم^(٤) حيثما كانوا لتمييزهم عن المسلمين فانهم
 استبدلوا ذلك بتقريبهم اليهم واتخاذ ندمائهم^(٥) منهم على غصص
 من قلوب الذين يبيلون في تحميرهم إلى رفض سلامهم وكلامهم^(٦)
 في معرض الأحكام وغيره

ولما نشأت دولة العباسيين قرَّبهم أبو جعفر في طلب الهاربين
 من بني أمية فاخلصوا له خدمتهم في ذلك واخذوا منه كثيراً من
 مال المسلمين على سبيل الجعل حتى ارتفعت حالهم في الدولة ورفُع

(١) المستطرف ١ * ١٢٦ (٢) المستطرف ١ * ١٢٨ (٣) ابن

عابدين ٢ * ٤٢٢ (٤) المحاضر ١ * ٦٨ (٥) اغاني ٦ * ١٥١

(٦) المستطرف ١ * ٢٠٢

عنهم الحفء الذي كانوا به في صدر الاسلام. وهذه كانت من بعض سياسة ابي جعفر تمام الغلب على الامويين بان سرح النصارى في طلبهم دون احد من المسلمين الا من تبين فيه الامانة خوفاً من تعرّضهم معهم او ميله مع اهل البيت. على ان الاسلام لم يمس بضرٍ من هذه السياسة بل ربما عاد عليه منها بعض العوائد لانها كانت مدعاةً لائتلاف الصدور ومصرفةً للفتن عن الصدور وذريعةً الى تأييد الاسلام بمشاركة اهل الادب من النصارى في بعض اعماله وسياساته فقد طالما كانوا من حمة العلم وطال ما ظهر لهم من الاطباء النطاسيين والشعراء المجيدين والخطباء المقدمين والمنجيبين والراصدية. وهذا^(١) قس بن ساعدة وامرء القيس وحاتم الطائي والبراق بن روحان وابوزيد^(٢) وعدي بن زيد^(٣) وامية بن ابي الصلت قد انتهت اليهم بلاغة الشعر والخطابة. لم يزل شأنهم كذلك والعلم يتفجّر من جوانبهم الى ان عمّ الاسلام فخل ذكرهم في المشرق على خمول دولتهم اذ انقطع عهدهم بمخاضة اهل العلم من المسلمين وكانت منزلتهم من الذل ما رايت في اليهود التي كتبوها لهم بن الخطاب ابذل لهم الامان فلما قرّهم الامويون واوسعوا لهم في مجالسهم ظهر فضلهم في العلم ونبع القاطمي والاخلطل وغيرها^(٤) في الشعر

(١) كتاب الاغانى (٢) اغاني ١١ * ٢٢ (٣) ابن خلكان ١ * ٢٢

(٤) كتاب الاغانى

وفضلو المسلمين فيه حتى قال حماد الراوية حين سُئل عن الاخطل ما تسألوني عن رجلٍ حبَّب اليَّ شعرةُ النصرانية^(١) . ونبغ غيرهم كثير في فنون الرسم والنقش والتصوير والهندسة حتى اذا ابتهى الوليد جامعة في دمشق وجه رسالة في طابعم من الروم وغيرهم وكذلك لما ابتهى ابو جعفر مدينته استقدم منهم ما ينيف عن خمسين الفا من الصنائع^(٢) وفي هذا القدر كفاية لما نروم اثباته من انهم يزينون الدولة بما عندهم من الادب والصناعة

وربما وقع في نفس الجاهل ان الاسلام قد ذهبت محاسنه وتداعت احواله الى الانحلال اذ لم يبق على ام النصرانية تضيق شديد كما وقع عليها في صدر الدولة . فهذا قصور واعيان لان الخلفاء الراشدين^(٣) رضي الله عنهم لم يأخذوا النصرانية بالشدَّة الا لتمكِّن قوَّة الاسلام من البلاد والعباد . فلما استفحل منه الملك لم يبق ثمَّت حاجة من هذا التضيق الذي ريم به ذل النصرانية لتعظيم موضعه من السلطان . وعندى ان الامم المتهورة كلما عظم شأنها وزهى قدرها زاد ذلك في عظمة الدولة القاهرة لها فاجلُّ لقدر المسلمين ان يقال انهم تغلبوا على امةٍ رسخت منها العلوم والصنائع من ان يقال انهم تغلبوا على ام طمس عليها الجهل والخشونة

تقربي من رجال الدولة

وقد لقيتُ في الزوراء جماعةً من الامراء المتقدمين في الدولة وخصصت نفسي الى خدمة خالد بن برمك منهم وملازمة بايه اذ كان صاحب فضلٍ وجليلٍ ومرؤةٍ وعفافٍ. وتقرّبتُ بكفالتِهِ الى معن بن زائدة الشيباني وروح بن حاتم المهلبّي وها من اعظم رجال الدولة بعده. وكنتُ الى آل المهلب اشدّ تقرباً مني الى آل زائدة وان كانوا جميعاً على خلاف غرضنا من الميل الى اهل البيت والقول بخلافتهم. الاّ ان معنا كان على مخالفة البرامكة والبغض لهم من حيث تقدمهم في مراتب الدولة وهم اغراب عن العرب. وذلك لم يكن في آل المهلب انما كانوا مع البرامكة على خلطةٍ ومودةٍ واتصالٍ واقرب الامراء مكاناً الى ابي جعفر هو خالد البرمكي^(١) وهو الذي قام بنقل الدعوة في خراسان من قبل ابي مسلم الخراساني. وهو من اولاد لم يبلغ احدٌ مبلغه في رأيه وعلمه وبأسه وجوده^(٢) وجميع خلاله. والمنصور لا يبرم امراً الاّ بمشورته ولا يركن في اعماله الى غيره من المقربين اليه اللهم الاّ في سياسته مع العلويين فاتها مجرأة على البغض لهم والجمور عليهم^(٣) وخالد ميال اليهم منذ اخذ في الدعوة الامامية في خراسان وهي اذ ذاك لهم وللعباسيين معاً. فلما

(١) الفخري (٢) ابن خلكان ٢ * ٢٦١ (٣) الفخري

أفردها أبو جعفر بالعباسية وأوجد الفرقة بينها وبين العلوية بقي
على غرضهم من السياسة وما تولى عليه طمع الذين يتبعون الزمان
ويتقربون إلى الملوك في ثوب المدالسة والبهتان

أما المهلبيون فإنهم من عطاء العرب وأهل الحبل والعقد في
مبايعة الخلفاء وقد كانوا آل فحطبة من القواد الذين قاموا بثقل
الدعوة في خراسان ثم انفردوا بعد الفرقة إلى غرض العباسيين
فقدمهم أبو جعفر من هذا الوجه وصارت إليهم مراتب الدولة^(١)
وتزاحم الملوك على إيوائهم وقصدهم الشعراء بالقصائد^(٢) التي تعظم
عن أن يقال في الخلفاء أنفسهم كقول المغيرة بن حبياء بعد أن
وصفهم بالجود^(٣)

أسي العباد لعمرى لا غياث لهم إلا المهلب بعد الله والمطر
هذا يذود ويحي عن ذمارهم وذا يعيش به الأنعام والشجر^(٤)
ورأيهم على رأي واحد في السياسة ووافق يجرون به على وصية
إيهم إليهم وقد ضرب لهم مثل السهام التي تكسر متفرقة فإذا اجتمعت
لم يبق إلى كسرها من سبيل^(٥). وإن اجتماع الرأي الحسن أن يكون
في بيوت الأمراء على أن لا يتغرضوا مع الظالمين ولا ينكروا على أهل
البيت ما أوجب النبي لهم من الخلافة على أمته

(١) اغاني ٣ * ٥٥ (٢) أبو الفداء ١ * ٢١٢ والوطواط ٢٤٨ وابن

الانيرة ١ * ٩ (٣) الوطواط ٢٤٨ وابن الانيرة ٥ * ٩ (٤) ابن نباتة

واغاني ١١ * ١٦٣ (٥) أبو الفداء ١ * ٢٠٨

واما معن فانه امير شيبان كلهم. وشيبان من بيوتات العرب
 في قريش وهم اربعة بيوت بعد بيت هاشم بن عبد مناف وهي بيت
 قيس وبيت تميم وبيت شيبان وبيت اليمن^(١). وكان علي مخالفة
 العباسيين لأول ظهور دعواتهم وأبلى مع يزيد بن عمر بن هبيرة بلاء
 حسناً^(٢). فلما تم عليه الغلب طلبه ابو جعفر طلباً شديداً وجعل
 لمن يأتيه به ما لا جزياً فلم يظفر به لانه كان مختفياً في العراق او
 مقبياً في البادية كما يقال^(٣)

(١) اغاني ١٧ * ١٠٥ (٢) اغاني ٩ * ٤٤

(٢) قد وقع لمعن ايام كان يطلبه ابو جعفر ظريفةً احييت ان اذكرها منها
 لكتبة ذات فكاهة تدل على كرم العرب وأناة نفوسهم. والكلام فيها لمعن وهو
 يحدث ندمانه ويقول: كنت قد اضطررت لشدة الطلب الى ان أقيم في الشمس
 حتى أوجعت وجهي وخنفت عارضي ولحيتي. فليست جبة صوف عريضة وركبت
 جلاً من الجبال النفاة لاهضي الى البادية فأقيم بها. فلما خرجت من باب حرب
 تبعني اسود متقلد سيفاً حتى اذا غبت عن الحرس قبض على خطام بعيري فاناخه
 وقبض علي فقلت له، مالك قال انت طلبة امير المؤمنين. قلت ومن انا حتى يطالبني
 السلطان. قال انت معن بن زائدة. قلت باهذا اتى الله ابن انا من معن قال
 دع عنك هذا فانا والله لأعرف به منك. قلت فان كانت القصة كما تقول فهذا
 جوهراً حيلة معي في باضعاف ما بذله امير المؤمنين ان جاءه بي فخذ ولا تسفك
 دمي. قال هاتيه فاخرجته اليه فنظر اليه ساعة وقال صدقت فيما تذكر عن ثوبه
 ولست قابله حتى أسألك عن شيء فان صدقتني اطلقتك قلت قل. قال ان
 الناس قد وصفوك بالجود فاخبرني هل وهبت فط مالك كله قلت لا قال فنصفه
 قلت لا قال فنكته فربعه فخمسة حتى بلغ العشر فاستغيبت وقلت اظن اني قد
 فعلت هذا. فقال ما اراك قد فعلته. انا والله راجل ورزقي من امير المؤمنين

ثم انه رجع الى الهاشمية ووافق يوم وصوله قيام الراوندية^(١) على ابي جعفر في الاسواق وقد قاتلوه الى ان ضاق به الخناق. فاستفزه المروءة الى نجدته فقاتل عدوه ومزق لفيفهم^(٢) فطاب ابو جعفر نفساً بذلك وأمنه واكرمه وولاه اليمن والعراق

وقد اجتمعت في معن جميع خلال العرب الموصوفة الا انه غاب عليه الجود^(٣) مقروناً بحلم^(٤) بتغيير اللسان في نعمته فقد علمنا عن أناس تقدموا اليه بالسوء^(٥) فوصلهم بصلات اوقعت الحديث في الافواه عن كرمه^(٦) حتى صار الشعراء يضربون اليه اكباد الابل من كل فج عميق ويعلقون بالاسواق ابياتهم بما هو خليق به من

عشرون درهماً في الدهر وهذا الجوهر قيمته عشرة آلاف دينار وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك الماثورين الناس لتعلم ان في الدنيا من هو اجود منك فلا تعجبك نفسك وتغفر بعد هذا كل شيء تفعله ولا تتوقف عن مكرمة قط. ثم رمى العقد في حجري وترك خطام البعير وانصرف. فقلت يا هذا والله قد فضحتني ولسفك دمي اهون علي مما فعلت فخذ ما دفعتم اليك فاني عنه لغني. فضحك ثم قال اردت ان تكذبني في مفالي والله لا آخذه ولا آخذ بعروف ثمتاً ومضى فوالله لقد طلبته بعد ان امنت وبذلت لمن يجيء به ما شاء فا عرفت انه خيراً وكان الارض ابتلعته (ابن خلكان ٢ * ١٦٠ واغاني ٩ * ٤٢ وعجائب الخلوفا ٩ * ٢٠٩)

(١) ابن خلدون ٣ * ١٩٧ (٢) الطبري وابن الاثير ٥ * ٢٠٣ والخزري

١٨٩ وغيرهم (٣) اغاني ٩ * ٤٤ وخلكان ٢ * ١٦٠ والمستطرف ١ * ٧٢

والمسعودي ٢ * ١٨٢ (٤) الوطواط ٢٤٨ (٥) انليدي ١٩٤

(٦) المستطرف ١ * ١٩٤

الثناء وقد وقع لبعض العربان ممن لم يأذن له الحجاب بالدخول عليه رفعا لمقام حضرته من ان يجلس اليها السوقه ان يرعى برقعته الى البستان حين نزوله اليه وقد كتب فيها^(١)
 أيا جودَ معنٍ نأجٍ معنًا بجاجتي فليس الى معنٍ سواك سبيلُ
 فلما قرأها معنٌ أخذته نخوة العرب فبادر اليه بالجھيل وأمر
 له ببدر المال وتخوت الثياب والمراكب المزينة ولم يزل في مواصلة
 صلته حتى خاف الاعرابي ان يلحقه الندم على ما اعطاه فيسترجعه
 منه فركب الى البادية في احوال المال فلما علم معنٌ بذلك قال
 هممت والله ان أفرغ عليه نعمتي حتى لا يبقى في بيت مالي دينار ولا
 درهم الا اعطينه له^(٢)

وقد دخلت على معن مرة واحدة فأصبت في مجلسه العام
 بين حرس على رأسه^(٣) وحفدة بين يديه^(٤) وفي حضرته جماعة
 من الادياء الندمان قد اجروا الحديث عن الشيعة في خراسان
 فوجدتهم يتناقلون الرواية عنها من غير تحبص ولا نقد وقد ضل
 عنهم سر السياسة فيها الا علي بن الخليل^(٥) وهو مولى لعن حسن
 المجالسة والرأي ومحمد بن الحسن الشيباني وهو متوقد الذكاء فصيح
 اللسان اذا تكلم خيل لسامعه ان القرآن ينزل بلغته^(٦) وكلاهما قد

(١) انليدي ١٩٠ والوطواط ٢٦٠ وعجائب المخلوقات ٢٠٨ (٢) انليدي

١٩٠ (٣) المستطرف ٢ * ٢٠٩ (٤) انليدي ١٩٠ (٥) اغاني ١٢ *

١٤ (٦) ابوالنداء ٢ * ١٩ والخميس ٢ * ٢٢٢ وابن خلكان ١ * ٦٤٧

رأى ان السبب في نكبة ابي مسلم هو ميله الى اهل البيت دون غيرها من الادباء الذين لا يتقنون الكلام. فاني لم يتحقق لدي فيما يذكرون^(١) ان ابا جعفر نكب به لما كان من سبقه اياه الى الحج ولا لادعائه انه من ولد العباس ولا لتصدير اسمه قبل اسم الخليفة في الكتب التي كان يبعث بها اليه^(٢) ولا لافراطه في القتل كما يزعم ضعفاء العقول لان المنصور غني بما عنده من العقل والسياسة عن ان يُذكَر بان الدول لا تقوم ولا تستقيم الا بالقتل الكثير. انما نكب ابا مسلم ما كان من ميله مع اهل البيت وامداده لهم بالرأي فيما يقوي دعوتهم ويعيد اليهم الحقوق التي انفرد بها العباسيون دونهم حتى اذا علم ابو جعفر ذلك منه وخاف من فتنة صباه تعصف ريجها في دولته استقدمه الى المدائن وفي نفسه ان ينكب به على غرة^(٣). وكان ابو مسلم على حذر من ذلك^(٤) كما ظهر من كتاب له الى ابي جعفر وما كان من استصحابه للجنود في سيره اليه. ولكن طلع عليه جماعة من حيث لا يدري فاعثوروه بالسيوف ومعن يعلم هذا كله^(٥) ولكنه لا يقوله اجلالاً لامير المؤمنين

(١) راجع كتب التاريخ (٢) ابن خلكان ١ * ٤٠٠ (٣) انه اني ١٩ *

١٢٦ (٤) المقدمة ٢٢٢ (٥) المسعودي ٢ * ١٨٥ والفجري ٢٠٢ وابن

الفرج ٢١٦ وابن الاثير ٥ * ١٩٢ والسيوطي وابو الفداء ١ * ٢٢٦ وابن خلدون

والطبري

وأما ما يقولون من أن أبا مسلم خامل السلالة فليس بصحيحٍ لأن
نسبه معروف في خراسان وملكها وهو ابن تسع عشرة سنة وأبدى
من سعة التصرف بالسياسة وهو في ذلك العمر ما عجز عن تدبير
مثله الحكماء. وكانت به خصال لا ترى في عامة الناس وإذا جاءت
الفتوحات العظام لم يظهر عليه السرور وإذا نزلت به الحوادث
الفادحة لم يظهر مكتئباً^(١). وكان أقل الملوك طبعاً وأكثرهم طعماً^(٢)
حتى قيل أنه اتخذ للأئذين به والطامعين إليه ألف طبّاح. وكان
إذا حجّ نادى في الناس برئت الذمة من أوقد ناراً فكان يكفي
العسكر ومن معه أمر طعامهم وشرابهم في ذهابهم ومنصرفهم. وكان
العربان يهربون من وجهه ولا يبقى في المناهل منهم أحدٌ لما كانوا
يسمعونه من شدة بأسه ودهائه. وهو أكبر ملوك الإسلام ورجال
الدول عندي ثلاثة وهم الذين قاموا بإنشاء الدول الاسكندر
الرومي وارشير الفارسي وأبو مسلم الخراساني^(٣)

في أخبار أبي جعفر

هؤلاء هم رجال الدولة وأهل النيابة فيها وقد تئمتهم جميعاً الأربعة
بن يونس حاجب أبي جعفر ومولاه. وليس هو في مقام هؤلاء الملوك

(١) ابن خلكان ٢٩٨ # ١ (٢) أبو الفرج ٢١٦ (٣) ابن خلكان

ولكنه مكين عند السلطان ومكين لديه من حيث انه مقدم على
الموالي والأتراك وهم مقدمون في هذه الدولة اذ كانوا داعيتها وانصارها
الذين استعان بهم يزيد بن المهلب على بني أمية في جرجان^(١) وما
يليهما من البلدان. وقد قدمهم ابو جعفر على العرب في مراتب الدولة
ومناصبها لانه لم يأمن منهم على نفسه بما رأى من ميلهم مع العلويين
الذين وجد عليهم اشد ما وجد على بني أمية حتى لو استطاع ان
يساقل شأفتهم والعياذ بالله لفعل بهم امر مما فعل بالامويين
الذين كان يضربهم بالعصي الى القتل^(٢) ثم يد عليهم بساطاً يأكل
عليه^(٣) ويقول واين عظامهم يسمع من تحت البساط^(٤) اني لم آكل
أكلةً اهنأ من هذه الاكلة^(٥)

وما ابني ابا جعفر مدينة الخوف من اهل الكوفة ان يفسدوا
جند^(٦) ومجملوهم على مناصرة اهل البيت فجمع النخبين لذلك ولم
يباشر بناءها الا بعد ان اعلمه نوبخت ان اهلها يسلمون عن الاعداء^(٧)
وحتى اذا ما فشت فيها العمارة وخاف قيام العدو عليه^(٨) قفل
الدروب بالليل^(٩) واقام عليها الحراس وحول الاسواق الى

(١) اغاني ٩ * ٢١ (٢) الفري (٣) ابن عون (٤) القناوي

٢٠٢ (٥) اغاني ٤ * ٩٤ (٦) ابن الاثير ٥ * ٢٢٥ والفرماني ٥ * ١٥٤

وابن خلدون ٢ * ١٩٧ والمسعودي ٢ * ١٩٤ والشريشي ١ * ٢٤٠ (٧)

الزوني ٢٠٩ و ابو الفرج ٢٢٤ (٨) السيوطي (٩) اغاني ٧ * ٣٤

الكرخ^(١) في اعلى الزوراء حتى لا يبقى بجواره من لا يأمن منه وراح
قومه يقولون ان رسول الروم اشار بذلك اليه وقد سأله لما وفد
عليه كيف وجدت بلدنا ايها الرسول^(٢) قال اني رأيتُه اعزَّ على
الطالب من بيض الانوق بيد اني رأيت الغريب يطرقة وبيت
فيه وربما كان فيهم العين والجاسوس^(٣) وهذا كلام لاصحة له عندي
لان من احاط مدينته بسور منيع يرد الطرف عن كلل واداره
بجندق بعيد الموى غني بما في نفسه من الحذر ان يخوفه احد كيد
العيون ومحالم

وكذلك نجد دليلاً على خوف ابي جعفر من النجل^(٤) الذي
ليس هو فيه عن لوم^(٥) لانه وصل اعمامه بعشرة آلاف ألف درهم
لكل واحد ألف ألف درهم^(٦) وهو أول خليفة وصل بامثال هذه
الهبات انما أمسك يده عن العطاء^(٧) مخافة ان يقع ماله في يد
المخالفين له كما انه أقل من اعطية الجند ليأمن عصيانهم^(٨) واستغناءهم
عنه كانه يستحکم قول المثل السائر جوع كلبك يتبعك^(٩) والافاننا
لا نرى هباته واقعة الا على من هو خلو من اغراض السياسة
من اهل العلم والأدب وان هو لم يتعد هذا العطاء الى الكرم بما

(١) ابن الاثير ٦ * ٥ (٢) ابن الاثير ٥ * ٢٢١ (٣) ابوالنرج ٢١٩

(٤) الوطواط ١٩٢ (٥) الفخري ١٨٨ (٦) المستطرف ١ * ٢٠٠

والمسعودي ٢ * ١٩٤ (٧) ابن خلدون (٨) الفخري ٩٦ (٩) الفخري ٩٦

نعلم من خروج جماعة من الشعراء عن الزوراء لآيامه في طلب المعاش^(١). اما امراء الاقاليم فانه يتدارك عزهم من قبل ان يثبتوا قدماً في ولايتهم ويستولي على ما يصل اليه من أموالهم ويجعله في البيت الذي سماه بيت مال المظالم^(٢) قصداً في تحقيرهم واعجازهم عن القيام عليه في ثورة أو مخالفة لا حياءً في جمع المال وادخاره كما يزعم بعض الناس لانه لو كان يبخل على غير سياسة لما حنق على معن حين جاد بماله على اهل اليمن ليسهل من أمرهم ما حزن^(٣). ونحن نعلم انه أوصى ابنة بان يرد هذه الاموال على اربابها في كلام طويل يقول فيه^(٤) يا بني اني لأحزنك يوم تدركني الوفاة ان تدعو من اخذت ماله وترده عليه فانك تسجد بذلك اليهم ولكن اياك ان تعود الى توليتهم المناصب لاني ما رأيت الوفاء طبيعة الا في الموالي والأغراب^(٥)

ثم طمع في هذه السياسة الى ان يأخذ التجارة باشدّة فوضع على التجار خراجاً على حوائثهم^(٦) وذلك مما لم يسبق له عهد في الاسلام وزاحمهم في اعطاء الدين بالربا^(٧) حتى يقطع عنهم باب الارتزاق والتعيش على علم منه بان التجارة من السلطان مفسدة للعران

(١) اغاني ١٢ * ٩١ (٢) ابن الاثير ٦ * ١١ (٣) ابن الاثير ٦ * ٩

(٤) الفخرى ١٨٧ (٥) ابن الاثير ٦ * ١٢ (٦) المقرئ ١ * ١٠٢

(٧) المستطرف ١ * ١٢٥

ومدعاة الرعية الى الخسران^(١). غير انه رأى ان يستميل الشعب
الأدنى اليه وهو السواد المهم فرفع عنهم الخراج ورفقا على الخنطة
والشعير وصيره عليهم مقاسمة^(٢) تسهلاً لهم في تأدية الخراج لانهم قد
لا يجدون الدرهم الواحد في بعض الاحيان فيجبرون الى بيع غلاتهم
بأنجس الاثمان سداً لطلب العمال فعاد على الدولة من هذه المقاسمة
كبير فائدة لها من تناول ارزاق الجند وعلف الخيل وغير ذلك
هذا نزرٌ يسيرٌ من دلائل الخوف في أبي جعفر من العلويين
والناس يقولون انه صالح النظر في أمور الملك^(٣). غير ان صلاح
النظر عندي ما لا يكون فيه خروج عن العدل والأمان حبس النفس
الزكية^(٤) محمد بن عبدالله بن حسن بن الحسين بن علي عليه السلام
وقتل أخيه ابراهيم بن عبدالله وكلاهما برآء من الذنوب لمن أفتح
الظلم. ولست أرى لأبي جعفر وجهاً للافتخار بما وقع له من الظفر
بهما على سبيل الاتفاق لان فشل العلويين ناشئ عن تفرق دعواتهم
على آراء لم تجتمع لهم غاية واحدة وهم منقطعون عن بعضهم منفردون
الى نفوسهم فيما يطلبون به من ثار شهدائهم. فغلبهم أبو جعفر من هذا
الوجه وظفر على الواحد منهم بعد الآخر كما كان شأن الأمويين
في قتالهم والأفلو جعلوا دعواتهم وشدوا اليهم أطرافهم وأثاروا

(١) الخبيس ٢ * ٢٢٤

(٢) الماوردي ١٢٦

(٣) المقدمة ٢٤٤

(٤) الفخري ٢٦ و ١٩٥ والمقدمة ٢١

العراق وخراسان واليمن والمجاز في غرض واحد كما كانت سياسة
أبي مسلم حين أظهر الدعوة لأعاد الله اليهم الخلافة التي ذهبت من
أيديهم على ظلم الأمويين وفجورهم وصارت الى من يجب النبي أن
تصير اليه

قوة الاسلام لآيام الفتح

ولما حدثني لسان الشريعة بهذه الأخبار وافق قوله ما في نفسي
من التصريح بظلم أبي جعفر . وقد كنت اتلقى عنه كثيراً من أخبار
العرب وأيامها . فحدثني عن قوة الاسلام في زمن الفتح حديثاً أحببت
ان اسرده في هذا الكتاب واسلك فيه سبيل الاطناب ليكون فخراً
للاعراب باقياً الى منتهى الاحقاب . فان النبي جاء بالهدى ليجير
أمة من الملهمات التي حاقت بهم في تخالف أغراضهم على السياسة
وتباعد عقائدهم في الدين اذ لم يكن منهم الموحد المقر بالخالق
المصدق بالبعث والموقن بالثواب في الآخرة الا نفر قليل^(١) .
فجمع بالرسالة كلمتهم^(٢) وانقذ الكعبة من ظلمات الجاهلية الذين
وضعوا في جوفها تماثيل آلهة^(٣) غير الآله الواجب الوجود بعد ان
بناها ابراهيم^(٤) حزين الملائكة وسليل الوحي وانقطع فيها الى الله

(١) المسعودي ١ * ٢٢٩ (٢) الانس الجليل ١ * ٢٢٢ (٣) المقدمة

٢١١ (٤) سورة البقرة

تعالى بالعبادة والخشوع . ومن يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل
فلن تجد له ولياً مرشداً^(١)

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مأموراً في بدء رسالته بان
يدعو العرب الى الاسلام (فلم يعسر عليه تقريره في اقتداتهم لما جاءهم
به من الآيات وما اشتمل عليه القرآن من الوعد والوعيد والترغيب
والترهيب والبلاغة المعجزة) . ثم جاءه الوحي بدعوة الناس كافة
الى الاسلام فقبض مشكوراً سعيه مرفوعاً منزلةً وقام الخلفاء
الراشدون بعده بالأمم والسلطان وكان تحت ايديهم الجنود
البواسل والفرسان فغلبوا الأعاجم على أمرهم وابتزوا سلطانهم
وحازوا معظم الدنيا من شرق وغرب

انما صال المسلمون كالسباع وشدوا على الحصون والقلاع
وتراموا على ممالك الحضرة واقبحوا مشاق الخطر بما حضهم عليه
الكتاب من الجهاد لنشر دينهم على العباد وما طمعوا الى نياله من
غنائم البلاد ولأن المائت منهم في ساحات الجملات شهيداً^(٢) له في
دار الخلد جنات وعدهم الله لقوله ومن يخرج من بينه مهاجراً الى
الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله^(٣) . فوفروا
عدتهم وبذلوا همتهم ولم يدخروا من الوسع جهداً لم يأتوا به في وثبتهم
ولما اتدبهم ابو بكر رضي الله عنه الى فتوح الشام اقبلوا بنسائهم^(٤)

(١) سورة الكهف (٢) الشرع (٣) سورة النساء (٤) ياقوت ٤ * ٢٢٤

وولدهم وبيوتهم وماشيئتهم وسائر ما يملكون^(١) وكانت على وجوههم
 سمات الابتهاج^(٢) كأن مسيرهم الى جنات تجري من تحتها الانهار
 وكان رجاؤهم بالظفر غالباً على عامتهم وخاصتهم حتى ان الشيوخ
 الفانية قدموا مع اولادهم لبطاؤ الارض التي وعدهم النبي
 فيادهم ابو بكر بالسؤال لم اقبلتم ومعناه يزيد على كلامه بان
 ليس لكم عزم ولا فيكم بقية فقالوا قدمنا يا خليفة الرسول رغبة
 في ثواب الله وايضاً انا نحب ان ناكل من فاكهة الشام ونشرب من
 ماءها الزلال^(٣) فتفاعل منهم بالخبر وقال ان شاء الله فاذا كان هذا
 عزم المسان واقدامهم فما الظن في القتيان الذين هم ضراب السيوف^(٤)
 وشراب الحنوف فاذا نظرت الى ما يروى لهم من الاشعار ويعرف
 عنهم من الاخبار وجدت انهم لا يتغنون الفخر الا بالكفاح واستدلت
 على ان قوتهم في المهاجمة تعدل قوة العدو الذي تمنعه القلاع
 والاسوار

وعندي ان غزاة العربان لاول الاسلام كان يؤخذ فيها بمعاودة
 اهل النصرانية من تغلب وتنوخ ووائل وغيرهم من غير ان يكون لهم
 ما للمسلمين من القيادة والامارة وانما طلبوا تسريحهم الى القتال لانهم
 والمسلمين اهل وطن واحد وعادات بينهم مألوفة وقد طمعوا في

(١) المقدمة ٢٢٤ (٢) الواقدي (٣) الواقدي (٤) الطرطوشي

كسب الغنائم التي ينالونها بالاشتراك معهم وقد وُصِفَ لم غنى الروم ودرر الهند وخرائن الفرس وخيرات مصر وطيبات الشام. حتى اذا ما امتزجوا بالمسلمين دهرًا دانت منهم جماعة بالاسلام حبًا به او طمعًا في القسمة التي لا يكون لهم الا نصفها ان كانوا غير مسلمين وقد كانت قسمة الفارس المسلم في بعض الغزوات ثلاثين الفًا من الذهب^(١)

ومما اعان على امتداد هذه الفتوح ان البلدان التي دخلت في حوزة الاسلام لم تبتدِ اشارة ثورة ولا امارة فتنة اذ انها كانت من قبل ذلك في سلطان الفرس والروم فكان لديها سواء احكمها كسرى ام ابو بكر. وربما احنفت الى عمال المسلمين اكثر من احنفها الى عمال الاعاجم لما وجدت قبلكم من وفور العدل وصدق القيام بالمواثيق والعهود مما امر به عمر رضي الله عنه وحرص على التثبيت به^(٢) حتى ائخذ عزل خالد بن الوليد عن الامارة من اجل^(٣) انه اراد ان يتقض الامان الذي اعطاه ابو عبيدة امين الامة لاهل دمشق اذ دخل مدينتهم صلحًا بينما كان خالد يدخلها بالسيف^(٤)

هذا هو السر في امتداد الفتوح حين دجا الاسلام وقد سمعت ان الروم يقولون ان السر في ذلك ان الاسلام غلب اُممًا لا مدنية عندها ولا نظام للملكم فقوي عليها فهذا مردود من وجوه كثيرة ولا

(١) المقدمة ١٧٨ (٢) السبوطي (٣) الكثر ٢٤ (٤) الواقدي

سبباً ان فارس كانت من اضخم الدول وابعدها في العلم والحكمة فلم
يعسر عليه منالها ولم يعسر عليه غلب الروم في الشام وهم بمكان من
المدنية لا يرام. ولست اقول الا انه لما نشأ الاسلام كانت القباصرة
في تلاش وانحلال وكان الفرس يمزقهم ظلم العمال فكان ذلك
داعياً الى التغاب عليهم من غير ان يناله اخفاق قد تحاماه الخلفاء
الراشدون بجهدهم وهم بمكانهم من الصلاح وسداد الرأي فلم تهزم
للاسلام راية في ايامهم الى ان خلا الامر من علي عليه السلام وذهبت
الخلافة من بيته فذهبت سداجة الاسلام وانتقلت الخلافة الى
الملك العضوض كما قال النبي صلى الله عليه وسلم الخلافة بعدي
ثلاثون سنة ثم تصير ملكاً عضوضاً والله قضا في خلقه والله يقرب
الليل والنهار

وكان الفراغ من تقييد هذه الرسالة في اول يوم

من رجب من السنة السابعة والخمسين

بعد المائة من هجرة النبي

صلى الله عليه

وسلم

الرسالة الثالثة

في لقائي ولي العهد

هذا كتابك اليك أبدأ فيه بذكر لقائي ولي العهد . فاني بينما كنتُ جالسا الى فقيه الاسلام اذ دخل عليه خادمٌ من خدم الخليفة فتحوّف من شيء لم أدري ما هو وكذلك الناس يغشاهم الخوف والانتباض كلما دخل عليهم خادم الخليفة^(١) . فقال له ابو يوسف سبق وهي الى انك تدعوني لامر جالٍ قال أجل ان الامير يدعوك الساعة اليه لامر اقلنه الليل طوله ولم يكن لأحد من المقرّبين اليه ان يسري عنه روعه حتى اذا دعا خالد بن برمك اليه قال له عليك بتلاميذ ابي حنيفة وما فهم أحفظ لعله من ابي يوسف^(٢) . فلما سمع ذلك طاب منه الخاطر وذهب ما كان يجده في نفسه من الخوف وقال ما الخبر قال حتى الامير على الخيزران ام اولاده وقال لها في سورة الغضب أنت طالق ثلاثا ان بت الليلة في ملكة ابي فلما سكن غضبه ووجدها براء من التهمة راعه امر الطلاق فاستدعى

(١) المسعودي ٢ * ٢١٢ وفلائد العيان ١٠ والاغانى ١٤ * ١١٦ وكتاب

العقد الفريد واعلام الناس وحلبة الكعبت والف ليلة وليلة (٢) الشرطي

الأعيان والفقهاء فلم يجدوا له الإفتاء المرجوَّ فأمرني باستقدامك إليه . ففكر أبو يوسف برهنة ولم يفتح الله عليه بشيء .

وكنتُ في خلال ذلك أجيل الفكرة في حال الخيزران وقد ذكرتُ ما لها في الدواة من المآثر وما بنتت من المساجد في سبيل الله فوقع في نفسي من تخيل هذه المساجد أمرٌ فقلت لأبي يوسف ما الرأي لو أن الأمير بيت الليلة في المسجد فلما وعى ذلك عني كاد ينزع من ثيابه لشدة الفرح وقال عليّ عهد الله لا ذكرك عند الأمير وهو يقرُّبك إليه بما أنت أهلُّ له . ثم خرج فها هو إلا أن عاد نصير^(١) (هذا الخادم) يدعوني إلى مجلس الأمير وقد أخبرني أنه لما مثل أبو يوسف بين يديه كاد ألا يقبل عليه بالاستفتاء ظناً بان لا يكون من فتواه جدلاً (والخلفاء وأولادهم يبدأون الناس بالكلام وليس للناس أن يفتحوهُ معهم^(٢)) ثم لما استطلعتُ رأيه فيما أهمه وذكر له ما رزقني الحظُّ استباطة لبطانان الطلاق^(٣) غاب عليه السرور حتى كاد لا يستقرُّ به المجلس من القيام والقعود فقال له أهدأ من معقولك أم من منقولك فقال لا وأبق الله الأمير وأيده وأعلى في الكون يده إنما قائل هذا صديق لي من أولاد الفرس . فوجهني الأمير في طلبك وجئتك مخبراً بحسن ظنه بك

(١) أغانيه ٢ * ٥٧ (٢) ابن خلكان ١ * ٢١ (٣) النزويهي ٢١١ وفي

هذه الرواية تصرفاً

فلما اقبلنا على دور الخلافة اجتزنا باب السور الكبير^(١) وسلكنا
 مرة مفروشا بالحصاء تحيط به حدائق القصر وجنان قد اقيمت فيه
 احواض يتصوّب منها الماء وعليها عهد من الرخام نقل قبابا مغطاة
 بالرسوم والآيات الموسومة بماء الذهب^(٢) والى ما وراء الجنان صنّاع
 وبنّاؤون يرفعون قصرا^(٣) سماه ابو جعفر قصر الخلد^(٤) ووصله بقصر
 السلام^(٥) الذي يسكنه في هذه الايام . فانتمينا من هذا المر الى باب
 القصر وهو معقود تحت القبة التي كانت مزينة في عيد الفطر وعليه
 مسامير كثيرة من الفضة والذهب^(٦) . فجاوزناه فاذا نحن في دار
 مسورة بالعمدان^(٧) وعلى دائرها مقاصير منجدة ارضها وحيطانها
 بالارمني^(٨) وفي اطرافها دهليز^(٩) ينبعث اليه الضوء من شمسيات
 منقوبة في القباب^(١٠) . فجزناه فاذا نحن في دار افسح من الدار الاولى
 وفيها كثير من العمد المخزّمة التي يوجه الخلفاء عنايتهم الى الاكثر^(١١)
 منها في جميع بناياتهم حتى اني عدت في صحن من صحن دور الخلافة
 سبعا واربعين سارية ولو ان ثمانين غلاما وقفوا وراءها ما راها من
 في صدر الصحن

(١) ابن خلدون ٢* ١٩٧ (٢) الانليدي (٣) ابن الاثير ٦* ٥

(٤) الفزوي ٢١٠ (٥) اغاني ٩* ٤٥ والسيوطي (٦) انليدي ١٤٦

(٧) اغاني ٦* ٧٨ و٢* ١٨٢ و٥* ٢٤ (٨) انليدي ٢٢٦ واغاني ٥* ١٧٢

(٩) الف ليلة وليلة ١* ٢٠ (١٠) فلايد العفنان ١١ (١١) اغاني ٥* ٢٢

ثم انتهينا من هذا الدهليز الى سلم^(١) من الرخام تنتهي بالراقي
عليها الى مجلس الامير وكان مجللاً بالرخام المجزّع وبين كل رخامة
قضيب من الذهب يشدُّ بعضها الى بعض^(٢) وهو مفروش ببساط
طبرية^(٣) من الديباج^(٤) عليها ابيات^(٥) في مدح الامير. وفيه كرسي
مرصعة^(٦) باصداف اللؤلؤ وعليها جماعة من الاعيان خافتون كأنَّ
على رأسهم الطير^(٧). وفي صدرهم الامير جالس في قبة صنع لها
فراشاً مبطناً بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب والابريسم^(٨)
وهو أسير طويل القامة معتدل الخلق مليح الشكل جعد الشعر بعينه
البنية نكتة بياض^(٩) وعلى رأسه خصي واقف بالمظلة وهو من الخدم
المقربين الى الخليفة وأهل بيته والذين يطعمهم الناس بالمال
ليذكروهم^(١٠) عنده أو يخاطبوه في حاجاتهم

فلما اقبلت على المجلس غلبني البهر عن جلالة الامير فسلمت
عليه بالامارة فردَّ عليَّ السلام بخفض الجناح واظهر ما حسب لي
عليه من المنَّة وانه يأنس بي ويسكن اليَّ وان قد بلغه عني من العقل
ما يجعله على ان يصير اليَّ تاديب موسى وهرون ولديه. فدنوت من

(١) اغاني ٦ * ٧٨ (٢) اغاني ٥ * ١٦٦ (٣) اغاني ٥ * ٥٩ و

١٢٨ (٤) المسعودي ٢ * ٨٢ (٥) اغاني ٥ * ١٢٨ و ١٠٠ و ٨٦

(٦) انليدي ٩ (٧) الفجري ٥ (٨) المسعودي ١ * ٢٢٤ (٩) العقد

الفردي ٢ * ٥٢ وابن الاثير ٦ * ٢٩ والنخبس وابن خلدون (١٠) اغاني ٤ * ٧٨

كرسيه وقبّلت الأرض بين يديه وقلت له في موقف الشكر على
 جزيل ما أولاني من النعمة انه يجعل لي بها شرفاً لم ينله أحد قبلي
 من العلماء فقال أحسن الله عنا جزاءك فإ الكثير من فعلنا بك
 جزاء للسير من حثك^(١). ثم دعا أبان بن صدقة كاتبه فوقف
 بين يديه^(٢) فقال اكتب له بدارنا على دجلة واقطعه من ضياعنا
 الخاصة ما نقيمه غلته على السعة. ثم أمر لابي يوسف بمخسرين ألف
 درهم معجلاً^(٣). وكان هذا اول اتصالي بولي العهد الصلح الله وتولي
 مكافأته عني بما هو واسع له

فيا توالي علي من نعمة بني العباس

ولما اتصل الخبر بالخيزران عادت الى دور الخلافة وقد
 كانت في دارها تسمى باساس^(٤). وأقام الامير مادية جلس فيها
 لعطاء قريش^(٥) وفرق في الناس أموالاً جزيلة حتى امتلأت
 الزوراء مسرة في ذلك اليوم. ثم جاءني من خدم الخليفة من يطلق
 في الى الدار التي وهبني الامير فانا هي مشيدة على أساطين رفيعة
 وحنايا مقوسة وقباب مخرمة ولها روشن^(٦) يشرف على دجلة وما

(١) اغاني ٢ * ٢٠ (٢) المسعودي ٢ * ١٨٢ (٣) اغاني ٢ * ٦٥
 (٤) المسعودي ٢ * ١٩٦ (٥) اغاني ٧ * ٦ (٦) اغاني
 ١ * ٥

ورأته من الرصافة . وفيها من السدلات والاسرار الحخير والبسط
 الدباج والتمام النحاس والآنية المنزلة والمخزائن^(١) المجزعة ما ليس
 مثله في أمتة جلساء الملوك^(٢) ما يتكرمون به عليهم في سبيل الهبات .
 حتى لقد كانت الاوتاد التي تدق بجانب الباب ليعلق^(٣) فيها
 الداخل ما ثقل عليه من ثيابه^(٤) متخذة من العاج الاصفر وعليها
 رسوم منزلة بالذهب تمثل اثمارا تجنى بالابصار لحسن ما أبدع فيها
 المثل من الصناعة

ثم جاءني من لدن الخيزران خادمان للمهدي لم تكن نوبتهما^(٥)
 في ذلك اليوم بخدمته ووضعوا بين يدي اناء من الذهب على أحدها
 منشور^(٦) بضبعة في السواد وعلى الآخر مخنقة في وسطها جندارة
 عن يمينها ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات وما بينها من
 شذور الذهب^(٧) ثم جاءني وصيف آخر للمهدي يحمل الي رقعة
 بالضبعة التي سبق لي بها العطاء وهي في السواد من جوار الحيرة
 يقال لها العبرية^(٨) . ثم بعده وصيف لام المهدي وهي بنت منصور
 الحيرية ومعه اناء من ذهب قد اشترت عليه اللآلئ^(٩) . ثم وفد

(١) اغاني ١٠٢ * ٥	(٢) اغاني ٥ * ٤٠ و ٦ * ٨١	(٣) اغاني (٢)
٥٢ * ٤	(٤) اغاني ١١٨ * ٥	(٥) اغاني ١٨٤ * ٣
٢٤٢ * ١	(٦) اغاني ٢٦ * ٢	(٧) اغاني ١٢٢ * ٦
	(٨) اغاني ٢ * ١	(٩) اغاني (١)

للغالية أخيه ومعهم جام فيه دنابير^(١) وخاتم من العقيق مرسوم فيه
 أم القرآن ولكن باحرف لا تبصرها العيون المجردة . وذلك احسبه
 من محاسن الاشياء التي لا تكون الا عند الملوك . فطلت علي^(٢)
 النعمة غيثاً من الذهب وليس الا لاني وجدت منصرفاً في القول^(٣)
 ومذهباً يبطل به الطلاق

ولما صارت الي نعمة بني العباس تحدت الناس بها كثيراً في
 الحضرة وأشفق العرب على دولتهم من المهدي أن يجري على سنة ابيه
 في تقديم الأعراب عليهم في المراتب اذ انهم يرون في ذلك^(٤) اعتلال
 دولتهم واختلال أمرهم واضمحلال محاسنهم واستيلاء الاعاجم^(٥) على
 السلطان الذي بذلوا عليه نفوسهم حتى لا تنفعهم نهضة يقومون بها
 عليهم لاستخلاصه من ايديهم فيما بعد كما يرون فوات الخبرة في مصالح
 الملك جرمان ابي جعفر لم من المواظبة عليها والمران لها وجسوا ايام
 دون تطويق مراتبها اليهم فتخلو منهم مناصب الدواة^(٦) . ولكن لم يكن
 لابي جعفر بما تقدم من خوفه من العلويين الا أن يتجافى عنهم ويتصبرهم
 عن المراتب الى ان ترسخ دولته في كبرائهم على غير حاجة الى قتل
 المسلمين بالمسلمين في فتن صواب لا يرجو بها بلوغ أمنيتهم . وانما
 رزق من السياسة الحيات في تقديم الاعراب والترقيق بهم والاحسان

(١) ابن خلكان ٢ * ٤٥٥ (٢) ابن خلكان ٢ * ٤٥٢ (٣) المسعودي

٤ * ١ (٤) المقدمة ٢٢ (٥) الديوهي

الهم^(١) طمعا في استمالتهم اليه واستظهاره بهم على إقامة ملكه وتقويم دولته بما يظهر على نفسه من الجبروت^(٢) الذي لا ياتمس الى تمكين مهابته من المخالفين له من العرب سواه. كدأيه في الاتقطاع عن اللهو والمآذب والولائم^(٣) والبعد عن بهرجة الملك^(٤) والتوجس من اهل بيته انفسهم والتجافي عن الجلاس والندماء الا على سشارة يضر بها فيما بينه وبينهم على اربعين ذراعا^(٥). الى امور كثيرة تدل على ان مثله في البعد عن الطمأنينة مثل الذين يخلسون الملك ثم تمر بهم الايام على اسوء مما يكون من التوجس والخوف

تاديب موسى وهرون

ولما كان بعد ذلك جاءني من الوزير المقدم والامير الميم^(٦) انه خاطب المهدي في وخطب لي منه مودته فولاني تاديب موسى وهرون وهما ثمرة قلبه ومهجة فؤاده. واحب الوزير ان اصير يدي عليها مبسوطة وطاعتي منها واجبة واكون بجيث وضعني الامير واقراءها القرآن واعرفها الآثار وارويها^(٧) الاشعار واعلمها السنن^(٨)

(١) ابن خلدون وابن الاثير ٦ * ٨ (٢) الخميس ٢ * ٢٢٤ (٣)

ابن الاثير ٦ * ٨ والفخري ١٨٧ والخميس ٢ * ٢٢٤ (٤) ابن خلدون

(٥) السيوطي (٦) يريد بو خالد بن روك (٧) العند الفريد ٢ * ١٢٢

(٨) اغاني ١٨ * ٧٨

وأبين لها فضل الحكماء في مواعظهم وأبصرها مواقع الكلام وامنعها الضحك إلا في أوقاته وأخذها بتعظيم آل هاشم في دخولهم عليها ورفع مجالس القواد إذا حضر واجلسها وإن لا تمر بي ساعة إلا وأنا مغتنم فيها فائدة أفيدتها من غير أن أقسو عليها فأमित ذهنها ولا أوسع في مسامحتها فيستحلبها الفراغ ويألفها وإن أقومها ما استطعت بالتقرب والملاينة فإن أباها فعلي بالشدة والغلظة^(١) إلى آخر ما أوصاني به الوزير من تهذيب أخلاقها بأقصى ما أقدر عليه

وكان الموكل بالأميرين سلامان الأبرش حاجب أبيهما الخاص^(٢) وهو الذي كان يجاوزني مقاصير القصر إلى أن ينتهي بي إلى موضعها . وكنت لأول دخولي عليها قد وجدتها في مجلس لطيف وعليها جمال السلطان وإشراقه^(٣) . فتخنن هرون للسلام وعلا وجهة الابتسام وبقي موسى موضوعة غير مبال بي . وهو أبيض اللون في شفته العليا قلص^(٤) وعيناه لا تتبئان عن ذكائه في نفسه يرفعه إلى مساواة أخيه في العقل والنجابة فلم أمل إليه على صبوة القواد وإنما صرفت عنائي إلى تثقيف هرون لما رأيت فيه من توقد الذكاء . وقد ظهر صحة ما تفرست فيه بما رأيت منه من الامعان في أقوال الحكماء

(١) المسعودي ٢ * ٢١٤ (٢) العقد الفريد ٢ * ٥٢ (٣) المسعودي

(٤) ابن الأثير ٦ * ٢٦ وأبو النداء ٢ * ١٢ والخبيس ٢ * ٢٢١ والعقد الفريد

٢ * ٥٢ وابن خلدون

والانعكاف على المطالعة والدراسة^(١) بخلاف موسى اخيه فانه كان على جهل بالعلوم ولولا قليل من الفهم الغريزي فيه ما حصل ادباً بمجده واجتهاده . فلقد كنت اذا بينت لها مغلقاً عمي عليها فهمه وجدت هرون منصباً الى تفهم معناه وائفيت موسى فاتحافاه وساهياً عن موضوعنا وموضوعنا فكنت اعذله لذلك^(٢) وأعيب عليه فتح فيه فذهب قولي مثلاً في دور الخلافة ينعت به وصاروا يسمونه يا موسى طبق^(٣)

ولقد كان يؤدب الاميرين من قبل ابو عبيدة معمر بن المثنى التميمي وأوسعهما في الحديث وعلم اللغة فائدة ولكن العلوم العقلية لم اجدهما منها في شيء لجهل المؤدب بها الا قليلاً وكانا لا يقمان البيت اذا انشده حتى يكسراه فعرفت من ذلك^(٤) بعد ابي عبيدة عن محاسن الشعر . على اني وجدت الخطأ في قراءات هرون اقل منه في قراءات اخيه وذلك ان اباهما لما فوض تأديبهما الى ابي عبيدة وافق عمر هرون وغضاضة ذهنه ان يستفيد منه ما غاب عن موسى ان يتدبر معناه لقلّة انصبايه اليه وهوه في مجالس الطرب وانشغال نفسه بما يتردد في خاطره من امر الملك وغيره . ولا يعين الواقف على كتابي هذا من انتقادي على غلامين بهذا الكلام . لان أولاد

(١) الفجري ٢٣٠ (٢) الوطواط ١٦٦ (٣) الخميس ٢ * ٢٢١ والسبوطي

وابن الاثير ٦ * ٢٧ (٤) ابو الفداء ٢ * ٢٠ وابن خلكان ٢ * ١٥٥

المُلوِك تُرعى فيهم العقول بالغة^(١) من قبل بلوغها في غيرهم من ابناء جيلهم اذ انهم ينشأون بين العلماء ويربون في مهاد الدعة ويشهدون مجالس الفقهاء والامراء وأرباب القلم من اهل المراتب. فتعانون نفوسهم على نضارة العمر ولا تعود الدراسة في امكانهم على كبر اللهم ان يستفيدوا منها ما يستفيدون في غضاضة الشباب

وكما كثر تردادي على هرون ألفت فيه شيئا تعظم في عيني قدره ولا سيما ما وجدت فيه من رقة الطباع وخفض الجانب ولين العريكة فكنت اود لو انه سبق موسى في الولادة وكان له حقوق الملك قبله ليكون اجدر منه بتعمير البلاد وتقوم العباد لان الكبير صعب المرام شكس الاخلاق عرفت ذلك في ذات يوم من مسألة لم يظن لمعناها فلما استطلعت رأيه فيها طار طائر وظهر الغضب على وجهه فحفظت له ذلك في نفسي واخذت اشغله من العلم السهل بما لا يحتاج الى كبير مطالعة ولا الى تكلف عناية به فسر لذلك واوسعني اعذارا عما بدر منه في وقت الحدة فعرفت من هذا انه صعب المرام^(٢) وان من توقاه وعرف اخلاقه دخل في رضاه ومن فتح فاه فاتفق له ان يفتحه بغير ما يهواه اطرحه واقصاه^(٣). ولكن ذلك خلق غير محمود من الملوك اذ يتجافون عن الحكماء والوعاظ الى تقرب من يداهنهم بالمدح لهم والثناء عليهم بما ليس

فهم من الخلال فان ذلك لدليل واضح على بُعد الحزم منهم
وضعف البصيرة فيهم

ولم ار في اولاد الملوك أجمل خلقاً وخلقاً من هرون. وبه ماثلة
في الخلقة للفضل بن يحيى بن خالد وهو ابيض اللون^(١) كبير العينين
عالي الجبين منطوي على خير وصلاح وسلامة قلب. واذا تأم من
امر لم يستفز الغضب ولا زاد على هاه هاه^(٢) كلمة غبظ واحدة.
وتأديبه له مستمر الى هذه السنة وهي سنة ثمان وخمسين بعد المائة
وقد اتى عليه اربع عشرة من العمر اصلحه الله ووفقه الى ما به صلاح
المسلمين وتأيد الاسلام

—><—

بقية من اخبار ابي جعفر

وقد عرفت بتردادي الى دور الخلافة كثيراً من اخبار ابي
جعفر فوجدته^(٣) ينظر في احكام الدولة وامور العمال دون ان يدع
لنفسه فرصة يستريح فيها من الاعمال فاذا طلع النهار جلس في
ايوانه ورأى في حال الامة وعزل الولاة الذين يريه منهم مخالفة
ونصب مكانهم^(٤) من تلوح عليه نجابة وتظهر فيه امانة له لا يزال
أخذاً في ذلك بما يروم من اذلال المخالفين له الى قبيل الظهر فاذا

(١) العقد الفريد ٣ * ٥٤ والخميس ٢ * ٢٢١ (٢) اغاني ٥ * ٦٦ (٣)

ابن الاثير ٦ * ٦٠ (٤) الماوردي ١٢٢

تناول الغذاء عاد الى النظر في المصالح والاهتمام بأمر الجند فاذا
 صلى العصر جلس لأهل بيته وفاوض اعمامة وغيرهم فاذا صلى
 العشاء نظر في كتب العمال ما يكون تجبّع في النهار وشاور ساره
 من آل هاشم وغيرهم^(١) كذلك عادته^(٢) من يوم ولي الخلافة
 ولقد رأيتُه لا يركن في أمورهِ إلا الى خالد الوزير المتقدم فهو
 ركن دولته ولولاهُ ما استمرَّتْهُ الملك بين تغلب الأكراد^(٣) في فارس
 وظهور الخوارج في جميع النواحي والامصار . على ان سياسته مع
 العلويين كانت خارجة عن رأي خالد وهو اذ ذاك بعيد عن
 الحضرة على حيلة أبي ايوب المورياني^(٤) اذ ذكر لابي جعفر انه لا يكفيه
 امر الأكراد الا هو فندبه اليها^(٥) فلما بعد عن الحضرة استبد أبو ايوب
 بالأمر^(٦) وجاء ابو جعفر بالنفس الزكية وأخيه ابراهيم وقتلها^(٧) وكان
 ذلك أول وقوع الفرقة بين العلوية والعباسية على غيظ كثير من
 اهل بيته عليه ومنهم^(٨) عمه عبد الله الذي غلب الأمويين على
 الشام^(٩) في مطرف الايام فلما أحس منه بالانحراف اسكنه في قصر
 بني اساسه على الملح حتى اذا دحى الليل أرسل الماء حوله فذاب الملح

- (١) المسعودي ٢ * ١٨٤ (٢) ابن الاثير ٦ * ١٠ (٣) ابن خلكان
 ١ * ١٤٩ (٤) المسعودي ٢ * ١٨٢ (٥) ابن الاثير ٥ * ٢٢٦ (٦)
 ابن خلكان ١ * ٢٠٥ وأغانى ٩ * ١٢٤ والوطواط ٧٩ والنجري ٨ * ٢٠٨ والعقد
 الفرید ٢ * ٥٢ (٧) المقدمة ١٧٤ والنجري ٢٦ والمسعودي ٢ * ٤٠٠
 (٨) ابن الاثير (٩) ابن خلكان ١ * ٢٩٩

وسقط البيت ^(١) . وهذا من الامور التي يتناقلها الناس عنه بسوء
 الاحدوثة كما يتناقلون ذكر قتله لابي مسلم وكلاهما من القواد
 الذين رفعوا دولته في فارس فخراسان فالعراق فما بين المسجد
 الأقصى الى المسجد الحرام . ولقد فاضت ابا يوسف في هذا الشأن
 فوافق قوله ما في نفسي من المؤاخذه على ابي جعفر في ظلمه وقال
 انه قد قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه ^(٢) وحدثني ان سلامة
 امه ^(٣) لما حملت به رأت في منامها كأن سبعا خرج من قلبها فاقى
 وزار فاقبلت عليه السباع من كل ناحية وكما انتهى اليه سبع سجده
 له ^(٤) فصح منامها بما يراد من معنى الملك والظفر . وان كان السبع
 بمكان من القوة فان الغدر منتسب ايضا اليه

ولقد دخلت على ابي جعفر مرة واحدة بعد رجوعه من الحجيرة
 وهي المدينة التي يقصدها حين يشتد عليه الحر في الزوراء اذ ليس
 في جوارها ما يصلح لسكن الملوك غيرها ^(٥) فلما اذن للناس بالدخول
 عليه صحبت لسان الشريعة ابا يوسف فاصبناه في مجلس من الامراء
 قعود بين يديه وفيهم ابو دلامة الشاعر وهو يدينه اليه ويضحك
 منه على بيتين انشده اياها في الاستهزاء على زبي المقرين اليه وكانهم

(١) الفجري ١٩٨ والمستطرف ١ * ٩٦ وابن الاثير ٥ * ٢٢٥ (٢) النجيب

٢ * ٢٢٤ (٢) العقد الفريد ٢ * ٥٢ (٣) المسعودي (وهو يجعل

هذا السبع اسداً) (٥) اغاني ٢ * ١٢٥

في كتابة الآية بين اكتافهم يبنذون كتاب الله وراء ظهورهم فكان
يضحك منه ويقول قاتاك الله لقد آيت الأهل والأهليلقان هما
قوله^(١)

وكنا نرجي من امام زيادة فجاد بطول زاده في القلانس
تراها على هام الرجال كانوا دنان يهود جلت بالبرانس
ثم انه اذن للجماعة بالانصراف وامرنا بالجلوس وقال بعد ان قمنا
بالواجب من اجلاله اني رايتكم (يريد الفرس والأغراب) اهل
وفاء^(٢) فوليتكم المناصب في دولتنا ولم ار بني أمية قد اتهموا لذلك
ولا تكلفوا العناية في تجميل الدولة وانما كان عبد الملك جباراً
لا يبالي بما يصنع وكان سليمان همهم بطنه^(٣) وكان عمر اعور بين عيمان
ثم افضى امرهم الى اولادهم المترفين فكان همهم قصد الشهوات وركوب
الملاذات والاسترسال في التصف والتفتك^(٤) فلما ذكر ذلك عنهم
وقع عليهم قذف شديد من الحاضرين بما يرومون من موافقة
السلطان وقالوا ان الامويين كانوا يعاقرون الخمر ويظلمون
العباد حقوقهم ويستحلون اخذ اموالهم بغير استحقاق^(٥) ويكفون اهل

(١) بن الاثير ٥ * ٢٤٥ واغاني ٥ * ٥٩ و ١ * ١٢١ والسبوطي وابن عون

والوطواط ٢٠٢ (٢) ابن الاثير ٦ * ١٢ (٣) ابن خلكان ١ * ٤١٠

ونزيبين الاسواق ١ * ١٤٢ والمسعودي ٢ * ١٢٨ (٤) المقدمة ١٨٠

والفروني ١٦ والمسعودي ٢ * ١٨٢ والبيدي ٨١ (٥) المقدمة ١٨٠

القرى اذا خرجوا الى الصيد ما لا طاقة لهم به بالضرب والاهانة ولا
يقنعهم ذلك حتى يحطوا زرعهم في طلب الصيد . ثم تبادوا من
الحديث الى حث ابي جعفر على تتبع الهاربين منهم وانشدوه قول
سديف^(١) لابي العباس رحمه الله

لا يغرّنك ما ترى من رجالٍ ان تحت الضلوع داءً دويماً
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها اموياً
فامتلاً وجه ابي جعفر غضباً وقال لعمرى ان الامويين اهل مظالم
قد غمطوا النعمة واستحلوا ما حرّم الله عليهم وظلموا فيما خولوا من
المملك فحوى نجهم وثلّ عرشهم والبسهم الله الذلّ بذنوبهم^(٢) وله فهم
نقمة سائرنا بهم ان شاء الله . فعجبت من مظاهرته بهذا الكلام الذي
لا يصلح ذكره في محاسن قد يجمع كثيراً ممن يتقرّب اليه بالتدليس
والمحال وانا لا اقول ان الامويين منزهون عن هذا الطعن ولكي
ارى انهم لو لم يكونوا حقيقين به لطعن بهم هؤلاء السقق تقرباً
من السلطان . وكان ذلك اول ما لقيت ابا جعفر ثم لم اره من
بعد لانه ركب^(٣) الى موطن الحجّ شرفها الله بمنه وكرمه

(١) ابن خلدون والطبري وابن الاثير ٥ * ١٧٤ وان عون والفخري ١٧٧

والسيوطي واغاني ٤ * ٩٤ والعقد الفريد ٢ * ٢٥٧ وابوالفداء ١ * ٢٢٤ والتناوي

٢٠٢ - (٢) التزويبي ١٦ - (٣) ابن الاثير ٦ * ١٢

في ركوب ابي جعفر الى الحج

وكان لخروج الخليفة الى الموسم موكب ليس احفل منه في مواكب الملوك واقبل اهل المدينة الى باب الكوفة^(١) حيث اجتمع من النافرين الى الحج الشريف من العراقيين والفرس والخراسانيين ما لا يحصيه الا الله وكلهم مجهز^(٢) ابله وكسوته وقربه وخرثبه وطعامه من الاخبصة اليابسة والخشكاج والاقراص المعجونة باللبن والسكر والكعك المنضد والفواكه اليابسة وغيرها من طعام الحجاج^(٣) ومعهم قطعة من الجند^(٤) تحوطهم في نزولهم وارتحالهم وفي طليعتهم هودج تظللها قباب من الدباج الخوص بالذهب^(٥) وفيها يقم الامير المولى على الحجاج وليس هو من رجال الدولة وانما نظره في امارته متصور^(٦) على عشرة أمور^(٧) في ان يجمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لا يفرقوا فيخاف عليهم التواني وان يرتبهم في المسير ليعرف كل منزله ويألف مكانه اذا اناخوا في بلد وان يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم وان يسلك بهم اوضح الطرق وأخصبها ويتجاسر اوعرها واجديها وان يرتادهم المياه اذا قلت والمراعي اذا انتطعت وان يجرسهم اذا نزلوا

(١) ابن الاثير ٦ * ٧ (٢) السعودي ٢ * ٦ (٣) اغاني ٩ * ٦٤

(٤) ابو الفداء ١ * ١٥٧ (٥) الماوردي ١٨٧

ويجوز لهم اذا رحلوا وان يمنع عنهم من يصدّهم عن المسير بجهاد
 لا مال لان المال على التمكين من الحج لا يجب وان يصلح بين
 المشاجرين لانهم يكونون تحت ولايته كأهل مدينة تحت ولاية عاملهم
 وان يؤدب خائنهم ويلزم الناس آدابهم وان يراعي فوات الوقت
 فلا ينحش عليهم ضيقه لانهم اذا لم يصلوا عرفة في يوم عرفة ما بين
 زوال الشمس الى طلوع الفجر فقد فاتهم الحج . اه

ولما كان الظهر وقد غصت بالناس المواقف وضافت بهم
 الساحات ضرب البوق ايذاناً بركوب ابي جعفر فلم يلبث ان اقبل
 مرتعاً على فيل ابيض قد استرسلت عليه الفضة^(١) وهو جالس في
 هودج منزل بالاصناف اللامعة وعلى القبة استار من الديباج
 يتخللها القصب البراق^(٢) وكان في يده قضيب الخلافة وفي الأخرى
 الخاتم وعلى كتفه بردة خضراء للنبي صلى الله عليه وسلم وهي غير
 البردة التي كانت لبني أمية يلقونها على اكتافهم في جلوسهم وركوبهم
 لانها فقدت بفقدان الخلافة منهم وكان معاوية قد اشتراها من آل
 زهير بن ابي سلمى باربعين الف درهم^(٣) . وانما هذه البردة قد
 اعطاها النبي صلى الله عليه وسلم لاهل الأبلّة لتبقى عندهم بركة
 منه فاشتراها ابو جعفر بثلاثمائة دينار^(٤) واتخذها من شعار الخلافة

(١) المقدمة ١٤ (٢) ابن جبير (٣) ابو الفداء ١ * ١٥٦ (٤)

موضع البردة التي كانت عند الأمويين . واما الفيلة فانه لم يسبقه احد من ملوك العرب الى اتخاذها في المواكب وقد اخبرني نصير انه اتخذها مركبا له لتعظيم الملوك السالفة اياها واقتنائها لها واعدادها للحروب والزينة في الاعياد وغيرها اذ انها اوطأ مراكب الملوك وأمهدها^(١) . وكان يصحب ابا جعفر جماعة من الامراء ووراءهم الابل التي يظعنونها حريمه وأهل بيته وفيمهم موسى بن المهدي حاجا^(٢) ومعهم حرس خاص بهم يجامون الرايات السود

فلما وصل موكب ابي جعفر الى موقف الحجاج ارتفعت اصواتهم بالدعاء له وعلت ضججتهم بالتكبير والتهليل فكان يستشعر الواقف من عزة الاسلام ما لا يخالج النفس اعظم منه ولا سيما ان ليس من فروض العبادة منه ما تظهر فيه أبهة الدولة الا الحج الشريف . فلما وقف القواد والامراء الى وداعه اوصاهم بالسهر على مصالح الرعية^(٣) وان يسألوا الله ان يسبل عليه انعامه حتى يلبسه الرفاهة بهم والاحسان اليهم ويفتحه لاعطائهم وقسم ارزاقهم بالعدل^(٤) . ثم عزم على ولي العهد ان يصحبه الى قصر عبدويه على مسيرة يومين^(٥) من الزوراء لتتم له الخلوة به على انفراد اذ كان يحسب من هذا الموسم دنوا ما لامر له عليه^(٦) وكان يرى في منامه كان نجوما تهوي في السماء فكان يتفاعل

(١) المعودي ١ * ١٨٥ (٢) ابن الاثير ٦ * ١٢ (٣) السيوطي

(٤) العقد الفريد ٢ * ١٧٧ (٥) ابو الفرج ٢٢٠ (٦) ابن الاثير ٦ * ٦

بالشوم من ذلك فلما نفع البوق ايدانا بالنفير زحف الحجاج كالبحر
 المتلاطم الاباب وكان سفنه الركاب وشرعها الظلائل المرفوعة
 والقباب^(١) وكان في مقدمتهم هودج الخليفة لامعاً قصبة وذهبة
 كأنه شمس تسير على الأرض تعظيماً للمسلمين واجلالاً للدين
 ولما عاد ولي العهد من قصر عبدويه^(٢) احتجب عن الناس
 اياماً لتعب ناله من السفر وقد كان قافلاً من الرقة^(٣) قبل ذلك
 بايام. فلما أخذ نصيبه من الاستراحة شرع في مباشرة الاحكام بنفسه
 كمادة^(٤) ولاية العهد في تغيب الخلفاء عن الحضرة وقرب العلماء
 والادباء اليه وفرق في الناس أموالاً طائلة واخذ تجارتهم بعين
 الرعاية بعد ان كان ابو جعفر يساهمهم فيها^(٥) وكاد يسهم بالخراب
 ومجلمهم على الجلو عن اوطانهم سعياً الى طلب الارزاق في غير العراق
 ونحن اليوم تحت ولاية المهدي اشبه بنا تحت ولاية ابيه الا فيما
 يصير البناء من العطاء الذي لم تعود من ابي جعفر واما ما دون
 ذلك من امور السياسة فلم يكن له الا ان يقتفي بها اثره ويمضي على ما
 رسم له في وصيته اليه^(٦) بقصر عبدويه وفيها يبدأ بتخريصه على سكنى
 الزوراء وان لا يستبدل بها غيرها وان يظهر كرامة اهل بيته^(٧)

(١) ابن جبير (٢) ابن الاثير ٦ * ٦ (٣) ابن الاثير ٦ * ١٢

(٤) ابن الاثير ٦ * ٢٢ (٥) المستطرف ١ * ١٢٥ (٦) ابن الاثير ٦ * ٧

(٧) ابو الفرج ٢٢٠

ويحسن الى مواليه ويستكثر منهم ولا سيما اهل خراسان اذ كانوا
 شيعةهم وانصارهم ومن لا تخرج محبتهم من قلوبهم وان لا يدخل
 النساء في امره^(١) ولا يستعين باحد من بني سليم خوفاً من ميلهم مع
 اهل البيت وهذا ما اوصاه به طبعاً في بقاء الملك له ولولده من بعده
 وبعد ان فرغ من ذكر النبي صلى الله عليه وسلم^(٢) وحفظه في امته
 ولزوم حدود الله وحدود الآدميين والعفة عن البغي الذي لا حاجة
 به اليه مع ما خلفه له من المال اوصاه بشحن الثغور وضبط
 الأطراف واعداد الكراع والرجال وسوء الظن بالعمال وان
 لا ينام الا وهو مستيقظ الى آخر^(٣) ما اتى به من دلائل الخوف في
 نفسه وان كان من احسن ما اوصى به الملوك الى ابنائهم في السياسة

في ذكر من لقبته من الشعراء

ولقد زهت دولة ابي جعفر بما اجتمع على بابيه من الشعراء
 فأحبت ان اذكر عنهم ما ورد على الخاطر الفائر ولكن بما يجازي
 يستدل منه على موضعهم من الاجادة في مذاهيم دون اطناب ينتهي
 الى ما لاتسعه الصحف من ذكر ابائهم. فأبدأ منهم بذكر بشار بن
 برد البصري الضرير وقد لقبته في مجالس البرامكة^(٤) لاول قديمي

(٢) ابن الاثير ٦ * ٧

(٣) ابو الفداء ٢ * ٧

(١) الفجري ٤٨

(٤) الاغانى ٢ * ٢٦

الى الزوراء وكان خالد اعزّه الله فداحب ان يطلق علي اسم الزائر
ويبطل عني اسم السائل الذي كان ينعت به الغرباء في ذلك
الوقت^(١) فقال في مجلس حافل بالامراء اني والله لا استقبل اسم
السائل الا لطلاب الخير وارفع قدر الكريم عن ان يسمي به امثال
هؤلاء المؤمنين لان فيهم الاحرار والاشراف ومن لعله خير من
يقصد وافضل ادبا ولكننا نسميهم الزوار . فوجد بشار لنفسه نصيبا
من كلام الوزير فاطلق لسانه في الانشاد^(٢) بما دل على سرعة خاطره
الى النظم وسعة تصرفه في الكلام^(٣)

ولقد رويت بشار هذا الشاعر نحوًا من مئة قصيدة ورأيت

له ابتداء حسنًا فيها كقولہ^(٤)

أبي طلل بالجمع ان يتكلمًا وماذا عليه لو اجاب متمًا
وبالفرع اثاره يقين وباللوى ملاهي لا يعرفن الا توها
وهو يقرب ان يكون مثل ابتداءات امرء القيس والقطامي وغيرها
من فحول الشعراء^(٥) ووجدت له من جمال التشبيه ما يعجز البصراء
عن الاتيان بافضل منه وفي قوله^(٦)

كان مثار النقع فوق رؤوسنا واسيافنا ليل تهادي كواكبه

(١) الطوطاط ٢٤٩ والفجري ١٨٥ (٢) الاغاني ٢ * ٢٦ (٣) ابن

خلكان ١ * ١٢٤ (٤) الاغاني ٢ * ٢٥ (٥) اغاني ٢ * ٢٥

(٦) اغاني ٢ * ٢٢

سوء لم يعل عليه احد من المتقدمين ولا المتأخرين . وهذا من
 الغريب الذي لم يسمع بمثله عن احد من العميان لان قولهم موقوف
 للزهد والمدح والهجاء ومقصود على ما يتصرفون به من ابوابها .
 بخلاف هذا الشاعر الاعمى فانه يتوسع منها الى سائر المذاهب من
 غير ان يقع في الانحطاط الذي لا يؤمن على من يدخل نفسه فيما
 هو غريب عنه من الوقوع به . وان كان المتبادر الى الظن ان
 يكون بعيداً عن تصور الحسن والاشراق فإن هو الاغزل الشعراء
 حيث يقول ^(١)

انا والله اشتهي سحر عينيك واخشى مصارع العشاق
 وهذا احسبه فيه من المواهب الطبيعية والملكات النفسانية ولذلك
 اقدمته على جميع الشعراء من هذا الوجه الذي يجله عن القصور ولا
 اجد فيه من العيوب الا فراغ غزله في قالب الفسق ^(٢) واسترساله
 في هجاء الناس ^(٣) واختلاقه بعضاً من الالفاظ التي يحتاج اليها لقيام
 ابياته على القافية ^(٤) من غير ان ترد في لغات العرب

وقد لقيت من الشعراء المتقدمين مروان بن ابي حفصة وهو
 منقطع الى مدح معن بن زائدة امير شيبان ^(٥) لانه قد كناه مؤنة
 الاستعطاء من غيره ولما اتى في بعض قصائده له على ذكر بلائه في

(١) ابن خلكان ١ * ١٢٥ واغاني ٦ * ٤٩ (٢) اغاني ٢ * ٤١ و٥٢

٦٩ وابن الاثير ٦ * ٢٧ (٣) اغاني ٢ * ٧٢ وابن خلكان ٢ * ٢٥٢

(٤) اغاني ٢ * ٥٤ (٥) الاغاني ٩ * ٤٤

حرب الراوندية^(١) بقوله

ما زلت يوم الهاشمية معلنا بالسيف دون خليفة الرحمان
فمنعت حوزته وكنت وقاه من وقع كل مهند وسان
اعطاه مئة الف درهم وذلك اعظم ما نال الشعراء من الجوائز حتى
ان ابا جعفر لما بلغه الخبر قال في سبيل التعجب من ساحة معن
لله دره من اعرابي ما امون عليه ما يعز على الرجال واهل الحرم^(٢)
وقد انتهت بلاغة مروان الى القصيدة اللامية^(٣) التي يقول

فيها بدح هذا الامير

تجنب لا في القول حتى كانه حرام عليه قول لاجين يسأل
تشابه يومه علينا فاشكلا فلا نحن ندري اي يوميه افضل
ايوم نداء الغرام يوم باسه وما منها الا اغر محجل
واكني سمعت من يقول انه رفعها في حول كامل فقاها في اربعة اشهر
وانفجها في اربعة اشهر وعرضها في اربعة اشهر^(٤) فجاءت كالسحر^(٥)
يعجز عن مثله الشعراء . ولكن هذا يدل على ان علمه اكثر من
عقله وان الشعر عنده صناعة ينال نفسه منها عناء شديد وانما
يحب من الشعراء سرعة خاطرهم الى النظم كما نعلم عن العربان قول

(١) ابن الاثير ٢٠٢ * ٢ (٢) المسعودي ٢ * ١٨٢ والمستطرف ١ * ٧٢

واغانى ١ * ٤٤ وابن خلكان ٢ * ١٦ (٢) الوطواط ٢٦ وابن خلكان ٢ *

١٢١ (٣) اغانى ١ * ٤١ (٤) ابن خلكان ٢ * ١٢١

الشعر ارتجالاً في المجالس والأسواق . ومن كلام مروان ^(١)
 طرفتك زائرة فحي خيالها بيضاء تخط بالجمال دلالها
 قادت فؤادك فاستقاد ومثلها قاد القلوب الى الصبا فامالها
 ومن لقبته من الشعراء ابو اسحق اسمعيل (من قبيلة عنزة ^(٢))
 ويعرف بابي العتاهية وهو من المطبوعين المجيدين يقول المنة والمنة
 وخمسين بيتاً في اليوم الواحد حتى ليس الى الاحاطة مجيئها من
 سبيل . وله كلام لم يشركه فيه احد كقوله ^(٣)
 الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن
 وكقوله في تعزية جارية ^(٤)

لا تأمن الدهر والبس اكل حال لباسا
 ليدفنتنا اناس كما دفنا اناسا

وهو يأخذ في ذلك على اسلوب سهل يروم ان تفهمه العامة وترضى
 به الخاصة وان كان منقطعاً عن لغة الجاهليين في فصاحة الالفاظ .
 غير ان تصرفه في الشعر مقصور على ذكر عامة الآخرة ^(٥) ولم احفظ
 له في المدح الا بيتين قالهما في عمر بن العلاء ^(٦)

ان المطايا تشتكك لانها قطعت اليك بسابسا ورمالا
 فاذا وردن بنا ووردن خفافنا واذا صدرن بنا صدرن ثقالا

(١) اغاني ٩ * ٤٤ (٢) اغاني ٢ * ١٢٧ (٣) اغاني ٢ * ١٥١

(٤) اغاني ٢ * ١٧٥ (٥) اغاني ٣ * ١٢٦ (٦) المستطرف ١ * ٢٧٨

والوطواط ٢٦٢ والاغاني ٣ * ٤٦ وابن خلكان ١ * ١٠٠

وهذا احسن ما يقال فبين يتوسع في الكرم اذ ان ورائه من المدح
 ما يترك البلاد والعباد والحيوانات العجم ناطقة بما له من الجميل
 ولقيت منهم ابا دلامة زند بن الجون وهو من الشعراء المجيدين
 واكنة قد اضاع شعره في استعطاء ابي جعفر وهو بمكانة من النخل كما
 علمت فقال في الثناء عليه^(١)

لو كان بنعد فوق الشمس من كرم قوم لنيل اقعدا يا آل عباس
 ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلكم الى السماء فانتم اكرم الناس

وهذا كلام يسمو به الى جمال الشعر ويملك العقول بما اودعه من
 وصف السعادة التي صورها مخفوفة بالنهر ولكن قد ضاع تأثيره
 في النفوس بعد المدوح عن هذه المحاسن التي يروم ان تكون فيه
 بما نجية لنفسه من الصلة. وقد وجدت شعرا ابي دلامة محلى بالخلاعة
 كما اني وجدت يتوسع منها الى الجون^(٢) وكثيرا ما كتبت الفاه في
 مجالس المهالبة يلتمس نصيبه من عطايم بما يتصرف به من الهزل.

وكان روح بن حاتم منهم قد خرج الى قتال العدو فبرز من صفوفهم
 فارس فتقدم الى ابي دلامة بمبارزته فقال على سبيل الاستعفاء

اني اعوذ بروح ان يقدمني الى القتال فيجزي بي بنو اسد
 ان المهلب حب الموت اورنكم ولم ارب انا حب الموت عن احد
 ان الدنو الى الاعداء اعلمه ما يفرق بين الروح والجسد

(١) الاغاني ٢ * ١٢٣ والسبوطي (٢) ابن خالكان ١ * ٢٧١ والمستطرف
 ٢ * ٤ والاغاني ٢ * ١٢٢ والشريشي ٢ * ٢٦

فقال له الامير ابنت في موقف الجداً اهزلاً وخلاعةً ثم ضحك
منه واعفاه^(١)

ومن الشعراء المحيدين محمد بن المولى الاعرابي. اقبلته في مجالس
المهالبة مرة واحدة وقد قصدهم من البادية وقال فيهم المدائح الرنّانة
فأجزلوا عطاءه. وقد حفظت له شعراً من جملة ابيات بقولها في
مدح روح وهو قوله في الاستعطاء^(٢)

اني لأرجو ان اقبلتك سالماً ان لا أعالج بعدك الأسفارا
وكان روح عند ما انشده اياه قد غابت عليه الأرجحية فامر بافراغ
المال عليه فقلت له ما انت الا ما يقول فيك زهير^(٣)

تراه اذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي انت سائله
فقال والله ان اعطي لأحب اليّ من ان أمدح. ولا ين المولى كلام
يقرب ان يكون مثل اقوال المتقدمين وله ابيات كثيرة في الغزل
يزعم انه يقولها في قوسه تحميلاً للقريض ومن ذلك قوله^(٤)

أحنّ الى ليلي وقد شطت النوى بليلى كما حنّ اليراع المثقبُ
تقرّبت ليلي كي تيب فزادني بعداً على بعد اليها التقربُ
وقوله

وابكي فلا ليلي بكت من صباية اليّ ولا ليلي لذي الودّ تبذلُ

(١) ابن خلكان ١ * ٢٦٨ والاغاني ٢ * ١٢٥ (٢) اغاني ٢ * ٢٠

(٣) ابو الفداء ١ * ١١٢ وديوان الحماسة (٤) اغاني ٢ * ٩٢

وكان الحسن بن زيد من آل علي عم (وهو عامل^(١) أبي جعفر على المدينة) قد دعاه واغظ له وقال أنشيب مجرم المسلمين وتشد ذلك في المحافل والمساجد ظاهراً فقال امرأتي طالق ثلاثاً إن كانت ليلى الأفوسي هذه ذكرتها على سبيل التشبيب لأن الشعر لا يحسن الأبي^(٢). على اني رأيت شعرة الى فصاحة البداوة اقرب منه الى حلاوة الحضارة وفي قوله^(٣)

سلا دار ليلى هل تبين فتنتق وأني ترد القول بيذاء سباق
عفتها الرياح الدامسات مع البلى باذياها والراح المتعيق
بكل شايب من الماء خلفها شايب ماء مزتها متائق
ما بعد فهمه على سكان الامصار الذين ينقطع عهدهم بحسن العربية
وانما يدخلون في لسانهم كلام السوق^(٤) والفاظ الأعجم^(٥) الذين
يحالطونهم في تجاراتهم حتى تصبح لغتهم في اشد المباينة مع لسان العربان
ومن لقبته من الشعراء المجيدين^(٦) السيد الحميري وهو من
الواقفية القائلين بالامام المتظر^(٧) يأتي في شعره على غرضه في
السياسة ويفرط في سب اصحاب النبي^(٨) صلى الله عليه وسلم وربما
وقع عليه من الناس تجاف عن شعره من هذا الجنس. الا انه ليس

(١) ابن الاثير ٥ * ٢٤٢ (٢) اغاني ٢ * ٩١ (٣) اغاني ٢
(٤) اغاني ٢ * ١٢٢ و ١٧٢ (٥) الصحاح والقاموس (٦) المسعودي
٨٠ * ٢ (٧) المقدمة ١٧٢ (٨) ابو الفداء ٢ * ١٥

لاحدٍ من شعراء هذه الايام ما له من عنوية الالفاظ وجودة
السبك ورونق الشعر. وقد جلستُ اليه اكثر من مرة ووجدته
حسن الكلام جميل الخطاب اذا تحدث بين القوم اعطى كل رجل
في مجلسه نصيبه من حديثه^(١). وله في التسيب كلام رقيق ومن
ذلك قوله^(٢)

ولما رأيتني خشيةً اليين موجعاً اكفكفني أدمعاً يبضها دررٌ
أشارت باطرافٍ اليّ ودمعها كنظم حجانِ خاتمة السلكِ فانتثرٌ
ومن الشعراء المقدمين اشجع بن عمرو السلمي^(٣) وقد نزل
الشعر موهبةً في صدره فانتفضت به قيس لذلك اذ لم يكن بها في
الاسلام شعر قبله وانما كان الشعر في ربيعة واليمن فلما نجم اشجع
وقال الشعر افتخرت به قيس على العرب^(٤) وما استحسنه من نظمه
سهولة القول التي لا يعاني الى البراعة فيها تكلفاً وقد حفظت له في
مدح ولي العهد بيتين من جيد الشعر وهما قوله^(٥)

وعلا عدوك يا ابن عم محمدٍ رصداً ضوء الصبح والاضلام
فاذا تنبه رعته واذا غفا سلّت عليه سيوفك الاحلام
هذا ما اذكره عن شعراء هذه الدولة بوجه الاختصار وقد رأيتهم
يتسابقون الى ابتكار المعاني الحسان من غير ان يسترقوا اقوال من

(٢) اغاني ١٥ * ١٠٨

(٣) اغاني ٧ * ٦

(١) اغاني ٧ * ٢

(٥) اغاني ١٧ * ٤١ و ٢٢

(٤) اغاني ١٧ * ٢٠

تقدمهم من الشعراء الأفيما كان أقل من النادر^(١) وحتى لو انا رأينا لهم ما سبقوا إليه لما صحَّ تهمتهم بالسرقة اذ ان العقول قد تتوافق وتتوارد وهؤلاء هم اشعر العرب قد اجتمعوا في الزوراء الأابن هرمة^(٢) وسلم الخاسر^(٣) وكلاهما شاعرٌ مجيدٌ ايضاً الا ان ابياتها لم تصل الي فلم اعاق اخبارها في هذا الكتاب

الرسالة الرابعة

في ذكر خلافة المهدي

أفتح هذه الرسالة اليك بذكر جلوس المهدي على دست الخلافة عند وصول الخبر بوفاة ابي جعفر^(٤). وقد كان لذلك يومٌ عظيم في الحضرة والاسلام كله. لان العقلاء من اهل السياسة كانوا يرون زوال الخلافة عن ولد العباس او تعذر مصيرها الى ولي العهد والمشايخ من آل هاشم حاضرون. فجزى الامر على خلاف المظنون بحيلة علمتهم من البرامكة اعزهم الله سرّاً لم ينكشف على الناس

(١) ابن خلكان ١٠٢*١ او اغاني ٢*٤٩ و٤٨ و١٤٨*٥ و١٢٨ والحصري ٢*١٦٢

(٢) اغاني ٤*١٠٠ (٣) ابن خلكان ١*٢٨٠ (٤) ابن الاثير ٦*١٢

الى هذا اليوم . وذلك لما اودى ابو جعفر كتم الربيع موته^(١) الى الصباح على من كان معه في الحج واستدعى عيسى بن علي عمه وعيسى بن موسى ولي العهد بعد ابنه وجماعة من القواد والامراء وتقدم عن امره اليهم ان يجددوا البيعة لابنه من غير ان يعلمم بوفاته . فلم يتجرأ احد على مخالفة امره ظناً بصدوره من السلطان ولو انهم علموا بوفاته ما تسارعوا الى تجديد هذه البيعة للمهدي . فلما اخذها الربيع منهم دخل الى موضع الخليفة ثم عاد اليهم مشقوق الجيب باكياً يعني وفاته . فأخذ رجال المهدي في تدبير الامر له وتوثيق البيعة وركبوا الى مكة وبايعوا الناس فيها^(٢) واهل الحمل والعقد فصارت الخلافة الى المهدي بهذه الحيلة التي تعاب^(٣) على الربيع من وجه الظلم وان كان فيها حق لدماء المسلمين

وكانت وفاة ابي جعفر في بئر ميمون مع السحر استخلون من ذي الحجة وهو قد احرم^(٤) بظاهر مكة ولذلك دفن مكشوف الرأس^(٥) دون احد من الخلفاء قبلة لان النبي صلى الله عليه وسلم منع المحرم من لبس القمص والعمائم والبرانس وغير ذلك^(٦) من انواع الخيط وحفر له اهله مائة حفرة بين الحجون وبئر ميمون^(٧)

(١) ابن الاثير وابن خلدون والطبري والمحصري ٢ * ١٥٢ (٢) ابن

الاثير ٦ * ٨ (٣) الفغري ٦ . ٢ وابن الاثير ٦ * ١٢ (٤) الخميس

٢ * ٢٢٩ (٥) ابو النداء ٢ * ٧ وابن الاثير ٦ * ٨ (٦) الزرقاني

٢ * ١٤٨ (٧) الخميس ٢ * ٢٢٩ والعقد الفريد ٢ * ٥٢

ليجئوا على الناس ثم دفنوه في غيرها . ووجه الربيع منارة^(١) الخادم
الى الحضرة بالبيعة^(٢) وأمره بالسرعة خوفاً من فتنة تحدث في الاسلام
فجاءها في احد عشر يوماً من مكة^(٣) وقد كنت في مجلس هرون
حين سمعت الصبيحة من مقاصير الحرم فاستعلمت عن الخبر فنبئت
ان ابا جعفر قد مات فاسرعت الى منازل البرامكة فأخبرني
حاجبهم ان المهدي قد نديهم اليه فنزلت الى السوق فلتقيت ابا
يوسف سهماً حامياً فابنت له ما في شوق النفس من شهود بيعة
الخلفاء فاشار عليّ بالبقاء معه الى قبيل الظهر وهو الوقت الذي
تؤخذ فيه على محضري من التواد والامراء والفقهاء واهل الحل
والعقد من العرب

فلما سرنا الى دور الخلافة رأينا الساحات غاصةً بجاهير الناس
فولجنا باب السور بين ازدحام يضيق الانفاس حتى أفضينا الى باب
القصر فجاورنا الحجاب الى المجلس الذي تقام فيه البيعة فاذا به قد
جمع^(٤) الامراء من بني العباس وجلة التواد والاعيان واهل
البيوتات الاميرية مثل البرامكة وآل المهلب وآل طاهرو آل قحطبة
وآل نوبخت وغيرهم من المقدمين في هذه الدولة . وكان المهدي
مستوياً على عرش مكلل بالذهب وعلى رأسه قبة تتدلى منها استار

(١) المسعودي ٢ * ١٩٤ (٢) ابن الاثير ٦ * ١٢ (٣) ابوالفداء

٢ * ٩ (٤) السيوهي

من الديباج^(١) وعلى يمينه ويساره غلامان قد اتخفا بالذهب ووقفنا
بمظلتين من الريش الاسود مرفوعين على رحمين مكسوين بسلاسل
من الذهب قدر صعت بالياقوت والزبرجد ودونهما بنو هاشم على
وسائد قد تُنبت لهم^(٢) ولباسهم خز اسود وكذلك كان لباس المهدي^(٣)
وكانت عليه الطرحة^(٤) وعلى كتفه بردة النبي التي كان استصحابها
ابوجعفر معه الى الحج وفي يده اليمنى القضيب وفي اليسرى خاتم الخلافة.
وكان على يمين العرش منبر مزخرف بانواع الزينة والجوهر والديباج
عليه كاتب المهدي في خلافة ابيه^(٥) ابو عبد الله معاوية بن عبد الله
الاشعري وهو مشهور بالبلاغة قرَّبه اليه ليكون عوناً في تدبير الملك
روزيه^(٦) في سياسة الدولة وكان سلامان الابرش واقفاً على بعض
مرقاة هذا المنبر^(٧) بالبيعة التي جاءت من مكة وفوقه يحيى بن خالد
بما اخذ من البيعة على امراء الحضرة واعيانها واكابر المسلمين الذين
لم يروا الا متابعة الناس بعد ان بايعت مكة والمدينة وبايع القواد
والامراء

وعادة الناس في مثل هذا الموقف انهم يبدأون الخليفة بتعزيته
في ابيه او من سلفه على الملك ثم يهتفون بجلوسه على تخت الخلافة.

(١) المسعودي ١ # ٢٢٤ (٢) اغاني ٤ # ١٢٣ (٣) السيوطي

(٤) الفهرست ٢١٥ (٥) المسعودي ٢ # ١٩٦ واغاني ٢ # ٤٦ والعقد النريد

٢ # ٥٢ (٦) السيوطي

فلما اخذوا في تعزية المهدي خلعوا فلانسهم ونبذوها وراء ظهورهم لان الخلفاء لا يُعزَّون بالعمائم^(١) ثم وقف ابو عبد الله لمبايعته فقال انا نبايع سيدنا ومولانا الامام المقترض الطاعة على جميع الانام ابا عبد الله محمد بن عبد الله المنصور على كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد امير المؤمنين وان لا خليفة سواه^(٢). ثم بايعه بنو هاشم وانشال عليه القواد والامراء يبايعونه فلم يكن يسبح الا دعاء له وتثويه باسم بني العباس

ثم ان يحيى بن خالد تناول منشورا كان الربيع قد كتبه عن لسان ابي جعفر وتلاه في مكة^(٣) استنباضا للناس الى مبايعة المهدي. فتلاه يحيى على مسمع من الحاضرين وفيه يقول بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المنصور امير المؤمنين الى من خلف من بني هاشم وشيعته في خراسان وعامة المسلمين. اما بعد فاني كتبت كتابي هذا وانا حي في آخر يوم من ايام الدنيا وأول يوم من ايام الآخرة اقرأ عليكم السلام وأسأل الله ان لا يفتنكم بعدي ولا يلبسكم شيئا ولا يذيق بعضكم بأس بعض وأوصيكم بحمد ولي عهدكم واذكركم البيعة له واستنفضكم للوفاء بعهد واجتماع كلمتكم عليه فانما قوتكم تكون بالاجتماع الى ربه وقد اوصيته بكم والرافة عليكم والاحسان الى

(١) اغاني ٩ # ٩٧ (٢) العيوطي (٣) ابن الاثير ٦ # ١٢

المسلمين والسلام^(١). فترفرق الدمع في عيني المهدي^(٢) ولم يتمكن من
اطالة الخطبة التي يقولها الخلفاء عند ما يتولون الخلافة لما هو به من
الحزن الشامل فصرف الامراء وهم يدعون له بالسلامة

سياسة المهدي بالرفقة والحلم

ولما كان المساء وقع في المدينة زينة حافلة فصرفت العناية الى
تزيين مشرع الزوايا^(٣) بالانوار لقربه من موضعي ليكون في ذلك
خروج عن الملامة ورفع لاسنة الوشاة عن السعاية بي الى السلطان.
وامتلات الزوراء بعد ذلك من ارباب الملاهي وما يعرضون من
صور الطين التي يصنعونها للعب الصبيان في المواسم والاعیاد^(٤)
فرايت اقبال العامة^(٥) من العرب عليهم كاقبال عامتنا على
المشعوذين^(٦). ورايت جماعة من اعيانهم وقوفاً الى رجل بين يديه
شاة يوم انه بخرها ثم يلمصق اليها رأسها فتعود فوراً الى الحياة^(٧) وله
بذلك حركات خفية لا يتنبه لها الناظر فيحسبها من السحر وليست
كذلك فلقد جلست في هرمز الى مشعوذين يزعمون انهم اخذوا
السحر عن الكلدان وقوم هاروت وماروت من كتب لا توجد عند
غيرهم من الناس فلما وقفت على اعمالهم وسبرت غور صناعتهم وجدت

(١) ابن الاثير ٦ * ١٢ (٢) الامحاني ٨٨ (٣) ابن خلكان ١ * ٤٦٤

(٤) ابن خلكان والغزالي في كتابه احياء علوم الدين (٥) المسعودي ٢ *

٥٨ (٦) المسعودي (٧) المسعودي

ذلك علماً بمهارة لا ملكة نفسانية يقتدرون بها على اعمال غريبة مثل هذه^(١) والأفان السحر لا يكون إلا بالتوجه الى الشياطين بانواع التعظيم والعبادة^(٢) وان الوجهة لغير الله تعالى كفرٌ ولذلك كان السحر من هذا الوجه كفرًا يستغوي الخلق بالأضاليل وكان صاحب الكفر مقتولاً كما ينص عليه الشرع الشريف

ولما تحول المهدي الى دور الخلافة كما جرت العادة^(٣) عند جلوس الخلفاء^(٤) صنع طعاماً لبني هاشم وسائر قريش وفضل الملوك قاطبة بسعة النفقات^(٥) حتى أنه كان يطعم الناس الطير وخبز السميد وكان يجمل معه بدر الدراهم والدنانير في ركوبه فلا يتعرض له احد في مسيره إلا اعطاه^(٦). ومجمل القول ان هباته كانت غير محصورة^(٧) حتى ان خازنه خاف نفاق المال^(٨) اذا استمر على هذا العطاء ولا سيما بعد ان نقص دخل الدولة برفع المون والكسور وهو الامر الذي كان يفاوضني به كثيراً في خلافة ابيه فان الناس في صدر الاسلام كانوا يؤدون ما في ايديهم للخراج من دراهم ودنانير مضروبة على وزن كسرى وقيصر لا يفرقون في الاوزان فلما ساد فيهم العمران وأفسدهم النجار والصيارفة صاروا يؤدون الدينار الطبري الذي

(١) ابن عابدين ١ * ٤٦ (٢) المقدمة ٤٢٥ (٣) ابوالفداء ٢ * ٢٠

(٤) السبوطي (٥) اغاني ٢ * ١٤ (٦) المسعودي ٢ * ١٠١

(٧) الخميس ٢ * ٢٢٠ (٨) المسعودي ٢ * ١٩٦

هو أربعة دوايق ويمسكون الوافي الذي هو متقال فلما أمر زياد
على العراق صار يطلب الوافي ثم أمر الحجاج فكان يطلبه كذلك .
فلما ولي أبو جعفر أزال الخراج عن المحنطة والحبوب وصبره على
اهل الفلاحة مقاسمة كما ذكرت لك قبل اليوم من غير ان يسقط
عنهم الكسور . فلما ولي المهدي قال معاذ الله ان الزم الناس ظلمًا
في ذلك . فقيل له ولكن ان اسقط امير المؤمنين هذا ذهب من
امواله في السنة اثنا عشر الف الف درهم^(١) فقال علي ان اقرر حقًا
وأزيل ظلمًا فما العدل الا موقفًا للجباية وما الجور الا اذن بخراب
الامصار

هذا احسن ما وجدته في المهدي اصلحه الله باخذه الامّة بالحلم
والنؤدة^(٢) وهو اثر محمود تعود فائدته على الدولة بالثروة والعمران
لان الدول التي تحمل اهل الفلاحة فوق طاقتهم ثقلًا وتلزمهم في
ضياعهم خراجًا لا يفي به دخلها ثم يشكون اليها عجزهم عن تادية
ضرائبها وهي لا تنظر الى شكايتهم بعين الرعاية فهذه دول يؤول
امرها الى الانحلال^(٣) لانها تكون على سوء ظن من رعاياها كما انهم
يكونون على سوء ظنة فيها ايضًا وهذا موقف لا بد ان يفضي الى
سوء العاقبة والافتراض ويكون منه ويل وشور لارباب هذه الدول

(١) الماوردي ١٢٧ (٢) العقد الفريد ١ * ١٢ (٣) نهج البلاغة (في

وصية علي عم)

لانهم وان اصابوا في بدء الامر كثيراً من المال الذي لا يستحق لهم
الأعلى وجه الطمع إلا أنهم لا يتمكنون من دوام نواله لانجلاء الناس
عن مواطنهم بعد ان يطسبها الظلم فتقل جبايتهم وينفرط نظام ملكهم
ثم لا يجدون في امتهم إلا عدواً يلتمس الخروج عن طاعتهم ولو على
بذل النفوس

وكانت وفود البلدان ترد على المهدي من الاقاليم الاسلامية
الاقرب فالاقرب لتمنيته بالخلافة^(١). فاجتمع ببابه كثير من اشراف
العرب وملوك الاقاليم وامراء الجند وكانوا يتبركون به ويتوسمون
فيه الخير^(٢) لانه رأى فيه عدولاً عن سيرة ابيه من الظلم والجبروت
وانما كان لهم محسناً اليهم^(٣) متفقداً لامورهم يسوق اليهم الحجيل
ويستميل اكابرهم اليه لادخال محبته في قلوبهم فاتخذ لهم من هذا
الوجه مجلساً ارد المظالم^(٤) ينظر في تعدي الولاة على الرعية^(٥)
والبحث عن جورهم فيما يجبونه من الاموال وينظر في امور كتاب
الدواوين وما يتخلل اعلمهم من التزوير^(٦) وفي تظلم المسترزقة من
الجند من نقص ارزاقهم او تاخرها عنهم . وفي مشاركة الوقوف .
ورد المغصوب الى اصحاب الحقوق . وتنفيذ ما وقف من احكام

(١) ابن الاثير والاغاني ٦ * ١٤٦ و ١٩٥ والمستطرف ١ * ٥٩ والعقد الفريد

٢ * ٤٢ والمسعودي ٢ * ٧٣ (٢) اغاني ٢ * ٩٤ (٣) الخميس ٢ * ١

٢٢ (٤) السيوطي (٥) ابن الاثير ٦ * ١٥ (٦) الماوردني ١٢٧

القضاة لضعفهم عن انفاذه وعجزهم عن المحكوم عليه لقوة يده وعلو خطره . وينظر في امر كل ما عجز الناظرون عن امره . وياخذ في مراعاة العبادات الظاهرة كالاعباد والمحج والجهاد من تقصير يقع فيها او اخلال يطرأ عليها^(١) . الى امور غيرها تتسع في كثرتها فيضيق عنها نظر القضاة^(٢)

وقد حصل في نفوس الناس سرور عظيم من قيام هذا الديوان وانطلق لسانهم بالدعاء للمهدي بعدما اصابهم من الضيم في خلافة ابيه فوجد فيهم ما كان يلتمسه من محبتهم له ورأى ان يجلس بنفسه للمظالم^(٣) لتتم بذلك الفائدة المقصودة من زجر المتعدي من الخصمين وقمع الظالمين من الولاة وامضاء ما يعجز القضاة عن امضاءه في البيئات والتقرير واعتماد الامارات والقرائن وتأخير الحكم الى استجلاء الحق وحمل المتنازعين على الصلح الى غير ذلك^(٤) مما يحتاج الى علو يد وشدة هباته من خاصة وعامة

خلع عيسى بن موسى عن ولاية العهد

وانقد وجدت للمهدي في استمالة الصدور اليه غايتين تصبو اليهما نفسه ولا يهدأ له بال الا بقضاءها على الوجه الذي يرومه من

(١) الماوردي ١٤٠ (٢) المقدمة ١٩٢ (٣) ابو الفداء ٢ * ١١ وابن

الاثير ٦ * ٢٩ و ابو الفرج والسيوطي والخزرجي ٢١٢ (٤) المقدمة ١٩٢

من اذلال العلويين الى آمنه من تغلبهم عليه وجعل الخلافة في
 ولده من بعده منوعة على غيرهم من آل العباس . فاما امر العلويين
 فما كان يشتد عليه وقعه بعد ما رماهم ابو جعفر بالخسائر التي
 يحتاجون معها الى زمن يلمون به شعنتهم ويجمعون اليهم اطرافهم فكانما
 هو يقارعهم بسيف ابيه الى هذا اليوم . واما خلع عيسى عن ولاية
 العهد فانه كان يتعب منه البال وقد دخل عليه يحيى بن خالد
 اعزّه الله فاصابه في قلبه شديد وهو بعد مرة ويضطجع اخرى قال
 يحيى فعلت من ذلك انه يريد امرا عظيما فقال لي اجلس قريبا مني
 لاني اريدك لمشورة^(١) : ان النبي صلى الله عليه وسلم مات في غير
 وصية وترك الامر شورى بين المسلمين فالبث العرب ان اجعوا
 على ابي بكر ولكن بعد فتنه كادت تقع بين الانصار والمهاجرين
 لقولهم منا امير ومنكم امير ثم مات ابو بكر وصير الامر الى عمر على
 محض من الصحابة فلم ينازع فيه احد ثم عهدا عمر الى الستة نفر
 الذين قبض النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فاجمع رأي
 الامة على علي وعثمان وكان عبد الرحمن بن عوف يميل الى عثمان
 وفي وصية عمر الى المسلمين ان يتبعوا رأيه فبايعوا من احبه . فمكث
 عثمان في خلافته الى ان ثارت عليه الفتنة لاقصائه ولد ابي بكر
 واقباله على اقرابه من الامويين بالصلات وعهد المسلمين قريبا

بضبط^(١) ابي بكر وعمر فقتلوه وكانت تلك اول فتنة في الاسلام^(٢).
 ثم اجتمع العرب على علي^(٣) (عليه السلام) وكان الفرس يملون معه
 فاستوثق له الامر من العراق واليمن والحجاز وخراسان وفارس
 ومصر وافريقية الآشام لاستقواء^(٤) معاوية فيها. فلما قتله الخوارج
 وبويح ابنه الحسن صالح امير الامويين حقنا لدماء المسلمين ونزل له
 عن الامر فصارت الخلافة الى غير اهلها بما قد بلغك من الفتن^(٥)
 واخاف اليوم انها اذا صارت الى ابن عمي ذهبت من ولدي بلا
 رجوع ووقع من الفتن ما لا تؤمن غائلته على المسلمين فاشير علي^(٦) في
 هذا الامر الذي لا يتعاضده امر فانك بمجد الله مبارك الراي لطيف
 النظر^(٧)

قال مجي رعاه الله يا امير المؤمنين اني ارى النزلة في هذا الامر
 لا تستدرك والخطا فيه غير مأمون وان تكتب بالولاية لاولادك
 بعد ابن عمك كان ذلك اوكد في البيعة. فقال كت على هذا
 لولا التوجس من عيسى نكت اليهود وتصبير الخلافة في ولدك من
 بعده ولكني ارى ان اخلمه عن ولاية العهد واخذ بيعة المسلمين
 لموسى. فقال مجي على امير المؤمنين ان يعلم شيعة ومسان اهل بذلك
 ولم يتعمق في هذا البحث الى ابعد مما ذكره لان موقفه بين العلوية

(١) الفخري ١١٦ (٢) السهوتي (٣) الطائفات ١ * ٢٨ (٤) راجع

كتب التاريخ (٥) المسعودي ٢ * ٢١٥

والعباسية لمن اشد ما يكون من الصعوبة. وانه وان كان يأخذ في
تعظيم العباسيين لرسوخ دولتهم في المشرق الا ان له في حبه للعلميين
ما يرى عدوهم عن العراق الذي تزهق النفس دون الوصول اليه
وانما يلتبس لهم من المغرب احمأ ترسخ فيهم دولتهم الى ان يأتهم الله
بالفتح ويعيد لهم الخلافة التي صارت عنهم الى غير اهلها

ولما جمع المهدي شيعة واكابر دولته وافاض معهم بالحديث في
خلع ابن عمه عن البيعة وافقوه على ما تهواه نفسه^(١) وانتهى الى ان
يقول بعض من يستخدم الفقه في رضى الملوك ان ابا جعفر لم يكتب
لعيسى بالولاية الا لتبقى الخلافة في اهل بيته بعد المهدي فلما رزقه الله
اولاداً كانوا احق بها من اعمامهم وسائر اقاربهم. فكتب المهدي الى
الرحبة في اشخاص ابن عمه فلم يصل منه خبر فساءه ذلك وكنت
يوماً بحضرته فقال مجزئي تردد عيسى ولو طرفه عين ووالله لئن لم
يجني الى ان يتخلع عن الولاية لاوقعن به واستحلن منه بمعصيته ما
يستحل من اهل المعاصي وان اجابني عوَضته منها بما يستمتع به من
النعمة. ثم وجه اليوروح بن حاتم من تحت الليل حتى لا ينتشر الخبر
في الحضرة فجاءه منه ان عيسى متحصن بالرحبة لا ينال بالحيلة ولا
بالملاينة. فعد المهدي الى المكيدة في ذلك وارسل الجند على هذا
الوجه مأموراً بان لا يأخذوا بالقتال فلما سمع عيسى ضرب الدفوف

سحراً ثم رأى سواد الجيش ارتاع لذلك ولم يبقَ سبيلٌ إلى الاعتلال بالشكوى فسلم نفسه إلى أبي هريرة محمد بن فروغ قائد هذا الجيش فقدم به على المهدي فاكرم وفادته وانزله في قصر محمد بن سليمان^(١) من الجانب الشرقي ولم يزل به في انواع الحيلة والملاطفة والوعد بالمال الكثير^(٢) إلى ان اجابه إلى الانخلاع بعد ما لحقه من الضيم الذي ينطق بظلم العباسيين وتطاولهم في امر الخلافة^(٣) التي هي اعظم امر في الاسلام

ولما تصرف المهدي في خلع عيسى عن الولاية قام عليه المخالفون له في ذلك^(٤) ونقصوا عليه مؤاترة الولد على من هو احقّ بخلافة المسلمين فحصل في نفسه منهم خوف شديد ولم يبرم مقاومتهم بالقتل وفيهم كثير من اهل السيف لئلا تثير الفتن في الأمة فتعود عليه بغير المراد وإنما رجع إلى من يلوذ به من العلماء وأمرهم بتصنيف الكتب في الرد عليهم^(٥) وقد يفعل القلم ما لا تفعله السيوف القاطعة. ثم انه اخذ في إصلاح الزوراء والنظر في حسن السيرة الظاهرة من اهلها بابعادهم عن الفسق واكراه عزابهم إلى الزواج^(٦) والاحسان إلى المتعنفين من الشبان مما جرى له قبل وقال بين الناس على

(١) ابن الاثير ٦ * ١٦ (٢) الخميس ٢ * ٢٢٠ (٣) العقد الفريد

٢ * ٢٢ (٤) ابن الاثير ٦ * ١٦ والسيوطي والفخري (٥) السيوطي

(٦) ابن الاثير ٦ * ١٤

نسبتهم ذلك منه الى غيرة به على النسوان^(١) وهم قد غفلوا عن الغاية التي يرونها من صلاح مدينته لموازنتها مع مكة حتى يعظم فيها امر الدين وتصبوا اليها افئدة المسلمين

ولما حتمت بغيبته بما اراد من البيعة لاولاده^(٢) بقي عليه ان ينظر في امر العلوية وقد كان منهم رفع الله قدرهم جماعة في السجون لم يطلتهم منها فبين اطلاقه عند ما ولي الخلافة^(٣) وانما ابقاهم مع الذين عندهم تبعه من دم او مال وهذا من شر ما يلاقيه اهل البيت من الذين ورثوا جددهم واباهم صلى الله عليه وسلم . ثم لم يكن ذلك ظلماً لهم وعبثاً مجتوفهم حتى انه تعدد الاضرار بهم على وجه خاص بانه استعمال اليه جماعة من شيعتهم ليطلعوه على ما يسرون وفيهم رجل من بني سليم يقال له يعقوب بن داود طوق اليه الوزارة ومكنته من مفاتيح بيوت المال^(٤) ليطلعته على امر العلويين ويعلمه بمكان الحسن بن ابراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسن رضي الله عنه بعد خروجه من السرداب الذي حفره اصحابه الى محبسه^(٥) . ولكن يعقوب ذو عقل ورأي وفتوة لا يستبدل المال بغرضه غرضاً آخر فبقي ميلة مع اهل البيت والمهدي وابو عبد الله يظنان انه على خلاف ذلك^(٦)

(١) ابن الاثير ٦ * ١٥

(٢) اغاني ٧ * ١٤

(٣) اغاني ٢ * ٤١

(٤) والفخري والطبري

(٥) ابن الاثير ٦ * ١٤

اغاني ٢ * ٢٩

(٦) ابن الاثير ٦ * ١٤

ظهور المهديِّ بمناصرة العلم

وإني وإن كنتُ على غير غرضِ العباسيين في السياسة فإني أوقى المهديِّ حقَّهُ من الثناء على عنايته باهل العلم والادب^(١) وأخذه بيدهم إلى ما هو مدعاة لنجاحهم . فقد كان يتخذ لهم ولأرباب الصناعة والغايات إياماً^(٢) معلومة من السنة يعرضون فيها بضاعتهم من علم أو فنٍّ أو أدبٍ أو صناعةٍ ثم يجزيهم على ذلك بما هو واسع له من الكرم . وكان أقرب الأدباء إليه مكاتبا عبد الله بن مرزوق ندبة^(٣) يدعوهُ إلى مجالسته في أوقات الفراغ ولا يتجيب عنه احتجاب الخلفاء عن ندمانهم لانه^(٤) وجد لذة المناذمة ما لم يكن فيها سترٌ ولا حجاب . وكان يصل الشعراء بالمال الكثير ويأذن لهم بالدخول عليه في كل سنة^(٥) فقصدهُ ابن الخياط من مكة وابن المولى من البادية^(٦) وأشجع السلمي من الحجاز^(٧) وسلم الحاسر وبشار بن برد من البصرة وغيرهم كثير من الشعراء وقد حضرت مجلسهم عنده لأول خلافته وقد نال جائزته أبو العتاهية على قوله من قصيدة طويلة^(٨)

أنته الخلفة منقادة إليه تجرُّ أذيالها

(١) الاصحافي ٨٨ (٢) المنتظر ٢٧ * ١ (٣) المنتظر ١ * ٨٧

(٤) السبوطي (٥) اغاني ٩ * ٤٤ (٦) اغاني ٢ * ٨٨ (٧) ابن

خلكان ١ * ١٠١ (٨) الاغاني ٣ * ١٤٢ وابن خلكان ١ * ١٠١ والمونس

فلم تكُ تصلحُ إلاَّ له ولم يكُ يصلحُ إلاَّ لها
ولو رامها أحدٌ غيرُ لزلزلت الأرضُ زلزلاً
وان الخليفة من بغض لا إليه أيبغضُ من قالها
وهذا من الشعر الذي لم يدح بمثله أحدٌ من الملوك وكفى شاهداً على
جلالة موضعه من الحسن ان بشار (وقد كان جالساً في صفوف
الشعراء) لم يتالك ان يقول لمن حوله من المنشدين انظروا وبجكم
هل طار الخليفة عن فرشه ^(١)

وكان المهديّ يقدم عليهم سلم هذا الشاعر و مروان بن ابي
حفصة ويعطيها عطيةً واحدةً . فاما مروان فانه يلتمس الفصاحة
في كلامه تشبهاً بفحول المتقدمين ^(٢) . واما سلم فانه يودع ابياته المحبون
والخلاعة ^(٣) تقريباً بذلك الى المهديّ فوق في كلامها بون بعيد من
مذاهب العروض يأخذان بها على ماها عليه من تباين المشرب
فاما مروان فانه يخيلُ يرضُ بما له ^(٤) ويتجافى عن مجالس اللهم وحرصاً
على الزمان من انفاقه في غير سبيل العلم واما سلم فانه ظريف
المعشر سمع ببذل المال فيأتي الى دار المهديّ على برذون قيمته
عشرة آلاف درهم ولباسه الوشي ^(٥) والحز و يأتي مروان باثواب رثة
تكاد ان تكون اطاراً ويكتري الحمار بدرهم ^(٦) لا يخرج منه الا على

(١) ابن خلكان ١ * ١٠١ (٢) اغاني ٩ * ٤١ (٣) اغاني (٤) اغاني ٩ *

٢٩ والوطواط ٢٩٥ (٥) اغاني ٩ * ٢٩ (٦) اغاني ٦ * ٦٨ و ١٧ * ٨٦

عصب الرقيق بعد كثرة ما أصابه من المال^(١) في صلوات تجاوزت
خمسَةَ آلاف دينار في عطية واحدة^(٢)

وقد وجدت محاسن الشعر في مروان أجلّ منها في سلم ولكني
أعيبُ عليه المداهنة التي ينافس بها المحظوة لدى السلطان من
قدحه باهل البيت على غير حكمة وعقل وكأنه يجزم بما يراه عن
يقين لا ندحة فيه ولا مرجع إلا إليه كقولهِ في خلافة العباسيين
للنبي صلى الله عليه وسلم وبعد العلويين عن وراثته^(٣)

أني يكونُ وليسَ ذلكَ بكائنٍ لبني البنات وراثه الاعمام
وهذا مردودٌ من وجوه كثيرة لان الخلافة انما هي مصلحة دينية
لا وراثه دنيوية فحيث وجدت المصلحة الدينية فهناك تكون الخلافة.

ثم ان النبي صلى الله عليه وسلم صرح بان الحسن والحسين هما ذريته
فاذا وجدت الذرية لم يبقَ مدخل للاعمام في الوراثة اللهم الا اذا

رجعنا الى شريعة الجاهلية التي انتسخت بحجى الاسلام . وحنى لو
اخرينا عن ذلك كله لما وجدنا اصلح للاسلام^(٤) من ان تجتمع كلمة

على من لا يتصرف عن طاعته احد من المسلمين الى ردود كثيرة
ما انا من ذكرها الآن في شيء وانما اعود الى الحديث الذي اكتبه

اليك فاني شهدتُ بدار المهدي ايام الشعراء و ايام القصاص و ايام

(١) ابن خلكان ٢ * ١٢١ (٢) اغاني ٩ * ٤٤ (٣) اغاني ١٢ * ١٧

(٤) العقد الفريد ٢ * ٢٧

الندماء وإيام المغنين وإيام الرماة^(١) وإيام جري الخيل وهي مسبوقة
اليها من الخلفاء الأيوم السباق فانه لا يعلم عن احد منهم انه أجرى
الخيال بين يديه. وكان عند المهدي فرس كريم يقال له الغضبان^(٢)
وهو سباق الاضاميم فكان اول خيل الحلبة فلما قلده الشعراء لم
ينصرف بجائزتهم الا العماني وقد ارتجز

قد غضب الغضبان اذ جد الغضب وجاء بجي حسبا فوق الحسب
من ارث عباس بن عبد المطلب وجاءت الخيل به تشكو التعب
له عليهما ما لكم على العرب^(٣)

ولكن هذا من الامور التي تكفي مشاهدتها مرة واحدة. واما الذي
ترتاج اليه النفس على التماس الكثير منه في دور الخلفاء فهو مجلس
الغناء. وقد كان المهدي يضرب له ستارة مجلس المغنون وراءها في
صفوفهم لا يرون له وجهاً^(٤) الأفلح بن ابي العوراء سمعته يغني على
لحن النواقيس^(٥) الذي وضعه معبد وهو احب الالحان الى المهدي
فكان احسن المغنين شناء واعرفهم بنغمات الاصوات^(٦) وان لم يكن
اشجاءهم صوتاً لان احسان المغني هو ان يشبع الالحان ويملئ الانفاس
ويعدّل الاوزان وبنغم الالفاظ ويعرف الصواب ويقيم الاعراب
ويستوفي النغم الطوال ويحسن مقاطيع النغم القصار ويصيب

(١) الابشيبي ١ * ٢٧ (٢) اغاني ١٧ * ٨٢

(٣) اغاني ٤ * ٦٩ (٤) اغاني ٢ * ٩٧ (٥) اغاني ٤ * ٨٨

اجناس الايقاع^(١) فهو يحسنها كلها لجله الجليل من هذه الصناعة .
 وليس له فيها شريك الاموى للانصار يقال له عطر^(٢) وقد ادرك
 دولة الامويين واما ماسواهما من المغنين فان بصاعتهم مزجاة من هذه
 الصناعة بالموازنة مع الفرس المتفنين^(٣) غير ان تقصير العرب فيها
 لا يعيبه عليهم المتقدم البصير اذ ان الزمن الذي مضى بهم في صدر
 هذه الدولة كانت الحرب فيه سجلاً فصرفت الخلفاء عن النظر في
 اجازتهم على الغناء والتماس الاسباب التي تدعوهم الى الاجادة فيه .
 وحتى لو لم يكن هذا كافياً لإعذارهم لوجدنا ان نقل الغناء الى
 العربية^(٤) لم يحدث الا في خلافة معاوية وهو الزمن الذي اخذت
 فيه القبائل بسكنى الامصار وانقلب امر المسلمين من الخلافة الى
 الملك^(٥) لان الخلفاء الراشدين لم يقيموا ابهة الملك^(٦) ولم يتسع لهم على
 المسلمين سلطان دينوي^(٧) ينصرفون عنه الى طمع النفس والتماس
 النعيم من الدنيا^(٨) . وانما كانوا يلبسون الثياب المرقعة^(٩) ويتخذون
 في ارجلهم انعالاً من ليف^(١٠) ويمشون في الاسواق كبعض الرعية

- | | | |
|------------------------------------|------------------------------|---------------------------------|
| (١) الاغانى ١ * ١٢٦ | (٢) اغاني ٤ * ٩٩ | (٣) كتاب الاغانى |
| (٤) اغاني ٢ * ٨٦ والمسعودي ٢ * ٢٥٧ | (٥) السبوطي والفخري والمقدمة | |
| ١٧٨ | (٦) المقدمة والطواط ٢٦ | (٧) العقد الفريد ٢ * ١٥٨ |
| والطبقات ١ * ١٩ | (٨) المقدمة | (٩) المقدمة ١٨٥ والطبقات ١ * ١٩ |
| والعقد ٢ * ١٥٨ | (١٠) الفخري ٢٣ | |

راجلة^(١) وكان لباس ابي بكر الشيلة والعباءة^(٢) ولباس عمرجة^(٣)
 الصوف مرقعة بالاديم وركابته الابل^(٤). وكان علي عليه السلام
 يتجافى عن جمع المال^(٥) ويقول يا صفراء ويا بيضاء غري غيري^(٦).
 وكان مطعمهم ايضا على هذا الوجه ياتمسون به الغذاء على غير
 تائق فيه حتى ان المناخل كانت مفقودة عندهم فلا ياكلون الخنطة^(٧)
 الا بتخالها ولا يعرفون من الالوان الا اللحم يطبخونه بالماء والملح^(٨) وكان
 ابو موسى الاشعري يتجافى عن اكل الطير والدجاج^(٩). كذلك
 كان شأن المسلمين^(١٠) من البعد عن مطالب الترف في جميع
 احوالهم ولم يكن عندهم من الغناء الا الحدا^(١١) او ضرب من النصب
 ارق منه^(١٢). فلما ساد فيهم العمران واقبت عليهم اصوات الفرس
 نبع فيهم كثير من المغنين في دولة بني امية ثم فتت الفتن في دولة
 العباسيين فلم يكن لهم مجلس في دور الخلفاء الى هذا الزمان



ولوع المهدي بمزاولة الصيد

وكان المهدي اصلحه الله جامعاً الى خلافة الاسلام ابيه الملك

(١) الفري ٨٩ (٢) المسعودي ١ * ٢١٧ (٣) المسعودي ١ * ٢٢٠

(٤) المقدمة ١٧٨ (٥) الطرطوشي ١٢٤ (٦) المقدمة ١٧٨

(٧) المستطرف ١ * ١١٤ (٨) المقدمة ١٧٨ (٩) المقدمة ١٧٧ وغيره

(١٠) الوطواط ٢٩٥ والمسعودي ٢ * ٢٥٧ (١١) الفيروزبادي

وها امران لم يجتمعا في خليفة غيره إلا أنه كان الى نعيم الدنيا اقرب منه الى الزهد فيها والرغبة عنها . ورأيت ولوعه بمباهاة الملوك ومنتزعاتهم مقصوراً على طلب الصيد^(١) . وليس ذلك من المنتزعات التي تعاب على ولاة الامر الا متى فرطوا فيها وكانوا به اقرب الى البطر منهم الى النزهة والرياضة كما نعلم عن صبية الامويين الذين اجلوا اهل الزراعة من حولهم^(٢) لتخطيهم زرعهم في طلب الصيد^(٣) . وهذا بعيد عن ان يكون في المهدي وإنما هو على ولوع به^(٤) دون تفريط ينتهي به الى الأشر ويشغله عن امر الرعية فلقد رأيت من الامراء من يتأنق أكثر منه في اتخاذ العدة المكافئة له الى ان يصيغ اتصال سهامه من الذهب كما ورد عنه في كلام الشعراء^(٥)

ومن جوده يري العداة باسهم من الذهب الا يري صبغت نصالها

لينتفها الجروح عند انقطاعه وبشري الاكفان منها قتلها

وهذه مباهاة لا ينظر اليها المهدي في مزاوله القنص وإنما همه فيها

مقصور على اتخاذ الصقور وتربية الكلاب التي تسبق الظلم في

عدوها يلبسها اطواقاً من ذهب^(٦) ويهب لكل كلب عبداً يخدمه

كما يفعل كثير من اهل النعيم^(٧) في تربيتها للتخريض على الصيد^(٨) .

اذ كان لا ينهى الشرع عن اتخاذ الكلاب الا ما كان لغير الصيد

(١) ابن الاثير ٦ * ٢٠ (٢) القزويني ١٦ واتبدي ٨١ والمعمودي ٢ *

١٨١ والمقدمة ١٨ (٣) الاسحقاني ٨٦ (٤) اغاني ٢ * ١٥ (٥)

اتبدي (٦) الفخري ٦٧ (٧) اغاني ٦ * ٧١ (٨) كليات ابي البقاء ١٠٩

والحراسة^(١) . واما البيزان والصقور^(٢) فانه لم يسبق الى اتخاذها بل كانت معروفة عند العرب منذ ملوك كندة وقد وقف احدهم يقانص بالحباله فانقضَّ بازيُّ وحل عصفوراً وعلق وايه في الحباله فاخذهُ الملك واتى به وهو يأكل العصفور ورماه في كسر البيت فراه قد دجن ولم يبرح مكانه واذا رمى اليه طعاما آكله واذا رأى طيراً طار اليه^(٣) فاتخذهُ في عدة الصيد وطلب به الطير وصار العرب يؤدبونه لذلك^(٤) ثم يؤدبون العقبان ايضاً لقولهم انها تعمل عملاً لا يدركه اكثر الصقور^(٥)

وقد ركب المهدي يوماً الى الصيد وكنث بخدمته مع الامير علي بن سليمان ابن عم ابيه وابي دلالة الشاعر^(٦) . وكان خروجه من دور الخلافة لآخر الليل وعلى الافق شفق مستطيل وكان يحوطة فرسان من حرس الخليفة متنكبون قسيهم متقلدون سيوفهم يتبعهم قطعة من الجنود وطائفة من الغلمان قد حملوا المونة على الخزائن الخفيفة^(٧) وبينهم عدد من الوصفاء في اخف كسوة واهمى لباس . وكان مسيره محاذياً للنهر في العدو الشرقية ارياداً للخصه التي تمنع اليها الطيور وتسرح فيها المهي والغزلان . فلما طلع النهار تخللنا ارضاً

(١) الزرقاني ٢ * ١٢٠ (٢) المسعودي ١ * ٦١ (٣) المسعودي ١ *

٩٢ (٤) اغاني ٧ * ١٤٥ (٥) الدميري ٢ * ١٥٢ (٦) ابن خلكان

١ * ٢٧٠ (٧) ابن الاثير ٦ * ٢٠

يانعة الزرع ناضرة الخمائل فوقف الى غدیر ورمى ياماً على شجرة
ودرارح طارت من سواد الخضره وذلك من أحب الطير اليه. فلم
اجد فيه من محاسن الصيد الا الخفة والنشاط^(١) وكذلك الظن في
الملوك والعظماء يزاولون الفتنى لنزهتهم ورياضتهم على غير خبرة
بالرمية الا قليلاً^(٢)

ثم انه تقدم الى الجندان يضربوا حلقة في ارض مطيئة ممرعة ثم
يضيقونها رويداً رويداً الى ان يؤخذ الصيد بين جموعهم من كل
جهة^(٣). فلما فعلوا ذلك وقع في حلقهم غزال وتواقعت عليه الكلاب
قال المهدي وابن عمه عليه ورشقاؤه بالسهم فأصابه سهم في صدره
وأصاب السهم الآخر بعض الكلاب فصرعه. فلما جلسا للاستراحة
حمل اليهما هذا الغزال وأخرج من عنقه سهم الخليفة فقال ابو دلامة
على سبيل المزاح^(٤)

قدرى المهدي ظيماً شك بالسهم فؤاده

وعلي بن سليمان رى كلباً فصاده

فهنيئاً لها كل أمره يأكل زاده

وقد اتفق للمهدي^(٥) في ذلك اليوم نادرة ايس اطرف منها فيما

(١) المسعودي ٢ * ١٩٥ (٢) ابن عون (٣) الفخري ٦٥ (٤) الاغانى

٦ * ٤٧ والشريشي ٢ * ٢٦١ والعقد الفريد ٢ * ٤٤٥ (٥) المسعودي

٢ * ١٩٥ والفخري ٢١٢ وابن الاثير ٢ * ٢٠ والشريشي ٢ * ٢٥٧

يتفق للملوك من النوادر. وذلك أنه أخذته السماء وهو منتطح عن
العسكر فأركض فرسه ملء فروجه حتى لا يلبده ضرب الظل
فانتهى الى بيت أعرابي ملاح^(١) فبادر الى نزع ثيابه المبتلة وجلس
بجانب النار الموقودة ثم قال يا اخا العرب هل من قرى قال
عندي فضلة نبيذ في ركوة فقال له هات اسقني ايها الشيخ فشرب
قعباً وسقاه فلما شرب قال له يا اخا العرب أتدري من أنا قال لا
والله قال أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة قال له بارك الله في
موضعك وخولك من الشرف الرفيع ما أنت أهله ثم شرب قدحاً
وسقاه. فلما شرب قال يا أعرابي أتدري من أنا قال زعمت أنك من
خدم أمير المؤمنين قال لا بل أنا من قواد أمير المؤمنين قال رحبت
بلادك وطاب مرادك ثم شرب قعباً وسقاه فلما شرب قال له يا أعرابي
أتدري من أنا قال نعم ذكرت أنك من قواد أمير المؤمنين قال
فلمست كذلك قال فمن أنت قال أنا أمير المؤمنين. فأخذ الأعرابي
الركوة وأوكأها فقال له مالك يا شيخ فقال والله لا تشرب منها قال
فلم قال ما آمن أن استيك القعب الرابع فتزعم أنك رسول الله.
فضحك المهدي حتى استلقى وأقبل الجند عليه ونزل الإشراف
إليه^(٢) فطار قلب الأعرابي من الخوف فقال له لا بأس عليك

(١) اغاني ٢ * ١٥٠ (-) الانليدي ٨٦ والاشبهي ٢ * ٢٠٦ والمسعودي

ولا خوف ثم امر له بمال وكسوة وما صبر إلا أن رجع إلى الحضرة
بعد أن سماح ناله من العدو السريع ونزول المطر وهبوب الريح
الباردة

في تمة أخبار المهدي

ولما استوثق للمهدي أمر العراق رأى أن يستميل أهل الحرمين
اليه فركب إلى الحج في كثير من عظماء دولته. واستخلف^(١) في الحضرة
موسى ابنه ويزيد بن منصور الحميري خاله^(٢) واستصحب معه
هرون من أولاده ويعقوب بن داود وزيره وجماعة من أقاربه
المقربين. وحمل معه ثلاثين ألف درهم ومئة وخمسين ألف
ثوب^(٣) ليفرقها في أهل الحرمين وكان يعزم بعد الوصول إلى مكة
أن ينكب بالحسن بن إبراهيم بن عبد الله الذي قدمت لك ذكره.
فتقرب يعقوب بالشفاعة إليه والحيلة المباركة عليه حتى نال رضاه
عنه وأطلق له الأمان^(٤) الذي كان مقبوضاً عنه وعن أهل بيته في
خلافة أبي جعفر

ولما قضى المهدي حجة نزع كسوة الكعبة وطلّى جدرانها
بالمسك والعنبر وكساها كسوة جديدة^(٥) من الحرير لأنه كان

(١) ابن الأثير ٦ * ١٨ (٢) اغاني ٢ * ٢٠ (٣) الخميس ٢ * ٢٣٠

(٤) ابن الأثير ٦ * ١٨ (٥) الخميس ٢ * ٢٣٠ والانس الجليل ١ * ٢٤٥

يخاف عليها ان تهدم لكثرة ما عليها من الديبايح الثخين الذي كساها
 هشام بن عبد الملك ثم امر بانشاء رواقات المسجد الحرام وحمل لها
 الاعمدة الرخام من الحجر^(١) واتم بناءها على عناية يلتمس بها استعماله
 الائمة واهل الحرمين اليه بما اولاهم من الاحسان ووالاه من المادب
 التي كان يندبهم اليها ويفرغ وسعة في زينتها وزخرفتها المدلالة على
 عظم ملكه واقتداره على ما لم يسبق اليه احد من الخلفاء حتى انه
 سقاهم الماء مبرداً^(٢) بالثلج المحمول من الشام وكان الذي حمله الى
 مكة محمد بن سليمان الهاشمي^(٣) الذي قدمت ذكره في الكلام على
 البصرة وهذا من الامور التي توسع اهل البادية تعجباً من اقتدار
 الملوك على الغريب . ثم انه رد عليهم الوظائف التي قبضت عنهم
 في خلافة ابيه وفرق فيهم غير ما حمله من المال ثلاثمئة الف دينار
 حبلت اليه من مصر ومائتي الف دينار من اليمن^(٤) وغير ذلك
 مما جاءه من الجهات فبلغ المنفوق في هذا الحج على كسوة الكعبة وصلة
 الناس وبناء القصور بطريق مكة واتخاذ المصانع في كل منهل منها
 وتجديد الاميال والبرك وحفر الركايا وغير ذلك^(٥) نحواً من ستة
 آلاف الف دينار . واصطفى لنفسه من الانصار خمسمئة نفر اجري

(١) النخيس ٢ * ٢٢٠ (٢) السبوطي والنخيس ٢ * ٢٢٠ وابو الفداء

٢ * ١ (٣) ابن الاثير ٦ * ١٨ (٤) ابن الاثير ٦ * ١٨ (٥) ابن

الاثير ٦ * ٢٠ وابو الفداء ٢ * ١

عليهم الارزاق واتخذهم لمراتب السيف في العراق^(١) كأنه يعارض اباؤه
في تقديم الموالي على الاعراب وافترق ان كانت هذه السنة سنة رخصي
وخصب بعد جهد اصاب الناس في العام لما دهمهم الوباء
الجارف^(٢) فاحبوا المهدي وتبركوا به وقالوا هذا هو المهدي ابن عم
رسول الله وسميه^(٣)

وكان المهدي قد وجد بجواره في البلاد اخنلالاً لا يؤمن معه
من الفساد فلما عاد الى الحضرة صرف همه الى النظر في امور العمال
ورتب اناساً يؤدون اليهم رسائله ليسد عليهم باب الادعاء
بفقدانها وسأهم الامناء^(٤) ووجههم في كافة الاقطار وطوق امرهم الى
وزيره يعقوب^(٥) فكان لا ينفذ كتاباً الى عامل فيجوز حتى يكتب
يعقوب الى بعض الامناء بانفاذ ذلك . ثم نظر في امر الرعية فوضع
لهم ديوان الازمة^(٦) واقام على الشرطة من تبين فيه حسن النظر
بامور المسلمين فاستوثق له الملك من الوجه الذي يرومه من
استمالتهم اليه بحيث يرضون به ولا يعدلون عنه الى استخلاف اهل
البيت

الآن تواترت عليه في هذه الايام والدهرلة صاف رسائل من
ابي عون عبد الملك عامل خراسان يشكو فيها ضعف جنده واعتلال

(١) ابن الاثير ٦ * ١٨ (٢) ابن الاثير ٦ * ١٢ (٣) الاغانى ٢ * ٢٤

(٤) ابن الاثير ٦ * ٢٠ (٥) الطبري (٦) ابن الاثير ٦ * ٢١

دولته وتغلب رجل اعور من مرو قد ادعى الربوبية^(١) واستغوى الخلق^(٢) وقام له في الصفد وبخارى انصار يتخذون البياض في شعارهم لمخالفة السواد. فاجس المهدي من فتنهم ما لا يأمن عاقبته عليه ثم سير اليهم جيشا يقوده معاذ بن مسلم واوعز اليه بان يلتزم الى الحرشي وهو امير الجيش في خراسان فلما كان على انتظار البشائر منه وصله من ابي عون ان قد وقع الخلاف بين الجيشين^(٣) فعزم على انفاذ رسول من لدنه ينظر في الامر ويصلح بين الاميرين. فوقع الخلاف بين وزيره يعقوب وابي عبد الله فيمن يطوقانه امر هذه الرسالة فرام يعقوب ان يقلد نبيها واحب ابو عبد الله ان يصيرها الى امير من آل قحطبة وكان الربيع وزير ابي جعفر راغبا في توجيهي بها ايضا لا حبا لي ولكنه وقعت نفرة^(٤) بينه وبين ابي عبد الله فاشتغل في معاكسته وبلوغ المكروه منه

ثم ان المهدي وقع راية على توجيهي الى مرو للنظر في امر هذا المتنع الاعور ولم يقيدني بالاجراء على ما صدرت به او امره وانما جعل لي التصرف فيما ارى حلة وعقده من امر الجيش لجمعهم الى رأي واحد اذ يكون خيرهم وصلاتهم المرجو ما لم تتقلب بهم الاغراض ولا سيما انه كان عليهم في خراسان عدوان يتفقان على هلاكهم وهما

(١) ابو الفداء ٢ * ١٠ (٢) ابن الاثير والحجيس ٢ * ٢٢٠ (٣) ابن

الاثير ٦ * ١٩ (٤) الفخري ٢١٦ وابن الاثير ٦ * ١٩

جماعة خارجي يقال له يوسف البرم^(١) وشيعة المقتنع هذا الاعور
الذين يدعون بالوهيته^(٢) ويؤثرون دعوته ولو بسفك دماءهم ولذلك
كانوا اشد من جماعة البرم خطراً على الدولة لان دعوتهم قائمة بامر
الدين فيقولون ان الله خلق آدم فتحوّل في صورته ثم في صورة نوح
ثم في صورة غيره من الانبياء حتى تحوّل في صورة هذا المقتنع بعد
ابي مسلم^(٣) وهم يسجدون له من جميع النواحي ويزعمون انه اراه في
السماء قرأ آخريرة المسافرون عن بعد شهرين ويستضيئون بنوره
والعباد بالله من سخافة العقل وعمآوة البصر

انما زعم هذا المقتنع ان الله تحوّل قبله في صورة ابي مسلم رحمة
الله ليستميل الناس اليه^(٤) ويجد منهم نفوساً راجعة الى غرضه وان
كان بعيداً عن اظهار دعوة اهل البيت . فكان استخدامة الدين
لتوال مناه من وجوه السياسة التي يرجوها ان تذاع عنده العجائب
والمعجزات بين العوام وهم بكانهم من الغفلة فيتسارعون الى الالتئام
اليه . وقد رأى ان عصر موسى كان مقدماً بالسحر فغلب السحرة وان
عصر عيسى كان مقدماً بالطب فغلب الاطباء وان عصر النبي
كان مقدماً بالبلاغة ففضل العرب فيها فرأى ان عصره مقدم
بالكيمياء فاراد ان يغلب الناس فيما يستنبطه من المركبات

(١) ابن الاثير ٦ * ١٦ (٢) الطبري

(٣) ابن الاثير ٦ * ١٤ (٤) ابن الاثير ٦ * ١٤ (٥) الخميس ٢ * ٢٢٠ و ابو الفداء ٢ * ١٠

الرسالة الخامسة

طرف من اخبار المهدي والهادي

ولما وصلت الى بغداد قصدتُ باب قتيه الاسلام في دار له
 يدرب ابي خلف^(١) من ناحية الكرخ لاهنته بالولاية على قضاء
 القضاة^(٢). فآلفتُ ابنة يوسف متصدراً في مجلس حافل بالادباء
 وكان الرشيد قد عرف موضعه من العلم ايضاً فولاهُ القضاء في محلة
 الكرخ^(٣) فلم يطل جلوسي اليه حتى اقبل القتيه وعليه مبطنة
 وطيلسان وقلنسوة^(٤) طويلة قد احاطها بعمامة سوداء دعتُه الحاجة
 من خدمة العباسيين الى اتخاذها على لون شعارهم^(٥) وهذا هو الزبي
 الذي يروم ان يكون مخصوصاً بالفقهاء^(٦) لتمييزهم عن سائر الناس
 فكان لملقانا موقفٌ يستبكي الحمام لفرط ما كان بنا من الاشواق
 وصرفتُ اليوم كله في حضرته اجاذبه اطراف الحديث وقد نبأني عن
 ماجريات القوم في المدة التي كنتُ منفصلاً بها عن دار السلام لان
 القضاة قد يرد عليهم من طرائف الاخبار^(٧) ما لا يرد على غيرهم من

(١) ابن خلكان ١ * ٢٠ (٢) العقد الفريد ٢ * ٥٤ (٣) ابن الاثير

٦ * ٤٢ (٤) المسعودي ٢ * ٢٢٧ (٥) اغاني ٦ * ٦٩ (٦) اغاني

٥ * ١٠٩ وابن خلكان ٢ * ٤٥ (٧) انليدي ٧٩

الناس مثله ولا سيما من كان بمنزلة هذا القبيح عند الخليفة حتى أنه
ليقوم له ويجلسه على سرير مجانيه^(١) ولا يقلد ببلاد العراق والشام
ومصر وخراسان إلا من أشار به إليه^(٢)

وقد ذكرت لك في رسالتي من خراسان ما اتصل بي من
اخبار المهدي والهادي فيما هو خاص بامور المسلمين. واما اخبارها
الخاصة فقد حدثني بها لسان الشريعة على اسهاب لا موضع له في
هذا الكتاب على ان المهدي رحمه الله ما برح مستمرًا الى انقضاء
خلافته على ما ذكرت لك من استمالة الناس اليه بالمال وقد
اقر رجاله على مراتبهم الا وزيره يعقوب من بني سليم وقد وضع له
ميلة مع اهل البيت^(٣) وتتابع المنسدون على السعاية به اليه ورفعا
اليه بيتين من الشعر اشروا على قولها بشار واطاروا الذكر بهما كل
مطار^(٤)

بني أمية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فائتمسوا خليفة الله بين الزق والعود
فنكبة لذلك والقاه في بئر عمي فيها^(٥) وهو يتوسد التراب الى ان
مات في خلافة الرشيد قبيل عودتي من خراسان

(١) انليدي ١٤١ (٢) الاسحافي ٩٠ (٣) ابن الاثير ٦* ٢٦

والمسعودي ٢* ١٩٦ والنخري ٢٢١ (٤) اغاني وابن خلدون وابن الاثير والنخري

وإبن خلكان والابشهي وابن نباتة والطبري وابو النداء (٥) النخري ٢٢١

وكانت مائة المهدي لآخر ايامه وضعة البريد^(١) ابلًا وبغلاً
 في كثير من البلاد وذلك مما انفق عليه اموالاً طائلةً ولا سيما فيما
 بين مكة والمدينة الى العراق^(٢) وهو اول من اقام البريد من الحجاز
 الى الحضر^(٣) بما يروم من تناول الاخبار ومناولة الرسائل على وجه
 السرعة اذ كان على تيقظ من العربان في مناصرتهم لاهل البيت
 بالمواطن الشريفة كما كان على حذر من اهل الشام في قيامهم دواماً
 على عماله والاستظهار عليهم من يجاورهم من العربان الذين ما
 كانوا بحكم العباسية راضين الا نفر قليل كانوا يحملون الضيم لمخالفة
 السواد الاعظم من قبائلهم ولذلك كان يرى المهدي امداد عماله
 بالرجال والعربان بالمال حيناً بعد حين حتى دعت الحال الى
 الشخوص بنفسه اليهم فنزل دمشق^(٤) وبيت المقدس^(٥) واخذ في ازالة
 الخلاف الذي كان واقعاً بينهم في بادية الشام بما فرّق فيهم من
 الاموال الجسام وهذه هي السياسة التي كان جارياً عليها اتمكين دولته
 فيمن لا يرون له وجهاً تحق له به الخلافة قبل اربابها من اهل البيت
 اما الهادي فانه نُسج على منوال ابيه وذهب بسيرته مذهبه. وقد
 كان رسم له بتبع الزنادقة^(٦) فامضى على ذلك وافتتح خلافته في

(١) ابن الاثير ٦ * ٢٦

(٢) ابو الفداء ٢ * ١٠ والكنز ٦

(٣) اغاني ٦ * ٦٧ والانس الجليل

(٤) السبوطي ٦٨ (٥) قضاة الشام

(٦) السبوطي ٢٥١ * ١

قتلهم^(١) ووكل بهم رجلاً يقال له عبد الجبار^(٢) وهو المعروف
بصاحب الزنادقة فمكّن السيف منهم وقتل الذين كانوا يكذبون
بالانبياء ويأتون صراحاً بالكفر ويعلمون الناس الكفر بالمخلفاء
وتيسون الدين والشرع بما لا يحلله كتاب الله . فما كان الزنادقة
الألغاز شرّ في عقيدتهم وان بدا للناس منهم ظاهر حسن^(٣) في
سيرتهم كما يشير ابن مناذر بقوله في مجي بن زياد وقد تمّهم بالزندقة^(٤)
لست بزنديقي ولكنّا اردت ان توسم بالظرف
واما باطنهم فنكران وطغيان فقل ان للمفتريين على الله خزياً في
هذه الحبوقة الدنيا وجهنم في الآخرة يصلونها وبئس المهاد
وقد كان اجتمع بباب الهادي كثير من الاشراف وصارت
المراتب الى المنتشئين من البرامكة والطاهريين والمهلبين ممن كنت
اعرفه صبيّاً قبل انزاحي الى هذه الرحلة التي امتدت بي سيراً وكان
على وزارته الربيع بن يونس حاجب ابي جعفر غفر الله له وعلى بيت
ماله المعلى بن طريف^(٥) وعلى حجابته الفضل بن الربيع وعلى ايمارة
الجند آل ابي العلاء وكانوا افضل من اتصل به من القواد وهم بمكانهم
من البأس المقرون بجودة الرأي . يقول بعض الشعراء في مدح عمر
من امراءهم المقدمين^(٦)

(١) ابن الاثير ٦ * ٢٢ (٢) اغاني ٢ * ٧٢

(٣) اغاني ١٧ * ٧٢ (٤) اغاني ٢ * ١٥٢

(٦) اغاني ٢ * ٤٦

إذا يقظتك حروبُ العدى فنبه لها عمراً ثم ثم
 فتى لا ينامُ على دمنية ولا يشربُ الماءَ إلا بدمٍ
 وكان الهادي ساجدةً لله يحبُّ اللهو ويكثر من مجالسة النساءِ
 حتى قُصِفَ عن من فرط التمتع بهنَّ ووُدلته في فناء سنه أولاد
 كثيرين وبينهم ولد اعمى فيما سمعت^(١) ولذلك كان الطامعون اليه
 من غير هؤلاء الامراء اكثرهم اهل هو وطرب وكان اقرب الناس
 اليه مكاناً ابرهيم الموصلي مغنّيه واحمد بن عقال^(٢) وابرهيم الحرّاني^(٣)
 جلساهُ . وكان ابرهيم هذا النديم قد نخرَج في الغناء على جوانوبه
 بالأبلة^(٤) ثم على سياط بعده في الزوراء فبلغ من الإجادة فيه المكان
 الذي لم يبلغه المغنون من اهل الحجاز ولذلك كان الهادي اليه
 أميل منه الى من سواه من الندماء يقال انه كان اذا استعطاهُ
 خمسين الف درهم اعطاهُ مئة الف^(٥) وقد قال لي اسحق والله لو
 عاش لنا الهادي لبنينا جيطان دورنا بالذهب^(٦)



جمال بغداد بالرشيد والبرامكة

ولما تجوّلتُ في المدينة وجدتها على اعظم ما كنتُ اعهد لها من

(١) العقد الفريد ٢ * ٥٤ (٢) اغاني ٢ * ١٥٢ (٣) ابن الاثير

٦ * ١٢٧ والنخري ٢٢٩ (٤) اغاني ٥ * ٤ (٥) الحصري ٢ * ٢٠١

(٦) اغاني ٥ * ٦

اتساع العمارة. فاكفى اهلها الموسرين ما رفعوا في مدينة المنصور من
المباني المشرقة حتى انهم توسعوا الى سكنى الجانب الشرقي المعروف
بالرصافة^(١) فبنوا فيه القصور الرفيعة والمنازل الراجعة المزخرفة
وغرسوا في جنبانهم الاشجار والرياحين التي يجري من تحتها الماء
واتخذوا لهم الاسواق والمرافق والحمامات والجوامع وتوجهت عناية
البرامكة الى اقامة المكاتب فيها والحلقات ومنازل الجند وماوى
المرضى ومجالس القضاة وغرف الشرطة وغير ذلك حتى اصبحت
الزوراء بجانبها كأنها البلد العتيق تجتمع محاسنه في جزء من محاسن
المدينة التي احدثت في جواره.

ولقد اكبرت من الزوراء بلوغ العمران فيها بما رأيت من
ازدحام الناس فيها وتوجههم كالبحر في ارجائها. يقال ان عددهم
يزيد عن الفى الف وخمسة الف^(٢) وهذا جمع لم يكن مثله
ولا قدر نصفه في مدينة من العالم قط فانما يدل اجتماع الناس الى
هذا القدر العظيم على أن ليس في المدن أمن ولا أيسر^(٣) من الموضع
الذي يتكوفون فيه تكوف الرمال. ثم اكبرت بلوغ النعيم من
اهلها بما رأيت من توفر ارباب الغايات عندهم من الفنون^(٤) التي
لا تقتصر الحاجة منها على ضرورة العمران وإنما تتوسع المنفعة من

(١) ابن الاثير ٦ * ١٥ وخلقان ٢ * ٢٤٢ وبقوم ٢٠٢ (٢) ابيدي

(٣) ابن الاثير ٦ * ١٦ واول اللداء ٢ * ١٩ (٤) باقوت ١ * ٦٨٥

صناعتهم ومصنوعاتها الى مطالب الترف الذي يقع في الامم عند
استئصال ملكهم فصارت بغداد بيضة الملك^(١) ومعدن الضرائب^(٢)
وزينة العالم بما نجد في اهلها من اتساع الحضارة عندهم وما نرى على
مبانيها من الاشراف^(٣) الذي تنزه عن المثل فكأنني بها قد محت ذكر
بابل في الحسن المشرق والجمال المونق

ولقد يتعذر عليّ بهذا القلم الذي لا مادة فيه ان اصف مفاخر
المدينة التي اقل ما تصيبه من الشرف انها تزهو بهاء السلطان
وتضم اليها عيون الاعيان الذين اذا لقي السائر منهم جماعة في
الطريق لم يفتن لهم من حيث الكثرة مع ان اقلهم في الثروة والجاه
يتعذر على اكبر المدن ان تلتفي سكناه وتسع جنده وغاشيته^(٤)
والطامعين اليه من كافة الوجوه. وهذا دليل على عظمة هذه المدينة
وبلوغ العمران منها فلقد يمشي اهل النعمة فيها بالغلان^(٥) والحاشية
الى عدد يتوهمة السامع بعيداً عن الصدق^(٦) فشاهدت في محلة
العتابية^(٧) اميراً قد ركب في مئة فارس وأحرق به الغلمان حتى ملأوا
الطريق وسدوا السبيل على الناس وكلمهم في ابي زبي واجل لباس
وشاهدت في مشرع التصب على دجلة^(٨) فتى من اولاد النعمة قد

(١) ابن خلكان ١ * * ٧٢٨ (٢) الفزوي (٣) الفتح بن خافان ٢٦

(٤) العقد ٢ * * ٤٢٢ (٥) اغاني ٥ * * ٨٤ و ٤ * * ١٠٤ والعقد (٦) ابن

الاثير ٥ * * ١٤١ و ٢٤١ (٧) ابن خلكان ١ * * ٧٤١ (٨) ابن خلكان

سار بموكبٍ عظيم^(١) من الخيل والرَّجُلِ كَأَنِّي بِهِ قِيسِرٌ عَلَى مَرْكَبِهِ أَوْ كَسْرِي فِي جَلَالِ مَوْكَبِهِ وَكُنْتُ أَشْهَدُ كَثِيرًا مِنَ الْأَمْرَاءِ الَّذِينَ إِذَا رَكِبُوا بِمَوَالِمِهِمْ وَأَهْلَ بَيْتِهِمْ ظَنَنْتُ أَنَّ الْجَنْدَ يَزْحَفُ فِي أَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ لَشِدَّةِ سَوَادِهِمْ

وَإِنَّمَا كَانَ مَصْدَرُ هَذَا التَّرَفِ مِنْ دَوْرِ الرَّشِيدِ حِينَ صَارَتْ إِلَيْهِ الْخِلَافَةُ وَهُوَ الَّذِي أَلْبَسَ الدُّنْيَا جَمَالًا بِمَلَكَهٍ لَمْ يَسْمَعْ عَنِ الْمُلُوكِ قَطُّ مَنْ كَانَ أَسْمَحَ مِنْهُ بِبَذْلِ الْمَالِ^(٢) لِأَنَّهُ بَلَغَ مِنَ الْأَسْرَافِ^(٣) إِلَى مَا لَمْ يَبْلُغُهُ الْأَكَاسِرَةُ وَلَا الْقِيَاصَةُ قَبْلَهُ فِي تَبْذِيرِهِمْ الْمَفْرُطِ^(٤) فَهُوَ يَنْفِقُ عَلَى طَعَامِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَشْرَةَ آلَافِ دَرَاهِمٍ^(٥) وَرَبَّمَا اتَّخَذَ الطَّبَاخُونَ لَهُ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ^(٦) أَخْبَرَنِي أَبُو يَوْسُفَ أَنَّهُ لَمَّا بَنَى بَزِيدَةُ بِنْتُ جَعْفَرٍ اتَّخَذَتْ وَلِيمَةً لَمْ يَتَّخِذْ مِثْلَهَا فِي الْإِسْلَامِ^(٧) وَجَعَلَ الْهَبَاتِ فِيهَا عَلَى النَّاسِ غَيْرَ مَحْصُورَةٍ حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يَهَبُ أَوْ أِنِّي الذَّهَبَ مِائَةً بِالْفِضَّةِ وَأَوْ أِنِّي الْفِضَّةَ مِائَةً بِالذَّهَبِ وَنَوَافِحَ الْمَسْكِ وَقَطْعَ الْعَنْبَرِ^(٨) وَبَلَغَ جَمَلَةُ الْمَنْفُوقِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ خَمْسَةَ وَخَمْسِينَ

(١) المستطرف ١ * ٦٥ (٢) الفخرى ٢٢٠ (٣) الخبىس ٢ * ٢٢١

(٤) وجدتُ في بعض الكتب أن المأمون اتخذ في قصوره ثلاثة آلاف وثمانمائة بساط منها ألف ومائتان مزركمة بالذهب واتخذ سبعين خصي منهم ثلاثمائة سود فان صحت الرواية فليس لذكر ترف النرس والروم موضع في جانب العظيم من

ترف العباسيين (٥) المسعودي ٢ * ٢٤٢ (٦) المستطرف ٢ * ٢٤١

(٧) العقد الفريد والسيوطي (٨) تزيين الاسواق ١١٧

الف درهم وأمر بزبيدة أن تُجلى في درعٍ من الدرّ لم يقدر أحدٌ على تقويمه بثمنٍ وغالى في تزبينها بالحلى حتى أنها ما قدرت على المشي لكثرة ما كان عليها من الجواهر^(١) وأمر بان يتخذ الطباخون من الوان الطعام والحلوى ما لم يقدر أحدٌ على احصائه فقبل ان الحطب الذي احرقوه حُمِل اليهم على خمسة بغلٍ^(٢). وهذا شيءٌ من الاسراف لم يسبق اليه اكايرة الفرس ولا قياصرة الروم ولا صبية الامويين مع ما نقلوا فيه من الاموال الجسام

ومن جمال دوره ان زبيدة زوجهُ تصنع اعمالاً يتباهى بها الملوك. فمن ذلك انها صنعت بساطاً من الدياتج على صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من ذهب واعينها من يواقيت وجواهر^(٣) وانفقت عليه نحواً من الف الف دينار واتخذت الآلة من الذهب المرصع بالجواهر وامرت بان يصنع لها الرفيع من الوشي حتى بلغ الثوب الذي اتخذها من الوشي خمسين الف دينار. واتخذت القباب من الفضة والابنوس والصندل وكلايتها من الذهب الملبس بالوشي والدياتج والسمور وانواع الحرير. واتخذت شمع العنبر وصنعت لها خفاً مرصعاً بالجواهر واتخذت الشاكرية من الخدم^(٤) يختلفون على الدواب في جهاتها ويذهبون في حوائجها

(١) الف ليلة وليلة * ٨٤ (٢) المقدمة ١٥١ (٣) المستطرف ١ *

ورسائلها وهذا من الاعمال التي تدوّن في سير الملوك تعظيماً لما
 يصبر اليهم من النعمة ويتقلبون فيه من الطيبات
 ولا يرى مثل هذا الترف في غير دور الخلافة الا في قصور
 البرامكة الأمجاد واليهم ينتهي جمال الملوك واشراقهم فاذا عزموا على
 الركوب جلس الناس لم حتى يروهم أكثر ما يجلسون للخلفاء ولقد
 رأيت بعض صبيتهم بباب محمول^(١) من الجانب الغربي^(٢) في موكب
 عظيم وقد طرز في ملبسه وبين يديه الجند والفرسان والحفد والاعوان
 والرقيق والغلمان وهو واضع طرفه على معرفة فرسه المجلل بالوشي
 والذهب والناس ينظرون اليه ويعجبون منه وهو لا يلتفت كثيراً
 وجلالة. وكان الرشيد نفسه اذا حضر مجالسهم وهو بين الآنية
 المرصعة والموائد من الجزع اليماني والمطارج من الدياج المطرز^(٣)
 والجواري يرفلن بالوشي والحبر ومجرقن الند والصندل والعود
 ويغنين له على ضرب العود ويستقبلنه بالروائح التي لا يدري ما هي
 لطيبها خيل له أنه في الجنة بين الجمال والجوهر والطيب
 وقد انتهى ترف شبابهم الى الغاية التي لا وراء بعدها من
 الاسراف. رأيتهم يتخذون الابر لجواربهم من الذهب ويصوغون
 المسامير التي يدقونها في مجالسهم لتعليق المناديل^(٤) من الذهب

(١) الانليدي

(٢) المسعودي ٢ * ٢٢٧

(٣) اغاني ٦ * ٧٨

(٤) ابن خلكان ١ * ٢١٤

ايضاً ويتخذون مواعيدهم من العرعر والذهب منزل فيها برسوم
 تحير الابصار والبصائر. ورأيت عند جعفر اعز الله ملكه دواة من
 ذهب غطاؤها لؤلؤة سنية لا تقوم بثمن. ووجدت مجالس الطرب
 عندهم أجل منها في دور الرشيد واجمع لمعدات اللهلان لم الغواني
 اللواني ليس مثلهن في البلاد ولا سيما فوز^(١) وفريدة^(٢) ومنة^(٣) وهن
 اشهر النساء غناء واحسنهن ضرباً بعود. وقد كان الغناء قبل
 البرامكة لا يعلم في دور الامراء الا للصفر والسود^(٤) فأحبوا ان
 يعلموه للقباني الحسن^(٥) ليزيد جمال صورتهن في حسن الغناء
 وتأثيره في النفوس فجمعوا^(٦) في منازلهم اكثر من مئة جارية يغنين
 احسن الغناء. واذا زارهم الرشيد في بعض ايام لهوه اخرجوهن له الى
 البستان فاصطفن امامه مثل العساكر على صفيين وغنين وضربن
 على العبدان وتقرن على الدفوف الى ان طلع الى مقاصير القصر
 فأحسبه في نفسي بحسدهم على انساع نعمتهم ولكن ليس له الا ان
 يصبر على ذلك لانهم يؤيدون دولته ويرفعون منار الاسلام
 باستئجال ملكهم الى هذه الغاية

ولقد رأيت قريباً من ترف البرامكة في جماعة من امراء العباسية
 من اقارب الخليفة يتخذون في حاشيتهم من الجوارى والغلمان ما

(١) اغاني ١٥ * ١٤١ (٢) اغاني ٢ * ١٨٢ (٣) اغاني ٤ * ٨٧

(٤) اغاني ٥ * ١٤ و ١٧ (٥) اغاني ١٥ * ١٤١

يقرب ان يكون مثل ذلك فقد بلغني عن بعض نساء بني هاشم انها
 عشقت المأمون من اولاد الرشيد فاستدعته اليها وقد اعلنة انه
 يصطاد عندها صيداً لم يصطد الملك مثله فادخلته في قصرها بستاناً
 زيتته بافخر الزينة واتخذت فيه الوان الطيور من القمري والفاخت
 والهزار والشحرور والطاووس وغيرها. وقد كانت زينت مئة جارية
 من الابكار وكهن من آيات الجمال والاشراق واتخذت في وسطهن
 مناطق من الذهب وأمرتهم انهن اذا رأينه تعادين بين الاشجار
 فلما دخل المأمون البستان ووقع عليهن نظره تخبان وراء الاشجار
 وتوارين في ظلال الكروم المعرشة فاعجبه ذلك منهن وعدا خلفهن
 نشيطاً فرحاً وكل ما اخذ جارية كانت حلالاً له^(١). فهذا غاية ما
 يكون من الانغماس في ملذات العيش ولا نعلم عن احد من الملوك
 السالفة انه نال من طيباتها ما يناله ملوكنا هذه الايام فكان بغداد
 قد التت جوانبها على مهاد الدعة وأوجدت لاهلها اسباب النعم
 بما توفر عندهم من المال

انغماس البغدادية في طيبات العيش

هذا هو شأن الترف عند عطاء الحضرة ثم يأخذ بالنقصان عند
 من هو اقل منهم في النجاه الى ان يبقى منه نصيب لعامة البغداديين. وهم

وان لم يكونوا بموضع الملوك من جلالة القدر واتساع النعمة غير انهم
 اخذوا في استنباط الوجوه الى المملكات بعد نقلهم في الاسفار التي
 اكسبتهم التجارب وارتمت العجائب^(١) وجلبت عليهم الاموال الجزيلة.
 فصار الناس يقصدونهم بالفخر ما لديهم من جميع الاجناس فعمرت
 عندهم الاسواق وراجت لديهم البضاعات وتوسعوا من التماس
 الحاجات لضرورة العمران الى اقتناء الاشياء للزينة والمباهاة كابتياح
 الخيل والسلاح^(٢) والاولياء والتمنافس في الجواهر الثمان وشراء الغلمان
 والخصيان واقتناء القيان^(٣) الحسان ليمتعوا انفسهم من طبيبات
 الزمان . وقد كانوا من قبل ان تقام هذه الاسواق عندهم يوجهون
 رسلهم^(٤) الى الآفاق في الطبيبات فلما وجدت عندهم ذلك ذلك
 على ان محاسن الدنيا قد اجتمعت في بغداد

ولقد شهدت سوق الجوارى بعيد عودتي من خراسان وقد
 اقيمت في سوق النخاسين^(٥) وهم الرجال الذين^(٦) يجلبونهم من
 اطراف الدنيا الى بغداد^(٧) . فرأيت فيهن الحبشيات^(٨) والروميات
 والمجرجيات والشركسيات والعزبيات^(٩) من مولدات المدينة

(١) فاكهة الخلفاء ١٤ (٢) ابن خلكان ١ * ٧١٤ (٣) اغاني والف

لبلة ولبلة (٤) اغاني ٧ * ٩٢ (٥) تزيين الاسواق ١ * ٢٠

(٦) اغاني ٩ * ١٢٨ (٧) الف لبلة ولبلة وانليدي ٢٢ (٨) الاحاقبي

١٢٣ (٩) انليدي ١٨٩

والطائف والجماعة ومصر ذوات الالسنه العذبة والحجواب المحاضر^(١)
 وكان بينهن كثير من الغانيات يعرفن بما عليهن من اللباس
 الفاخر الذي لا غاية بعده^(٢) وبما يتخذن من الجواهر^(٣) على
 العصائب التي يكتبن عليها مجروف الذهب كالأما يجلو لاهل
 الطرب فرأيت على بعض العصائب "من كان لنا كنانة"^(٤) ورأيت
 على بعضها

"قتلني في الحب يا ظالم والله فيما بيننا حاكم"^(٥)

ورأيت على عصابة جارية قد غلى عليها السوق في ذلك اليوم
 ليس حسن الخصاب زينا لكفي حسن كفي زين لكل خصاب^(٦)
 ولقد يخال العاقل لاول وهلة ان بيعهن انا هو جار عليهن من
 باب الظلم والاسترقاق غير انه لا يثبت في هذا الوهم بعد اذ يرى
 تطارحن على اهل النعم ودفع الخاسين الى بيعهن منهم وتغلبتهن
 اليهم وكثيرا ما كنت اسمع عن بعض الجوارى المترفات انهن
 يتخلصن من حيث لا يجبين المقام فيأتين السوق ويتوارين عن
 عيون الرقباء الى ان يقع سوقهن على غير مواليهن وهم بهن غير
 عالمين فيتصرف الخاسون ببيعهن مثل تصرف التجار ببضاعتهن واذا
 وقع سوق احداهن على رجل قبض بيده على يد الخاس كما هي

(١) اغاني ٢ * ١٧٥

(٢) اغاني ٥ * ١٢٦

(٣) انابدي ٢٨

(٤) العند ٢ * ٤٤٠

(٥) العند ٣ * ٤٢٩

(٦) الكثر ٤٧

العادة المألوفة في البيع والشراء^(١). ولقد وقفتُ بذلك اليوم والدلال
 ينادي بمن حوله من الشبان ويصف الجوّاري بما هنَّ من
 الاوصاف الحسنان وهم يسابقون الى مشتراهنَّ باغلى الاثمان^(٢)
 وكانت الضوضاء مرتفعةً والسوق قائمةً والرجال يتناشدون
 الاشعار^(٣) والعيون تتبادل الحديث وتنبئُ بما في الصدور
 ومأخذ فيه البغادة اطيب معيشتهم انهم يزبنون مجالسهم
 بالذهب ويلبسون حيطانها بالوشي ويعنون بغرس الزهور في
 جنانهم ويجلبون الرياحين^(٤) اليها من بلاد الهند^(٥) حتى يصير من هذه
 الجنان ما يقوم ثمن البستان الواحد بعشرة آلاف دينار^(٦). ويتخذون
 خولم ومواليهم من اطرف الغلمان واختم نشاطاً. ويميلون الى اللهو
 والطرب بما قد ذكرتُ من اقبالهم على اقتناء القيان. ويتفننون في
 الطعام الى ان يشتروا الصيد في غير اوانه والثمار في غير اواناتها
 بما يزن مثله فضةً او ذهباً. ويتمتعون بالذوق في غير طعامهم بما
 يصفون من الطيب وورق التنبول الهندي الذي يمزجونه بالنورة
 المبلولة مع الفوفل لتطيب النكهة وتشبهية الاكل واحداث الطرب
 والارحية في النفس^(٧). ويتخذون مقاعدهم في اوان الحرّ بين الماء

(١) المقدمة ١٨٢ (٢) الف ليلة وليلة وحلقة الكعبت واغانى (٣) اغاني

٢٥ * ١٣ (٤) يا قوت ٦٨٧ * ١ (٥) المعودي ١ * ١٨١

(٦) اغاني ٥ * ١١ (٧) المعودي ١ * ١٠١

المدفق من صور السباع وغيرها مما يتقشون في الرخام فاذا ما
 اصابت الاجساد منها الرطوبة الوافية بتروج النفس اتخذوا في
 السقوف مراوح^(١) يعملون لها الحبال التي تجرُّ بها^(٢) فيجذبونها فيهبث
 عليهم النسيم البارد . ويستجيدون في اللباس والزينة^(٣) والآنية
 الفاخرة وركوب الخيل بالديباج والفضة^(٤) الى الغاية التي لم تبلغها
 الامم التي سبق لها عهد من قبلهم بالمدينة والعمران
 ولما توسَّعوا في الترف الى هذا الافراط دبَّ في شبابهم مرض
 من الانهماك في الملمات^(٥) والاسترسال في التصف والتنهك . وهذا
 المرض تابع للعمران ملازم له كالذي عهدنا وقوعه في الفرس والروم
 واليونان عندما استغفل فيهم العمران وبلغوا اسمى درجات القدرة
 والسلطان . وهؤلاء الشبان يعرفون بالمختشين^(٦) وهم زينة بغداد
 المترفة في حسن ازيائهم^(٧) ورقة كلامهم وظرف المعشر بينهم^(٨) ولين
 العريكة فيهم وسرعة الخاطر عندهم . ولا يعاب منهم الا استمسكهم
 بالدنيا والتماس النعيم منها بما يبعدهم عن الشرع والملة فالباسم
 الديباج المحرم^(٩) في مذاهب الامة كما نقل ابو يوسف عن حديث
 الرسول صلى الله عليه وسلم من لبس الحرير في الدنيا فلن يلبسه في

(١) الكشكول ٢٩ (٢) اغاني ١١ * ٢٩ (٣) الف ليلة وليلة

(٤) المقدمة (٥) الاغاني (٦) اغاني (٧) اغاني ٤ * ٥٩

(٨) اغاني ١٧ * ١٥ و ١٢٨ * ٢ (٩) ابن عابدين ٥ * ٢٤٤

الآخرة^(١) وكذلك انعكافهم على معاقره الخمرة محرّم في القرآن
واحاديث النبي صلى الله عليه وسلم . . .

ولقد رأيت هؤلاء الخنثين ينفردون في معاشهم على
خصائص واحوال لا نجدها في غيرهم من الناس فهم يمسكون
ويجرون ثيابهم^(٢) ويلبسون الحلك مصقولة^(٣) ويتعاطفون في

تشميم ويلوون كلامهم ظرفاً ويتخشون في غنائهم الهزج^(٤) ويتحدثون
بالطرائف والطرائف التي يتعلمها^(٥) الناس منهم ليوسموا مثلهم

بالظرف ويقصدون جنان^(٦) النزهة سَفَرًا على انقطاع عن الرجال^(٧)
ويقبضون فيها الغناء^(٨) والطرب وهي جنان قد أنشئت لهم في محلة

الكرخ^(٩) واتخذ فيها حوانيت من الخشب المحرّم تُخزن فيها النقولات
لهم ويهبط فيها الطعام^(١٠) لمن يريد منهم فصارت مجتمع اللهو^(١١)

ومظهر الانس ومجلى الافراح عندهم . يقول بعض شباب اللهوفي
ذكرها على سبيل الصباية اليها^(١٢)

سقى الله باب الكرخ من منزله الى قصر وضاح فبركة زلزل
ونجد في بغداد غير هؤلاء الخنثين من هم اشد اعراقاً في ارتكاب

- | | | |
|------------------|-----------------------------|------------------------|
| (١) البخاري | (٢) الف ليلة واغاني ٧ * ١٥٤ | (٣) اغاني ٤ * ٢٩ |
| (٤) اغاني ٦ * ٦٦ | (٥) اغاني ٣ * ١٢٨ | (٦) اغاني ٢ * ٥٨ و ١٢٢ |
| وه * ٢٥ و ٢٤ * ٩ | (٧) العند النريد ٢٤٥ | (٨) اغاني ٥ * ٢٥ |
| (٩) الاغاني | (١٠) اغاني ٣ * ١٢٢ | (١١) اغاني ١٢ * ١٠٢ |
| (١٢) الاغاني ١١٢ | | |

المعصية يطوفون الاسواق بالليل^(١) ويطرقون منازل البغي اللاتي
 كثرن في الحضرة لهذا الزمان وينفقون ما لهم على الفحشاء حتى اذا
 صفر اناؤهم ولم يبق لهم من المال الا نصاب لا يمكنهم على الاسراف
 واقتناء الحلل الغالية التي تبلغ مئة دينار^(٢) ثمنا اكثروا ثيابا بالاجرة
 لتيها لم مصاحبة الموسرين الى بيوت الفواجر^(٣) منهم من يكتري
 الخلعة عن كل يوم بدرهم ومنهم بدرهين^(٤) فيلبسونها اياما ثم يتنقلون
 الى غيرها وربما طمعت نفوسهم ايضا الى ما وراء ذلك من تسريح
 العجائز^(٥) في طلب المتعففات من ربّات الخدور كان امتاعهنّ عنهم
 يزيدهم بهنّ كلفا وهياما فتأخذ منهم الشرطة من طالت اليهم يدها ثم
 تضربهم الحدود بالسياط فيتصبرون تحتها^(٦) ليقال فلان صبور^(٧)
 من الفساق فكأنهم يعجزون الدولة دون ردعهم عن المعصية والاثم
 وكذلك الرخاء يتسلط عليه مرض من انهماك اهله بالملذات وما
 العفة الا عند الله يهبها من اتقاه من عباده لارب سواه

دخولي على هرون الرشيد

ولما استقرّ بي النوى مضيت الى دار الرشيد في طفل الغداة

- (١) الف ليلة وليلة (٢) اغاني ٢ * ١١٥ والمستطرف ٢ * ٢٥
 (٣) الكثر ٤٨ (٤) اغاني ١٧ * ٢٤ (٥) اغاني ٥ * ١١٩ والف ليلة وليلة
 (٦) المستطرف ١ * ١٠ (٧) اغاني ٤ * ٦٤

فأصبت ابن البواب جالساً في حبرات الحجاب وهو الذي يخلف
 الفضل بن الربيع على حجابة الخليفة^(١) ويقال أنه صالح الشعر راوية
 لاخبار الخلفاء عالم بامورهم فلما رأني أوسعني سلاماً وتحيّةً ثم جاؤزني
 الى مجلس الرشيد في قصر بناه^(٢) لاهل بيته تجاه دار الضيافة^(٣) من
 دور الخلافة. وقد استجاد فرشه وافرغ العناية في تحبيلهِ بأنواع
 الزينة وغرس فيه الاساطين التي يصطف مجانبها الغلمان^(٤). وقد
 بناه على دجلة^(٥) بحيث يسمع صوت الذين يعبرون بالزوارق^(٦)
 فكثيراً ما كنت اذا زرته بعد ذلك اصنعه جالساً الى الشباك يستمع
 غناء الملاحين في الزلاّات^(٧)... فلما دنوت منه بادرت الى يده
 فقبلتها فضممني اليه بالتحية والسلام وأقبل عليّ باللفظ الكلام
 وكان الرشيد طويلاً^(٨) عبل الجسم^(٩) اشقر اللحية عليه مهابة
 الملوك وجلالتهم^(١٠) وعيناه وقادتان كأنهما لسانان ناطقان فاذا صغى
 لمحدث بين يديه أحاط به بصر حتى لا يدع له سبيلاً الى ان ينطق
 في حضرته بغير الصدق. فلما وقفت بين يديه أمر الفراش^(١١) ان يأتي
 بما أتكى عليه^(١٢) وهذا تعطف لا يكون منه الا للبرامكة وأبي يوسف

(١) اغاني ٢٠ * ٤٢ (٢) اغاني ٥ * ٢٢ (٣) اغاني ٦ * ١٢٢

(٤) اغاني ٦ * ٧٦ (٥) اغاني ٤ * ١٨٩ (٦) اغاني ٩ * ٦٧

(٧) اغاني ٢ * ١٧٧ (٨) العقد الجديد ٣ * ٥٤ (٩) الخسيس ٢ * ٢٢١

(١٠) السيوطي (١١) اغاني ٢ * ٦١ والف ليلة وليلة ١ * ١٢ (١٢) ابن

الانبر ٦ * ١٨١ في اغاني ٥ * ٢٢ و ٦١ * ٦١

وجلة المشايخ من آل العباس. ثم انه استدانني اليه^(١) واجرى حديثه
 الي عن خراسان فأخبرته بما رأيت فيها من اختلال الاحوال وان
 الفضل رتب الفتق الذي دبره اهلها بالمحال واطلق يده فيهم
 بالضرب والنكال وكتبتُ عندما ذكرت ذلك قد بادرتُ الي
 سيفي كما جرت العادة بان لا يكلم الخليفة احداً بما فيه الوهن الأبادر
 الي سيفه تعظيماً للامر وقياماً بواجب الاجلال^(٢). فقال سبحان الله
 لقد اوصينا الفضل بهم خيراً لانهم محبون لنا^(٣) وهم شيعتنا الذين
 اظهروا دعوتنا وقام بهم ملكنا. فقلت يا امير المؤمنين ان الفضل
 اخاك لم يمكن السيف في رقابهم الا بمشورة القواد وعطاء البلاد
 الذين اذا ما فاضهم في ذلك وقع بالموافقة من نفوسهم وما انكروا
 عليه استلحام قوم رعاك لا يجسبون من وراء فتنتهم غائلة يسوء ما لها
 على الدولة. فلما ذكرتُ له ذلك اعرض عن الافاضة في هذا
 الحديث واخذ ينكت الارض بشيء في يده ثم قال وهذه مصلحة
 التجارة في الذي يكتب الفضل البنا عن لزوم تحريسها بالجند فقلت
 له ان في خراسان تجارة تباع بأجنس الاثمان وان السابلة اذا امنوا
 على بضاعتهم من العربان بقيام الجند في الطرقات والبلدان جلبوا
 خيراتها الي العراق وتجروا بها مع أم البحر فقال ولكن لنا اعداء
 ينبغي ان نكون منهم على حذر ولا نرفع عنهم سيف الاسلام ونحن

سأهرون عليهم ومرتبون لهم بالجند اذ لا بد للمراعي من حراسة الرعية^(١) ولقد يكنى التجار ما آمنهم من السبل في غير الديار العيران وما اخفنا لركبهم من الركايا واوسعنا لهم من المناهل في البلدان العامرة التي نحب ان تكون سوق التجارة فيها دارة واما تجار خراسان وما اليها من البلدان النائية فانا لانحسب زكاة اموالهم كافية لمصلحة الجند وافية بارزاقهم الواسعة فيها

وكان الرشيد على مهمة هذه المفاوضة عنده يقطع حديثه مرة بعد مرة ثم يقبل على نفسه بالتأمل والفكرة فاهتمت انه يرى فيها مسألة تنقبض نفسه دون بسطها الي. فاذا الامر على خلاف ذلك وانما كان مشغول الخاطر بما اقلق اياه قبله من امر الولد وموآثرته بعضاً على بعض بالخلافة من بعده^(٢) فاتفق وانا بالخلوة معه ان دخل عليه خادمة العبد فتفرسته الرشيد وقال له ما وراءك يامسرور فقال ما نحب يا امير المؤمنين ثم قام مقامه الذي كان اذا قامه علم الرشيد انه يريد ان يساره بشيء^(٣) فأوما اليه بالذنوب فالتى في اذنيه كلاماً ثم نعى. فقال لي الرشيد هذا خادمتنا الامين نرتاح في الاسرار اليه. لم يحدثنا جهراً وانت مائل بين يدينا ولكنك سارنا في امر ما اخذنا في تقديم المأمون على الامين بالولاية لانا نرضى سيرته ونؤمن ضعفه ووهنه مع ان بني هاشم مائلون الى الامين^(٤) وانشد

(٢) اغاني ٥ * ٢٢

(٣) ابن الاثير

(١) الطواط ١٠١

(٤) المسعودي ٢١٥ * ٢٢ * والمستطرف ١ * ٢٢

أَخَافُ التَّوَلَّاءَ الْأَمْرُ بَعْدَ اسْتَوَائِهِ

وَأَنْ يَنْقُضَ الْحَبْلُ الَّذِي كَانَ أُبْرِمًا^(١)

فَلَمَّا رَأَيْتَ بُلُوغَ الْقَلْقِ فِي نَفْسِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ تَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ بِالرَّأْيِ
الَّذِي تَقَدَّمَ بِهِ يَجِيءُ إِلَى أَبِيهِ مِنْ مَبَايِعَةِ الْوَلَدِ بَعْدَ الْآخِرِ^(٢) مَعَ عَلِيٍّ
بِأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَا يَجْرِي فِيهِ الْوِفَاقُ وَلَا يَتِمُّ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَرُومُهُ
الرَّشِيدُ بَعْدَ مَا رَأَيْنَا مِنَ الْعَبَّاسِيِّينَ تَطَاوُلَهُمْ فِي خِلَافَةِ الْإِسْلَامِ
وَأَنْقِاضِ الْعَهْدِ الَّتِي كَانُوا يَكْتُبُونَهَا عَلَى نَفْسِهِمْ فِي حُدُودِ اللَّهِ
وَالْأَدَمِيِّينَ فَبِذَا أَبُو جَعْفَرٍ لَمَّا رَسَخَتْ فِي الْمُسْلِمِينَ دَوْلَتُهُ وَمَضَتْ فِيهِمْ
كَلِمَتُهُ لَمْ يَجِدْ مِنْ نَفْسِهِ رَادِعَةً^(٣) عَنِ الْبَغْيِ^(٤) فَخَلَعَ ابْنَ أَخِيهِ عَنِ
الْوَلَايَةِ وَقَدَّمَ عَلَيْهِ ابْنَتَهُ فِيهَا^(٥). فَلَمَّا وَلِيَ الْمَهْدِيَّ بِحِمْلَةٍ^(٦) الرَّبِيعِ الَّتِي
اجْتَفَتْ بِحَقِّهِ الْخِلَافَةَ وَأَخَذَ فِي اسْتِمَالَةِ النَّاسِ بِمَا فَرَّقَ فِيهِمْ مِنَ
الْمَالِ لَمْ يَجِدْ مِنْهُمْ عِنْدَ أَظْهَارِ اغْتِرَاضِهِ فِيهِمْ إِلَّا الْمَتَابِعَ لَهُ وَالْمُؤَافِقَ عَلَى
خَلْعِ ابْنِ عَمِّهِ عَنِ الْوَلَايَةِ. ثُمَّ لَمَّا صَارَتْ الْخِلَافَةُ إِلَى الْهَادِيَّ وَفِي اعْتِنَاقِ
الْمُسْلِمِينَ الْمَبَايِعَةَ لِلرَّشِيدِ بَعْدَهُ فَرَامَ أَنْ يَجْلَعَهُ عَنْهَا بِمُؤَافَقَةِ أَهْلِ الْحَلِّ
وَالْعَقْدِ لَهُ وَيَصِيرَهَا بَعْدَهُ إِلَى جَعْفَرِ ابْنِهِ^(٧) لَوْلَا مَا أَجْرَاهُ يَجِيءُ بِنِ
خَالِدِ رِعَاةِ اللَّهِ مِنَ الدَّرَايَةِ وَالْحِمْلَةِ الْمُبَارَكَةِ

وَإِنَّمَا كَانَ الْمَأْمُونُ أَحَقَّ بِالْوَلَايَةِ مِنَ الْأَمِينِ لِأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْهُ بِأَيَّامِ

(١) الْحَصْرِيُّ ٢ * ١٤٩ (٢) الْمَسْعُودِيُّ (٣) الْفَخْرِيُّ (٤) أَبُو الْفَدَاءِ

١١ * ٢ (٥) ابْنُ الْأَثِيرِ (٦) ابْنُ الْأَثِيرِ

وان لم تكن امة هاشميةً مثله فلو صارت الخلافة الى من هو اصغر من اخوته وهو حاضر لم يصبر على ذلك فكان بحسب الرشيد من تقديم الأمين عليه بالولاية وقوع الفتنة بينهما وزوال الخلافة عنهما جميعاً الى الواقفين لها من اهل البيت او الى من كان اقرب الهاشمين الى استخلاف ابي العباس . فان عم عم الرشيد الى ثلاثة اعمام حاضرون فعبد الصمد بن علي عم العباس بن محمد والعباس عم سليمان بن المنصور وسليمان عم هرون ^(١) فهو لاء هم مرتقبون للخلافة وواقفون لها بالمرصاد فلا يسع الرشيد مخالفتهم في تقديم الأمين على المأمون وانما يرجع الى الرأي الذي تقدمت به اليه فتطمئن نفسه من بقاء الخلافة في بيته ومصيرها الى من يحب ان تصير اليه من اولاده ^(٢)

حكمة الرشيد في السياسة

هذا فصل أفردته لذكر خلافة الرشيد وبيان الموازنة بينه وبين ابي جعفر في السياسة ^(٣) ان صحَّت المقابلة بينهما . فاني ما وجدت في الملوك من جمع فنون السياسة الى عقل الملوك وفضلهم ^(٤) وحكمتهم ودهائهم مثله . تجتمع محامدة المأثورة في قربه من الخير ^(٥) وبعده عن البغي الذي كان طبيعة في ابي جعفر وسائر العباسيين حتى اذا

(١) العفد ٢ * ٥٤ (٢) هو المأمون عبد الله (٣) الخميس ٢ * ٢٣١

والسيوطي (٤) الفخري ٢٢٢ (٥) المقدمة ١٨٢

صار إليه امر الأمة كان أول ما صدر به أمره أن تعاد إلى الناس الضياع التي اغتصبهم آباؤهم وتزدد الأموال المحفوظة إلى أهلها في جميع النواحي والأمصار. فلو لم يكن له من المآثر غير هذا لكفى الناس فرجاً ورحمةً واسعةً بعدما أصابهم من الجهد والضيق في خلافة أبي جعفر وما استمر المهدي عليه من حفظ الضياع المقبوضة عنهم إما طمعاً بريعها وإما استصواباً لرأي أبيه في قبضها^(١) حتى لا يدع سبيلاً إلى القول بأنه ظلم العباد فيما خوله الله عليهم من الملك العظيم

ثم يصح تفضيل الرشيد على أبي جعفر بما هو آخذ في سياسته من انجاز الوعد وحفظ المودة ومكافأة المحسنين على إحسانهم^(٢) حتى أنه ليزيد عماله نعمةً وتجلةً كلما ساء قدرهم واستفحل في الإسلام ملكهم فمذا روح من أمراء المهلب لما عمّت الدولة مآثر ودانت الرقاب المتطاولة له أفرغ النعمة الواسعة عليه وأوقف له الولاية إرثاً في أهل بيته من بعده^(٣). وهذا إبراهيم من أمراء الأغالبة لما اجتمعت كلمة أهل المغرب عليه وتمكن فيهم سلطانه^(٤) ولأه أفريقية إلى ما وراء البحر وجعل الولاية مورثة أيضاً في أعقابيه من بعد وهو بعيد عن أن يتخوف منهم ما كان يتخوف أبو جعفر من عماله في

(١) الماوردي ١٥٦ (٢) الفخري (٣) المونس ٤٦ وابن الأثير ٦ * ٥٠

(٤) ابن خلدون وابن الأثير

استقوائهم عليه بل هو راغبٌ في استفحال ملكهم لتوطيد الاسلام في تلك الديار المترخبة الشقة ليكون ممتنعاً على العدو وقائماً بارهاب الفرنجة وغزوهم في البحر وانتزاع صقلية منهم وهذا نظرٌ يدلُّ على سداد الرأي في السياسة واتساع الخبرة في تدبير الملك

ولقد سمعتُ في مجالس المرآة من يقول ان الرشيد يقتفي سيرة جدّه في السياسة^(١). فذلك مردودٌ عندي من حيث امتناع المماثلة بين العدل والظلم. والآفان كان الرشيد يستميل الناس بالاحسان اليهم حتى لا ينصرفوا عن طاعته كما كان ابو جعفر يأخذهم بالعسف^(٢) حتى لا يستطيعوا مغالبتة فالغاية المقصودة من سياستها الا واحدة غير ان سياسة الحكم خيرٌ من سياسة القتل والظلم وانما تكون لصاحبها بما له من الدالة على اتمه اَحْفَظَ لملكه رباطاً من سياسة البغاة الذين يتخذون الجور قواماً لسلطانهم فانهم يحجبهم عن رعيتهم ستر الخوف ولا يجسرون على الظهور الا بين الحرس والجنود ولا يهناون بشيء من الغبطة والسرور كما ذكرتُ في الكلام عن ابي جعفر

اما سياسة الرشيد مع اهل البيت ففيها خروج عن العدل وان لم تكن محرّاة على ما رسم ابو جعفر من تتبعهم في كافة الوجوه فانما كانت تختلف عنها بما تختلف فيه السياستان بين الحكم والظلم.

ولقد كنت اسائر الرشيد في بعض الايام فقال بلغني ان العامة
 يظنون بي بغض علي بن ابي طالب فوالله وتربة امير المؤمنين
 اني ما احبُّ احداً حبي له^(١) ولكن هؤلاء (وهو يريد آله) اشدُّ
 الناس بغضاً لنا وسعيّاً في فساد دولتنا بعد اخذنا بثارهم من
 الامويين ومساهمتنا اياهم ما حوينا حتى انهم لا ميل الى بني امية اليوم
 منهم اليانا. فكنت في ذلك الوقت بعيداً عن ان اتق بصحة هذا
 الابهام ولكنه ظهر لي فيما بعد انه لا يروم اقصاءهم الا على غير مكروه
 يوقعه بهم وانه لو قدر ان يرفع عنهم الضيم الذي يلحقهم من جور
 العباسيين وهو موقن ببقاء الخلافة له من غير مقارع عليها ولا منازع
 له فيها لفعل^(٢) وطاب بذلك نفساً. فلقد علمت ان المكروه الذي
 ألمَّ بيحيى بن عبد الله بن الحسن انما كان صدوره بسعاية اقاربه
 الذين لم يسعه مخالفتهم وهو في موقف يخاف عليه الفتنة التي هي
 اشدُّ من القتل. وكذلك مقتل موسى بن جعفر الامام لم يقع من
 نفسه برضاه لانه لم يكن منها عندة في بدعة ولا ظنيماً على
 دخلة مكروهة حتى اذا قتل في محبسه وهو يظن انه مات حنف
 انه^(٣) اسف كل الاسف عليه ومشى في جنازته من دار الخلافة
 الى باب التبن حيث مقابر قريش^(٤) الى ماوراء نهر عيسى الهاشمي^(٥)

(٢) الفجري ٢٢٢

(١) اغاني ١٢ * ١٨

(١) السبوطي

(٥) ابن خلكان ١ * ٢٨٢

(١) ابن خلكان ١ * ٧٩

فكنتُ احبطُ به مع امراء البرامكة فاسمعهُ يترحمُّ عليه و يظهر براءتهُ
من دمه. غير ان خروجهُ عن مشاركة اقرار به في مؤامرتهم لا يبعدهُ
عن ركوب الخطر واعساف الغرر فانما يجب على خلفاء النبي صلى
الله عليه وسلم ان يتبعوا سنته العدل ولا يتسامحوا في قتل الابرار
الذين هم ذريتهُ الصالحة وسلالتهُ الشريفة عليهم صلوات الله ورضوانه
هذا ما وقعت فيه المقاربة بين سياسة الرشيد و ابي جعفر الى
الغاية التي يرجونها جميعاً من تأييد الدولة بها وان لم تتوافق اليها
السبيلُ. وقد وجدتُ للرشيد فضلاً^(١) في تدبير مملكته احق بالثناء
الجزيل وابقى للذكر الجليل من فضل ابي جعفر غفر الله له بما يناله
من المشقة في ركوبه الى اطراف المملكة لتفقد ثغورها والنظر في تظلم
الناس من ثقل يقع عليهم في الخراج او ضمير يلحتمهم من جور العمال.
فاذا صار الى البلدان العالية ما وراء خراسان حيث لا يعرف
اللسان العربي^(٢) اخذ التراجمة معه^(٣) حتى لا يفوته شيء من أمر
الرعية فهو بحج سنة وبعز سنة^(٤) كذلك عادته من يوم ولي الخلافة
وقال شاعره في مدحيه على بعد هذه الهمة منه^(٥)
فمن يطلب لقاءك او يردهُ ففي الحرمين او اقصى الثغور

(١) ابن الاثير والفخري (٢) ابن الاثير كتاب ٥ (٣) المقرئزي ١ * ٨١

(٤) ابن خلدون وابن الاثير والفخري والاسحقافى والسبوطي والطبري والخميس

(٥) ابو الفرج والخميس ٢ * ٢٢١

وقال آخر^(١)

ألف المحجَّ والجهادَ فما - ينفكُّ عن غزوتين في كل عام -
وربما رام في أسفاره أو بالزوراء أن يعرف ما يدور بين الناس من
الحديث فيتخفى في زبِّي التجار^(٢) ويطوف الأسواق مع جعفر وزيره
ومسرور خادمه^(٣) ويجلس في حلقات القوم ليطلع على ما لا يصل إليه
خبره من أمر السوق والعوام فنجم عن عنايته بهذا الأمر^(٤) كثير
من الفوائد التي صلحت بهار عينه ودولته جميعاً فقد قال لي جعفر
اعزَّه الله أنا ما ضبطنا بغداد بالشرطة ولا عيننا بتقدير الأوزان
وتمييز المغشوش من السكَّة إلا بما وجدنا من الاخلال في تطوافنا
بين الناس

البرامكة نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها

وهذه السياسة التي يباشرها الرشيد إنما هي بإشارة البرامكة
الذين رفعوا منار الإسلام^(٥) بصلاح مشورتهم إليه في أمور الخلافة
ولذلك صير الميم النيابة في الدولة^(٦) والنظر في ديوان الحسبان
والترسيل لصون أسرار الدولة وحفظ اللسان في بلاغتهم^(٧) بعد أن

(١) فوات الوفيات ٢ * ٢٩١ (٢) اغاني ٦ * ١٢٧ والانايدي ١٢٦

(٣) الف ليلة وليلة وحلقة الكعبت (٤) الاسماقي ٩١ (٥) العقد الفريد

٢٧ * ٢ (٦) المقدمة ٢٠٧ (٧) العقد ٢ * ٢٧

فسد عند الجمهور من اهل الامصار بعض الفساد^(٦) فصار جعفر
يسمى بالسلطان اشارة الى عموم نظره في سياسة الدولة وتدير
الملك لان الخطط كلها بيده الا الحجابة لم تكن له لاستنكافه عنها
بما ان صاحبها يتف بالوفود عند الحدود في تحياتهم وخطبهم
والآداب التي تلزم في الكون بين يدي امير المؤمنين^(٧) وذلك مما
ينزه نفسه عنه وهو بالموضع الذي علمت من جلالة القدر والقيام
بامور الخلافة

ولقد كان يجي اعزّه الله قائماً بأود الوزارة من قبله وهو
الذي قلد الرشيد الخلافة بحكمته ودرأته^(٨) حتى اذا استوثق له الامر
قال له انت اجلسني في هذا المجلس بمنك وبركتك^(٩) وقد
قلدتني الامريا أبت ثم دفع لله وخاتمة وقلده امر الرعية^(١٠) ان يحكم
بما يرى ويعزل من يرى ويسعمل على الولايات من يرى وفي
ذلك يقول ابرهيم الموصلية النديم^(١١)

الم تر ان الشمس كانت مريضةً فلما أتى هرون اشرق نورها
تلبست الدنيا جالاً بملكه فهرون واليهما ويجي وزيرها
فكانت سياسة هذا الشيخ المبارك منصرفه الى تقويم الدولة حياً

(١) المقدمة وينضح مثل ذلك من دون اللغة في ايام الرشيد

(٢) المقدمة ٢٠٧ (٣) ابن الاثير والطبري (٤) المسعودي ٢ * ٢٠٧

(٥) ابن خلدون وابن الاثير ٦ * ٢٩ والسبوطي (٦) الاغانى ٥ * ٤١

وابن الاثير وابن خلدون والمسعودي والسبوطي والمحاضرة ٢ * ١١٤ والالتبيدي ٢١

بالرشيد ان تعظم في الاسلام صولته على حين لا تجرم اهل البيت
من قيام ملكهم فيما وراء الجرمع ما يكون في ذلك من حقن الدماء
الطاهرة وسلوك السنن الشريفة فاتجلة حسن نظره ان يطوق فيها
أمر الجند الي غير العرب الذين لا يقدر وبنفسهم على كبح عنان
الثائرين من اخوانهم بما يكون بينهم من الدالة والقرابة . فلقى
دون بلوغ غرضه من هذا الامر صعوبة كادت تفضي الى الفتنة
بما وقع من الضغائن بينه وبين يزيد بن مزيد^(١) وغيره من امراء
الجيش . الا ان الرشيد كان على موافقته^(٢) فيما يرى به مصلحة
فاذا فتح الناس عليه باب الفرقة وتدرعوا بجلباب الفتنة ارسل
اليهم الفضل او هرثة بن أعين^(٣) فازالا الشر بأسرع من
طرفة عين

ثم استقال بجبي عن الوزارة بعد ان حل فيه المشيب ففوضها
الرشيد الى الفضل ثم الى جعفر بعده وعهد بالمراتب الى اخوته
وأولادهم^(٤) وهم بمكان من الفطانة^(٥) التي توارثوها مع المجد طرأفاً
وتلاداً فقاموا بأود الوزارة وجمعوا اليهم مراتب السيف والقلم .
يقول سلم الخناس^(٦) في شرف المسلمين بهم وازدهاء الدولة بحجاسنهم
اذا ما البرمكي غدا ابن عشر فمته أمير أو وزير

(١) ابن الاثير ٦ * ٥١ (٢) المقدمة ١٥٦ (٣) الاغاني ٤ * ١٠١ وابن

الاثير ٦ * ٥٠ و ابو الفداء ٢ * ١٦ (٤) المقدمة والعقد الفريد

(٥) ابن خلكان ٢ * ٢٦١ (٦) المحاضرة ٢ * ١١٤

إلا أنه كان منتهى نظرهم في السياسة ^(١) إلى جعفر هذا
 السلطان وهو محضور الروية مؤيد البدئية وثيق العقدة جامع
 لخصال الخير مؤتمن على الاسرار بارع في مهمات الامور وليس في
 أهل الأدب من هو اذكي ^(٢) ولا افطن ولا اعلم بكل شيء ولا افصح
 لساناً ولا ابلغ في مكاتبة منه ^(٣). وكان الرشيد يقدمه على الفضل بما
 يسرع إلى استنباط الحيلة في تدبير ما يطراً على الملك من المهمات
 الصعاب ^(٤) كما يقول فيه شاعر معنٍ رحمه الله
 وزير اذا ناب الخليفة حادث^ه اشار بما عنده الخليفة تصدر
 ووجدت في نفسه من الميل اليه بحيث انه لم يكن له صبر على
 مفارقتها في ساعة من نهار ولا ليل ^(٥). واذا دخل عليه اجلسه على
 سرير الخليفة بجانبه واجلس بني هاشم على الكراسي والوسائد ^(٦)
 دونه. وربما قدمه في المشورة على احب اهل بيته اليه. حتى انه
 لا يعهد اليهم بولاية ولا يصلحهم بما لا يراه ورضاه. وقد وقع
 لعبد الملك بن صالح من كبراء بني هاشم وشيوخهم من اهل
 التجارة ان الرشيد غضب عليه فقصد باب البرامكة فقال له جعفر
 أنت تقصدني فهل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي
 فاقضها لك قال عبد الملك بلى ان في قلب امير المؤمنين علي
 موجدة فتخرجها من قلبه وتعيد اليه جميل رايه في فقال له جعفر

(١) العقد ٢ * ٢٧ (٢) الوطواط ٢٤٩ (٣) الاغانى ٤ * ١٥

(٤) كتب التاريخ (٥) الاثليدي (٦) اغاني ٤ * ٩٣

قد رضي عنك أمير المؤمنين و زال ما عندهُ منك قال عبد
 الملك وعليّ أربعون ألف دينار ديناً قال هي لك حاضرةٌ ومن
 مال أمير المؤمنين لاني اجل قدرك عن ان يصلك بالمال غيرهُ
 قال وابني ابراهيم تخاطبه فيه حتى ينوءَ باسمه ويرفع الالوية على
 رأسه قال لتطب نفسك ان الرشيد قد ولاء مصر أو قال له ما شئت
 من البلدان فانصرف عبد الملك وهو يتردد بين العجب والسرور
 حتى اذا كان الغد دعاه الرشيد واقبل عليه بجھيل العاطفة ثم
 أمر له بأربعين ألف دينار وكتب سحلاً ابنه على مصر ^(١)
 فهذا أمرٌ يدل على مكانة جعفر عند الرشيد بحيث انه يضمن
 عنه الضمانات التي لا يجد بداً من وفائها بغير ردٍ ^(٢) كما
 يدل على ان مشاركته له بالملك لا تنف على حد السياسة فيما
 يديه من رأيٍ جميل أو تدبير حسن وانما يتناولها في أكثر
 الاحيان بما له عليه من الدالة ^(٣) التي صارت بينهما الى ما لا غاية
 بعده بين الاخوان . فإذ ذكر اني رأيت الرشيد في مجلس يطيب
 له نفساً بغير محضره ^(٤) . وكثيراً ما كنت أراها ينتقلان في لبس
 المحلة الواحدة ^(٥) ويجلسان معاً بين القبان والغانيات على شرب
 وهو ومصافاة خلان

(١) الاغانى ٥ * ١١٩ والفخرى والعقد الفريد ٣ * ٣٤ والانليدي ١٦١

والابشهي ٢ * ١٩٢ (٢) ابن خلکان ١ * ١٥٢ (٣) الانليدي والف ليلة وليلة

(٤) الانليدي ١٦٩ وابن خلدون وابن خلکان (٧) الاغانى والف ليلة وليلة

وان كان ليجي فضل^١ في تقويم هذه الدولة فان لجعفر فضلاً
 في تدبير مملكتها اتم واجل في اعين الرشيد وقد اغناه بنفاذ
 سلطانه في المشرق عن ان تتسع مملكته الى طرف المغرب ثم يبيت
 على خطر الفتنة التي لا يأمن مجدونها من بقاء الخلافة في يده . فلم
 يكن بد لصلاح امره من سلوك السبيل الذي مهد له جعفر لتتم
 له الفائدة التي رامها ابوه في تقويم الدولة وبلوغ غرضه منها في المشرق
 فتوقفت مصلحة الدولة والاسلام كله على ان يتبع الرشيد هذه الخطة
 التي كان ليجي فيها الفضل السابق والمقدم ولجعفر من بعده الفضل
 اللاحق والتمتم...

ولقد شملت عناية جعفر رفع الله قدره خطط الدولة كلها
 بين مراتب سيف وقلم الا انه كان الى تدبير المملكة وترتيب
 الدواوين اشد منه عناية واقرب من نفسه ميلاً الى النظر في مصلحة
 الجند وهم الفرسان الذين لم ير لهم مع ما هو مطبوع فيهم من نخوة
 الجهاد التي لا يطبق الاعاجم مناجزتها فيهم الا ان يصرف اليهم
 ارزاقهم في اباانها ويرضهم بسعة الاعطيات من غير مال الخليفة^(١) بما
 اقتصد فيه من النفقات التي توسعت اليوم بين يديه وكانت
 ضائعة من قبل على الدولة وان يفوض امرهم الى الامناء الذين
 طال وقوفهم في ساحات القتال واتسعت منهم الخبرة في تدبير

الحروب واستخدام الحيلة من وراء المقدرة إذا قصرت عن أن تأتي
بغرضها المقصود من خدمة الدولة ومصحة الملة

وأما مآثره في تدبير المملكة فإنها تناول ضبط الأموال
وترتيب ديوان الأعمال والجبايات^(١) على غير ما رسم أبو عبد الله
في كتابه^(٢) على الخراج وإنما اقتصد من النفقة على قدر إبقائه
للزيادة في أرزاق الجند وإقام على السجلات قوما مهرة في
الحساب^(٣) ليجد الموازنة فيما يدخل بيت المال ثم يصرف منه وجعل
لهذا الديوان شعباً ترجع مصالحها إليه كديوان الخراج وديوان
الضبايع والنفقات^(٤) وغير ذلك وأحب أن توقف دفاتر الخلفاء
وسيرهم تحت المراجعة لينظر^(٥) فيما يتصرف به الخليفة بموازنة الدخل
الذي ترتب في سجلات الديوان

ثم توسعت عنايته من تدبير المملكة إلى سياسة الرعية بالرفق
وإدخال الراحة عليهم من باب الأمن . فاتجه رأيه العدل أن
يقيم الأحكام على المذهب الذي لا يفرق بين المسلم وغير المسلم^(٦) إلا
فيما هو مأخوذ على أهل الذمة من العهود المحفوظة وأقام رجال
العدالة في جميع البلدان لكتابة العقود على روابط الشرع^(٧)
وحفظ حقوق الأمة وإملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم من

(١) المقدمة ٢١٢ (٢) الفخري ٢١٦ (٣) المقدمة وابن الأثير ٥ * ١٢١

(٤) اغاني ٩ * ٢١ و ٢٦ (٥) الاغاني ١٤ * ١١٤ (٦) الماوردي ٢٩٢

(٧) العقد ٢ * ٢١١

الكفالة^(١) وغيرها بشهادتهم وامرهم ان يجلسوا في الدكاكين
والمصاطب ايسهل وصول الناس اليهم فتجري معاملاتهم بالعدل
الذي يروم ان يشملوا به نفوسهم كما تشملهم به الدولة فكان يقول^(٢)
اعزة الله الخراج عمود الملك ما استغزر بمثل العدل وما استنذر
بمثل الظلم

ثم انه نظر في صلاح الزوراء ورغب الى الرشيد ان يطوق
شرطتها الى عبد الله بن مالك من جلة القواد^(٣) واقام
العسس^(٤) بالليل لمحافظة الدروب^(٥) . ودس فيها العيون لملافة
الخلل الذي يطرأ عليها من وفود الاغراب واختلاطهم^(٦) الى ان
رتع الامن في اراضيها وخيم السلام على ارباضها . وذلك ينذر
ان يكون في مدن الاعاجم ومحاشد ملهم فلقد بنى الينا عن قاعدة
الروم ان المكروه واقع فيها كل يوم لاجالة مع انها محشدة
النصرانية ومباةة الملوك الذين حازوا العالم بين شرق وغرب .
ونحن لا نريد بذلك ان الروم قوم جهلة لانظام ملكهم فرما كانوا
بعكس ذلك وكانوا اكثرهم من جملة العلم^(٧) غير ان الترف قد
غلب على عامتهم حتى لا سبيل للملوكهم الى ردعهم عن معاقره
الخمر وكبح عنانهم عن ركوب الاهواء^(٨)

(١) المقدمة ١٩٦ (٢) العقد ١٣* (٣) الاغاني ١٢* ٤٦ ولسمرودي ٢*

٢١٥ (٤) اغاني ٢* ١٥٧ (٥) الاغاني ٧* ١٩ والمستطرف ٢* ١٨٦ (٦) ابن

خردادية ١١٦ (٧) المقدمة ٤١٩ (٨) وكان هذا من اسباب التواني في دولتهم

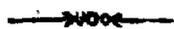
ولما وضح للرشد فضل هذا السلطان فيما أصح به الملة
والدولة جميعاً^(١) بلغت منه الأمانة فيه الى ان يطوِّق السلطة التي
تقارن سلطته وتشارك فيها معه ففوض اليه القضاء بديوان
المظالم وهو القضاء الذي كان يباشره الخلفاء من الامويين
بنفوسهم^(٢) ثم المهدي من بعدهم في صدر هذه الدولة لما قصد
استمالة الناس اليه بعد ان نفرت قلوبهم عن محبة ابيه . فصار
جعفر يجلس فيه^(٣) بجانب الرشيد على سريرته ويشاركه في
توقيع على القصاص التي يرفعها الناس اليه ولكن بالعبارة
التي يتنافس^(٤) في بلاغتها العلماء^(٥) فمن بعض ما حفظت له
من هذه التوقيعات التي جرت مجرى الامثال توقيعه في قصة
رجل شكوا بعض عماله اليه "قد كثر شاكوك وقل شاكروك
فاما عدلت واما اعتزلت"^(٦) وتوقيعه في قصة قوم قطعوا الطريق
"انما جزاء الذين يجارون الله ورسوله الآية"^(٧) ووقع في قصة
محبوس "العدل اوقعه والتوبة تطلعه"^(٨) ووقع في قصة متظلم
"طب نفساً فكفى بالله للمظلوم ناصراً" ووقع في قصة قوم شكوا
سوء جوار بعض قرابتهم "يرحل عنكم" ووقع الى بعض عماله
"انصف من وليت أمره والآنصفه منك من ولي أمرك"^(٩)

(١) الانليدي (٢) الماوردي (٣) الاغانى ٤ * ١٦٣ (٤) الكثر ٩٤ (٥) ابن

خلكان ١ * ١٤٧ والامقدمة ٢٠٧ (٦) ابن خلكان ١ * ١٤٧ (٧) ابن عبد

ربو ٢ * ٢٢٢ (٨) العقد الفريد ٢ * ٢٢٢ (٩) الوطواط ٢٥

الى غير ذلك من التوقيعات التي يتداولها^(١) الادياء الى ان تبلغ
 الفضة الموقع عليها عشرين درهماً ثمناً^(٢) في ايدي الناس . وهذا ما
 اكنفي بذكره من مآثر هذا السلطان الذي ليس له نداء في
 العالمين وقد فضل الملوك كافة بالعلم والعقل والسياسة^(٣)
 وآتى الرشيد عزة ورفعة مقام كالذي لم تر مثله قدماً في دول
 الخلفاء . فتولى الله مكافأته عن المسلمين والاسلام بما هو واسع له من
 الجليل وجعل المجد لائذاً بجانبه والسعادة حافة ببايه ان شاء الله



صلاح التجارة والمعاملة

هذا فصلٌ نفردُهُ لذكر المعاملة الراضية بين الناس بقدر
 ما يسمح لنا المقام . فانه لما استتبَّت الراحة في بغداد توسع فيها
 نطاق التجارة وتوفرت الاموال في ايدي العوام بما تقدم من توجيه
 الرشيد همة الى تأمين السبل للقوافل وتمهيدها للتجار السفر حتى
 حملوا تجارة الدنيا كلها الى العراق . فحملوا من الهند آنيتها ومن
 اصبهان وشيراز ويزد شرابها^(٤) ومن خراسان حديدتها ومن
 الكرمات رصاصه ومعدنه ومن قشيرا النسيج الملون ومن الصين
 الغريب والكمكان والمسك والعود والستور والسروج والغضار

(١) ابن خلكان والسيوطي (٢) المقدمة ٢١٥ (٣) الايدي وابن خلكان

٢٦١ * ٢ (٤) العقد الفريد ٢ * ٢٤٤

والطليح والدارصيني والنخونجان ومن اليمن العطر^(١) ومن فارس
 السلاح والمصوغات ومن عيذاب اللآلئ^(٢) ومن الوقواق الذهب
 والابنوس ومن الهند والسند القسط والقنا والنخيزران والكافور
 والعود والجوزبوا والقرنفل والفاغرة والكبابة والتارجيل^(٣)
 والثياب القطنية والخملة والفيئة ومن سرنديب الوان الياقوت كلها
 واشباهه والماس والدرّ والسبادج الذي يعالج به الجواهر^(٤) ومن
 ملي وسندان الفلفل والبلور ومن كله الرصاص القلعي^(٥) ومن ناحية
 الجنوب البقم الداري ومن البحر الغربي المرجان ويكون بارض
 الفرنجة وهو السبد ومن الروم المصطكى والجلود والغلمان والرقيق^(٦)
 ومن الشام والموصل نسجه وحديده في جبل لبنان ومن الروسية
 جلود الخنزير وجلود الثعالب يأتي بها الروس الى بغداد عن طريق
 سورية او عن طريق جرجان^(٧) ثم تحمل الى اصبهان والجزيرة وآمد
 وانصيبين^(٧) وتجر بها

هذه هي تجارة الشرق قد حُملت الى العراق واما تجارة الغرب
 فقد تعذر نقلها لبعدها المسافة اليه ولذلك كان يربى الرشيد ان يفتح
 البحر عند السويس^(٨) ليقرب المجال من المغرب الى عمان فسيراف

(١) الفزوي ٢٠٩ (٢) المسعودي ١ * ٢٩ (٣) ابن خردادبة ٦٨

(٤) الاغانى ٥ * ٢٤ وابن الاثير ٥ * ٢٢٥ والفزوي ٢٠٩ (٥) ابن خردادبة

٨١ (٦) ابن خردادبة ١١٦ (٧) ابن الاثير ٥ * ١٠١ (٨) المسعودي

ف فارس فأطراف العراق ولاسيما ان على البحر الرومي سواحل افريقية
وتونس وطرابلس ومصر والاندلس الى الغرب والجنوب وسواحل
صقلية والفرنجية الى الشمال وسواحل الروم والشام الى الشرق وانها
لبلدان كثيرة الخبثات وافرة الغلات^(١) فكان يروم الرشيدان يحمل
تجارتهما الى العراق على مراكب البحر من طريق السويس ولكن جعفر
قد ثناه هذا الامر وخوفه ان تصل سرايا الروم وسائر الفرنجة
الى جدة فيخربون المواطنين على حين لا يتوقع لقدمهم اثر^(٢) فقال
جعفر يا أمير المؤمنين ان خرق السويس خرق في الاسلام وحتى
لو انك وجدته محروقا من ايدي الملوك الذين سلفوا الخلفاء لوجب
عليك ان تسده اليوم والآن فان مصالح التجارة لا تقضي على الاسلام
بتضييع البلدان التي دانت له على بذل الدماء. وهذا رأيي
لا يبدو الا لمن ركب فيه أسباح الخليقة ومعدلة النظر فان العلماء
كلهم قد ضلوا عن ادراك ذلك وانما خوفوا الرشيد ان البحر
الرومي اعلى من بحر القلزم في وضعه وانه اذ اريم خرق ما بينها
طى البحر على ارض مصر وغرق عذاب وساحل الصعيد وسواكن
وزيلع والنوبة وسواحل اليمن والحجاز وجدة ومدين وايلة وفاران
وغير ذلك. ولكن قولهم بعيد عن الصواب فهذا بحر الظلمات الى
ما وراء الاندلس لم يطم مأوه على سواحل البحر الرومي مع انه يعلوه

(١) النجوم ومعجم البلدان (٢) المسعودي والسيوطي

بالوضع لمناسبة إحاطته بارض الفرنجة العالية . فاظهر البحور الأ
 انها متساوية في نسبة الارض ولم يسمع عن بحر أخفض من غيره من
 البحور الأ بحر لوط في ارض الاردن ولكنه ليس ببحر عجاج ولا
 باوقيانوس محيط وإنما هو مياه قد اجتمعت في منحدر من الارض
 ولما اجتمعت اموال الدنيا في بغداد أصبحت مورداً لاهل
 الاعواز من كافة البلاد يتناولون فيها حاجتهم من المال فوقع غش
 فاحش في التجارة وصارت اليهود^(١) والصيارف يدينون ما لهم
 بالربا^(٢) على ان يعاد عليهم المثل في آخر العام مثلين^(٣) وأكثر منه .
 فاقام الرشيد محسباً^(٤) يطوف بالاسواق ويتفحص الاوزان والمكاييل
 من الغش وينظر في معاملات التجار^(٥) ان تكون جارية على سنن
 العدل والرحمة حتى لا يقوى الامير على الصعلوك ولا الغني على
 الفقير فان الارتزاق واجب على العقلاء من الملوك ان يهدوا سبله
 لاهل الحاجة أكثر منه للمتمولين المنسحقين للتجارة . وان هؤلاء لكثير
 في بغداد يتعرضون لشراء الغلات والسلع بما يفرضون لها من الثمن
 الجبس ثم يبيعونها بما يشاءون من الغلاء وهذا تعاون منهم يفضي الى
 فساد التجارة^(٦) بين العوام ويضر بها مثلما أضرت تجارة أبي جعفر

(٢) اغاني

(٢) اغاني ٢ * ٨٢ و ٥ * ١٦١

(١) اغاني ٣ * ٨٥

(٥) اغاني ١٧ * ١٠٨

(٤) الف ليلة وليلة

٢ * ١٥٤ و كليات ٢٩

(٢) المقدمة

في عمران بغداد كما تقدم في موضعه من الكتاب
 وقد اخبرني الرشيد في بعض مجالس البيهانه يروم ان يصلح
 معاملة التجار ويعبر تقدير الدنانير والدرهم على وزن واحد
 صحيح^(١) ولكنه لم يباشر ذلك الى هذا اليوم مع انه اصح ما يكون
 للتجارة . وان كان ضرب السكة في الاسلام قد صدر عن نكايه
 وقعت ضغائنهما بين عبد الملك وقيصر الروم كما هو معروف^(٢) فقد
 اصبح اليوم من الضرورة ان تقدر اوزان الدرهم والدنانير بعد ما
 ساءت المعاملة بها في تادية الخراج وسوق التجارة . وقد كان
 العرب قديماً يتعاملون بالذهب والفضة وزناً^(٣) وبين ايديهم دنانير
 الفرس والروم التي يقال لها الكسراوية والقيصرية فلما ذهبت
 سباجذة الاسلام وصارت الخلافة الى غير اهلها من الامويين وقد
 اغفلوا عن امر المعاملة بما تشاغلوا به من امر نفوسهم تفاحش الغش
 في التجارة وصارت تنسب الى الروم سكة ليست من ضربهم ولا من
 ضرب الفرس فيما يتدعون من الدنانير القيصريّة والكسراوية فعني
 عبد الملك من بني أمية (وكان من فضلاء ملوكهم ان صح ان يكون
 فيهم فاضل^(٤)) بتمييز المغشوش من الدنانير والدرهم فضرب السكة
 في دمشق وصرّفها في سائر النواحي والامصار^(٥) ولكن من غير ان

(٢) المقدمة ٢٢٧

(٣) الاثنيدي ٢٧٤

(١) المحاضرة ٢ * ١٧٤

(٤) الاثنيدي ٢٧٤

يقدَّر أوزانها فبقي منها الخفيف^(١) والتقيل والبين بينَ ولذلك لم
يسهل انطلاقها في معاملة التجَّار حتى اذا تنبَّه لما فاتته من تقديرها على
وزن واحد واحبَّ ان يميز القديم منها عمد الى تعيين السنة على
السكة المقدَّرة الصحيحة بعد ان كان يضربها وهي خلوة من التوقيت
الأبركة الله في احدى الوجهين واسمهُ في الوجه الآخر. وهذا كان
منشأً اخلاف اهل التاريخ لهذا الزمان في أول من ضرب السكة
التي ليس فيها توقيت فيقول بعضهم انها من ضرب عمر^(٢) رضي الله
عنه ويقول آخرون انها من ضرب مصعب بن الزبير^(٣) ويقول
غيرهم انها من ضرب معاوية بن ابي سفيان حتى انهم يزعمون انه
صوَّر عليها نفسه متقلداً سيفاً^(٤) كأنه فاتهم علم موضعه من خلافة
النبي صلى الله عليه وسلم وحرصه على متابعة الشرع واتباع الدين.
الآن هذه الاقاويل عارية عن وجوه الاثبات ولم يقع اليها من
الدنانير الموقوتة الا ما ضربته عبد الملك المقدم ذكره في السنة
السابعة والسبعين من الهجرة الشريفة وعليه جرى الخلفاء بعده في
ضرب السكة بان يرسوموا عليها بركة الله من الوجه الواحد^(٥) وعلى
دائره "محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين

(١) الاغانى ٤ * ١٠٤ (٢) المتريزي (٣) ابن خلدون ٢ * ٤٥

والموردى ٢٦٦ (٤) الديبيري والانبليدي (٥) الانس الجليل ١ * ٢٤٠

والمخاضرة ٢ * ١٢٠ وانليدي ٢٧٤

كله^(١) واسمهم من الوجه الآخر بجوْطونه بتعيين السنة وذكر البلد الذي يضربون فيه السكة

اما الاوزان المقدرة فان المسلمين كانوا يتعاملون بالدرهم الطبري وهو اربعة دوانق والدرهم المغربي وهو ثمانية والدرهم البني وهو ستة والدرهم البجلي (وهو الذي يقال انه ضرب في خلافة عمر رضي الله عنه على وزن الدراهم الكسراوية) وهو ثمانية دوانق فأمر الحجاج ان ينظر الاغلب في المعاملة فكان البجلي والطبري وهما اثنا عشر دانقا فاتخذ ما بينها لضرب السكة وقدر الدرهم ستة دوانق . واما وزن المثقال الذهب فهو وزن درهم وثلاثة اسباع الدرهم حتى اذا جمع عشرة دراهم كان وزنها سبعة مثاقيل^(٢) . والناس يتعاملون بالسكة لزماننا هذا على تقدير الحجاج الا ان ما في ايديهم منها مختلف الاوزان (فلان تناول الدولة منهم في الخراج الا الدنانير العباسية والدنانير المسماة^(٣) بالخالدية واليوسفية والهبيرية وهي اجود النقود التي ضربها بنو امية^(٤) على يد عمالم في العراق مثل ابن هبيرة ويوسف بن عمر وغيرها) ولذلك رأى الرشيد ان يقدرها على وزن واحد صحيح حتى لا يبقى للغش في التجارة سبيل ولا يحصل من الخراج عنف بالتحصيل

(٢) الماوردي ٢٦٦

(٣) المقدمة ٢٢٧

(٤) سورة التوبة

(٥) ابن خلدون ٢ * ٤٥

زينة الدولة بالعلم والأدب

هذا الماعُ بذكر محاسن دولة الرشيد وإنما لدولة نصرٍ وخيرٍ
 وصلاحٍ كما علمتَ فاحدثَ أهل الأخبار عن الإسلام أنه كان في
 دول الخلفاء أعزَّ جانباً ولا أوسع رقعة مملكة^(١) منه في خلافة
 الرشيد . ولعمري أن الملوك الذين يتعهدون النصرُ مثله في جميع ما
 يباشرون من الأعمال قليلٌ في العالم . فأرايتُهُ والبرامكة أعوان له
 قد نكب في حروبه قط ولا توجهت عليه هزيمةٌ وإنما اعزَّ الإسلام
 باجتماعه في المشرق كله اليه^(٢) ورعى ملوك الأعاجم بسهام بأسه
 وعصفت ريمحة بهم من الروم وسائر الفرنجة . وهذا شرفٌ للسيف
 لم يناله المسلمون فيما تقدم لهم من الدول المتغلبة مقرونًا بشرف العلم
 وجمال الحضارة . فكفى بشرف دولته عليها أنه اجتمع ببابه من^(٣)
 الوزراء والقواد والامراء والعلماء والفقهاء والادباء والمحدثين
 والشعراء والرواة والقراء والندماء والمغنين ما لم يجتمع على باب
 خليفة غير قط^(٤) . فان البرامكة وزراؤه وابا يوسف قاضيه وهرثة
 بن أعين أمير جنده^(٥) والعباس بن محمد عم ابيه جليسه^(٦) ومروان
 بن ابي حفصة شاعره والاصمعي محدثه وابا نواس نديمه والفضل

(١) الفخري ٢٢٢ (٢) ابن الاثير كتاب ٦ (٣) الماوردي ٢٢

(٤) الخبيس ٢ * ٢٢٢ والفخري ٢٢٢ (٥) ابن الاثير كتاب ٦ (٦) الخبيس

من آل الربيع حاجبة وإبرهيم وإسحق مغنياه وابن بخنيسوع جبريل^(١)
 وبني ماسويه أطباؤه^(٢) والعلماء والأدباء والشعراء كلهم قيامٌ على
 بابيه لا يفارقونه في سفر ولا في حضرٍ حتى أنه ليطلب شاعره في
 أطراف الليل^(٣) فيجده متردداً في مقاصير القصر

وإنما قرَّب العلماء إلى الرشيد ما في نفسه من الميل إلى الأدب^(٤)
 والمحرض على إحراز العلوم^(٥) حتى كانوا إذا اجتمعوا في مجالسهم
 بداره سئى إلى مناظرتهم^(٦) من حيث العلم والتواضع له لا من حيث
 السيادة عليهم وهو بموضعه الجليل من الخلافة . وأنا لا أريد بذلك
 أن التواضع طبيعة في نفسه لأنه لو لم يأتِه الكبر من ناحية العلم
 لآتاه من ناحية السلطان وكلاهما داع إلى الإعجاب بالنفس . فكثيراً
 ما كنت أراه إذا انتصب في عرشه احتمل أن يمدح بما يمدح به
 الأنبياء وهو لا ينكر ذلك ولا يردده^(٧) . إلا أن تواضعه للعلم كان فيه
 سياسة يرجو بها صلاح دنياه في استمالة العلماء إليه وقيام ملكه
 باجلال العلم والدين

أما أدبه وفضله^(٨) ومحبتة للحكمة وسعة اطلاعه ووفرة مادته في
 جميع أنواع العلوم فهو الأمر المشهور الذي لا خلاف فيه رأيتُهُ يتوسع

(١) الفخري والمسعودي ٢ * ٢١١ (٢) أبو الفرج (٣) الأغاني والف

ليلة والآنليدي (٤) الاسحاقى ٩. والفخري ٢٣٠ (٥) الشرفاوي ١٢٢

(٦) الفزوي ١٥٣ (٧) اغاني ١٢ * ١٨ (٨) الفخري ٢٢٣

في فنون الادب الى ان يقول الشعر فيما يعرض له من تصوّرات اهل
الغرام فاذا دخلت عليه عرضه عليّ في سبيل الفكاهة . فمن ذلك
قوله^(١) في جارية تركية له

ياربة المنزل بالفرك وربة السلطان والمملك
ترقى بالله في قلنا لسنا من الديلم والترك
وقوله في رثاء جارية رومية له يقال لها هيلانة^(٢) وقد غادره عليها
من الأسف ما لم يتسع في صدره له مجال

تأسبت أوجاعاً واحزاناً لما استخصّ الموت هيلانا
فارت عيشي حين فارقتها فما أبالي كيفاً كانا
قد كثر الناس ولكنني لست أرى بعدك انسانا
والله ما انساك ما حرّكت ربح باعلي النجد أغصانا

الى غير ذلك . وكان من الفضل بحيث ان مادبه لم تخل قط من عالم
أو أديب أو شاعر وكان يستدعي اليه العمري والفضيل بن عياض^(٣)
وابن السماك^(٤) الكوفي وغيرهم من الاولياء فيجاورهم في مسائل
الدين^(٥) ويبيكي من مواعظهم^(٦) في غرور الدنيا وقيم بواجب
الاحترام لعلمهم حتى اذا جلس معاوية المحدث الضير الى طعامه

(١) السبوطي والاعاني ١* ٨٦ (٢) السبوطي (٣) الخبث ٢* ٢٢١

والاسحقاني ١٠ والمقدمة ١٥ والمستطرف ١* ١٠١ (٤) المقدمة والسبوطي

(٥) سراج الملوك ٢٠ (٦) سراج ٢٨

قام من موضعه وصب الماء على يده اجلالاً للعلم^(١) فقال له معاوية
والله ان تواضعك في شرفك لا شرف من شرفك^(٢)

اما زينة الدولة من الادباء فهم ثلاثة اسحق بن ابراهيم النديم
وعبد الله الاصمعي والحسن بن هانيء المعروف بابي نواس وكلامهم
امام في العلم الا انه غالب على اسحق الغناء وعلى ابي نواس الشعر
وعلى الاصمعي الاخبار والنوادر والملح. فاما اسحق فانه بمكان جليل
من الادب وقد اتخذ خزانة كتب جمع فيها من مدونات العلم ما
ليس عند الذين يعنون بجمع صنف واحد من صنوفه مثله فيقال
انه جمع من كتب اللغة ما ليس مثله الا عند ابن الاعرابي^(٣). وله
مقام سام بين العلماء يهدون اليه كثيراً من تأليفهم ودواوينهم
كأبي نواس وابن ابي عيينة^(٤) وابن الاعرابي^(٥) وغيرهم تنشيطاً لعلمه
وأديه لان انصيابه الى الغناء لم يكن على طريقة التعيش وإنما هو
ميل بنفسه الى محاسن الادب والصناعة فكان يترفع عن ان يغني
الا في دور الرشيد والبرامكة^(٦) وكانوا اذا حضر مجالسهم يؤثرون
محاورة في العلم^(٧) على جلوسه اليهم في صفوف المغنين^(٨) كنت اسمع
الرشيد يقول لو لم يشتهر عليه لقب المغني لوليت القضاة على المسلمين^(٩)

(١) الفجري ٢٢١ (٢) السبوطي

(٣) ابن خلكان ١ * ٩٢ (٤) اغاني ١٨ * ١٢ (٥) اغاني ٥ * ٥٥ (٦) اغاني (٧) اغاني

(٨) ٥٤ * ٥ (٩) اغاني ٦ * ٦ (١٠) ابن خلكان ١ * ٩١

ووجدتُ في نفسه من الميل اليه بحيث أنه كان يقصدهُ الى دارهِ^(١) اذ طال عليه الغيبة منه فكنتُ يوماً بدارهِ وهي بباب الشماسية^(٢) من الجانب الشرقي تلقاء قطربل^(٣) فجاء الخليفة على حمار صغير أسود وهو الحمار الذي يركبه في القصر للنزهة^(٤) ومعه خمسة نفر من خدمهِ وعلمانه^(٥) فقام استحق بحق الواجب من اكرام وفادته وأخرج الحلوى الى خدمهِ بما كفى الجمع كله ثم أشار الى جواربه ان يجلسن للغناء ويخرجن سفرة المدام فقال الرشيد ليس هذا وإنما شوق في النفس دعاني الى الانس بقربك

اما الاصمعي فانه قدم بغداد^(٦) في خلافة الرشيد وفي جملة من وفد عليه من العلماء. وهو إمام في النوادر^(٧) والاخبار وامام الناس ومشهور له بصدق الرواية حتى اذا حدث يوماً عن ملوك أمية وقال ان سليمان كان نهماً واذا قدم اليه السماط لا يصبر حتى يبرد بل يتناول اللحم بكمهِ وان يزيد كان اذا جلس للشراب يسقط الخمر في ثيابه صاح به الرشيد قاتلك الله ما اصدقك في نقل الاخبار والله ان ثيابها عندي وان الدهن اني اكام سليمان والخمر اني ثياب يزيد^(٨).

(١) اتلدي ٢٨٦ واغاني (٢) اغاني ٧ * ٥ (٣) المسعودي ٢ * ٢٨٥

و ٢٩٧ (٤) اغاني ٥ * ٢٠ و ٤٦ (٥) ياقوت ٤ * ١١٨ (٦) ابن

خلكان ١ * ٤٠٨ (٧) الشريشي ٢ * ٢٧٩ (٨) المسعودي ٢ * ١٢٨

وخلكان ١ * ٤١٠ وتزيين الاسواق ١ * ١٤٢

على انه لم يكن بيني وبينه مع طول المدة التي أقمتها في بغداد قرب
 ولا ائتلاف لا تقطاعه عن مجالس البرامكة فكنت القاهُ بدار الرشيد
 واسمع ما يحكيه على ظرائف بغداد ومحدثه به من طرائف الاخبار
 فأراه لا يغفل عن نادرة مليحة الا ويذكرها له ولكن بالكلام الذي
 يكاد يذوب من الرقة والحلاوة وكنت يوماً بين يديه وقد بدر من
 رجل ظريفة فالتفت اليه وقال له حررها يا أصمعي^(١). وقد اخبرني
 بعض اصحابه انه كان في صباه قد أقام بالبادية وجلس الى العربان
 ووقف على اخبارهم وشاهد ما لهم من المجالس والاسواق وما ركب
 الله فيهم من السجايا والاخلاق وما وقع لبناتهم مع الشعراء والعشاق^(٢)
 فحدثها في بغداد وانطلق اسمه بين الناس فيما هو آخذ بكلامه بين
 الرشافة والبلاغة حتى صار علماً في المدينة وصار يتفق له نوادر^(٣)
 فيها لم يسمع احدٌ بأعجب من حديثها فيما يتناقلونه من الطرائف
 واما ابو نواس فان الشعر هو الذي يقدمه اليوم عند الرشيد
 وقد كان يحدثه من قبل بنوادر الناس ولكن من غير ان يفكه
 باعراضهم ثم أعرض عن ذلك فقال له في ذات الايام حدثنا يا
 ابا نواس فقال لا والذي اكرمك بالخلافة فقال بجباتي^(٤) الاما قلت
 شيئاً قال كان الكذب عملي واليوم هجرته يا امير المؤمنين^(٥) فضحك

(١) المسعودي ٢ * ٢١١ (٢) الف ليلة وليلة (٣) اتليدي ٦٦

وحلبة الكعبت (٤) اغاني ٦ * ٥٧ (٥) المعتطف ٢ * ١٠

وقال هذا أحب إلي من الحديث . وله كلام ظريف في المجون
والخلاعة^(١) وما جريات تدل على خفة روحه . وكان اسحق يتعصب
له^(٢) ويشيد بذكره ويجهر بتفضيله ويحلب له الردف من الرشيد
(ويحط في قدر الاصمعي لعداوة^(٣) وتنافس بينهما) حتى أخذ المقام
الاول بين الندمان وبنى لنفسه في نهر طابق^(٤) الدور^(٥) التي لم يكن
مثلها عطاء الناس وذلك بينا الاصمعي كان يتدين من أصحابه^(٦)
ويستقرض منهم المال . ومن خلال أبي نواس الماثورة انه يبيل مع
اهل البيت سرا لا يجسر على المجاهرة به حتى قيل له لقد ذكرت كل
معنى في شعرك وهذا علي بن موسى الرضا في عسرك لم نقل فيه شيئا
فقال والله ما تركت ذلك الا اعظاما له وليس قدر مثلي ان
يقول في مثله^(٧) وانشد

اني لا استطيع مدح امام
كان جزيل خادما لابي
اه . وانما حصل على مكانته عند الرشيد بانه كان اذا اصبح اليه
سأل خواص اهل بيته عما يكون في نفسه او يكون جرى له في
ذلك الوقت ثم ينشده اشعارا لطيفة في مطابقة ذلك^(٨) فيطيب لها
نفسا . ولقد كنت يوما بداره وكان قد دخل متصورة جارية على غفلة

(١) الكثر ٩٤ (٢) اغاني ٥ * ١٠٧ (٣) الشريشي ٢ * ٢٨٤

(٤) ابن خلكان ١ * ٢٩٥ (٥) اغاني ٢ * ١٦١ (٦) المستطرف ١ * ١٢٢

(٧) ابن خلكان ١ * ٤٥٧ (٨) الف ليلة وليلة والاتيدي

منها^(١) فوجدتها تغتسل وقت الظهر فلما رأته تجلّت بشعرها حتى لم
يرَ جسدها فأعجبه ذلك منها^(٢) فلما دخل عليه أبو نواس أشده^(٣)
نصّت عنها القميصَ لصبّ ماءٍ فورّد وجهها فرط الحياء
وقابلت الهواء وقد تعرّت بمعتدلٍ أرقّ من الهواء
ومدّت راحةً كالماءِ منها إلى ماءٍ معدّ في إناءٍ
فلما إن قضت وطراً وهمت على عَجَلٍ إلى أخذ الرداء
رأت شخص الرقيب على التداني فأسبلت الظلام على الضياء
وغاب الصبح منها تحت ليلٍ وظلّ الماءُ يقطر فوق ماءٍ
فسجّان الآلهِ وقد براها كاحسن ما يكون من النساءِ
وهذه الأبيات هي من جيد الشعر وكأنها أرقّ من الهواء كما في كلام
صاحبها فقال له الرشيد على سبيل الاستغراب سيفاً ونطعاً يا غلام
فقال أبو نواس ولم يا أمير المؤمنين قال أمعنا كنتَ قال لا وأيد
الله أمير المؤمنين وإنما شيءٌ خطر لي بالبال فقال والله أبيت
الأظرفاً^(٤) ثم أمر له بعشرة آلاف درهم^(٥)

(٢) المستطرف ٢ * ٢٤

(٣) اتلدي ٩٥ و ٩٦

(١) السبوطي

(٥) اتلدي ٩٦

(٤) اغاني ٩ * ٧١

الرسالة السادسة

دار الخلافة وداخلية بيت الرشيد

لقد مضى بي في بغداد بعد العودة من خراسان نحو من ست سنين ما زلت منقطعاً فيها الى البرامكة وحافظاً لمقامي في الدولة تحت ظلم وعنايتهم . وكنت اتردد في خدمتهم الى دور الخلافة فاقف على أحوال الرشيد في داخليته واهل بيته فرأيتُه اعزّه الله صالح السيرة شديد الاعراق في الدين محافظاً على اوقات الصلوة^(١) وشهود الصبح لأوّل وقتها يصلي في كل يوم وليلة مئة ركعة لا يتركها الألعنة تطراً عليه^(٢) واذكرانه لما حصل في العام لزينة وغلاء سعر للناس واشتد الكرب عليهم اشتداداً عظيماً أمرهم بكسر الملاهي وكثرة الدعاء والتوبة^(٣) فذلك دليل فيه على حسن العبادة او مظهر يروم منه تأييد الدولة بايهام الأئمة والعلماء ان الاسلام مغتبط بمناحيه ...

ولئن كنت رأيت له في تدبير المملوك ذلك التصرف الحجيل فاني ما وجدته له في تدبير اهل بيته ومواليه وانما يرجع الرأي في ذلك الى زوجته أم جعفر وهي انفذ نساء العباسيين كلمة في الدولة

اذ كانت خير بنات بني هاشم وقد ربيت على مهاد الدعة والدلال
 كما يشير اسمها اليه فانها سميت بزبيدة لغضاضة بدنها^(١) وكان جدّها
 أبو جعفر يرقصها تهلاًللاً بها^(٢) وينظر الى غضاضتها وملاحظتها فساها
 بزبيدة لذلك. فلما بنى بها الرشيد ووجدها طرفة حديثٍ ومن صدر
 رأيٍ جميل لم يربداً من الاتقياد اليها في قضاء جميع ما ترومه من
 الخواجج^(٣) حتى اذا مكنتها من بيوت المال انفقت من سعة ما ينيف
 عن ثلاثين الف دينار. فبنت مسجداً مباركاً على ضفة دجلة
 بمقربة من دور الخلافة يسمي بمسجد زبيدة^(٤) ومسجداً سامي الحسن
 في قطيعتها المعروفة بقطيعة أم جعفر^(٥) بين باب خراسان وشارع
 دار الرقيق^(٦) وحفرت العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز ومهدت
 الطرق للماء في كل خفض ورفع وسهل ووعر^(٧) حتى اخرجتها
 من مسافة اثني عشر ميلاً الى مكة^(٨) فبلغ جملة ما انفقت عليها الف
 الف دينار وسبعماية الف دينار^(٩). وهذا من الاعمال التي لم تباشرها
 امرأة في الاسلام الا الخيزران أم الرشيد فانها عمرت كثيراً من
 المساجد^(١٠) ايضاً وبنت دار ابن يوسف بمكة التي ولد فيها النبي

(١) اغاني ٩ * ١٠٢ (٢) الشريشي ٢ * ٢٤٥ (٣) انليدي

(٤) الف ليلة وليلة ١ * ٨٢ (٥) ياقوت ٤ * ١٤١ (٦) ابن خلكان

١ * ١٨٩ والمستطرف ١ * ٢٨٩ (٧) المسعودي ٢ * ٤٠٢ (٨) ابن

جبير ١٧٢ (٩) الشريشي ٢ * ٢٤٥ (١٠) ابن جبير ٢٧٦

صلى الله عليه وسلم مسجداً جزيلاً البركة ^(١). وتوفرت عندها الاموال حتى بلغ الذي خلفته معها توسعت فيه من النفقة مئة الف الف درهم ^(٢). فان لم يكن لزبيدة من الاموال الخاصة ما يبلغ هذا القدر الجسيم فان لها بالسياسة رأياً يسمو بها الى التداخل في امور الدولة كآفطن ما يكون من الرجال

وقد صير الرشيد الامر في داخلية بيته بعد زبيدة الى مسرور خادمه العبد ^(٣) وهو حاجبه وسيد مواليه ^(٤) وله في قصور الخلافة دواوين يقيم فيها حوزته من خدم وحرّس وغلّمان والكاتب له هو زياد بن ابي الخطاب ^(٥) يقيم بقربة من مجلس يوسف بن القاسم صاحب ديوان الانشاء والذي قام ^(٦) بين يدي الرشيد حين أخذت له البيعة على المسلمين. وفي ذلك دليل على مكان كتابه من الشرف وعلو المرتبة ولا غرو فان له من نفاذ الكلمة في الدولة ما ليس للامراء والمحكام مثله اذ كان سيد دور الخلافة والحارس لها لا يدخلها شيء ولا يخرج منها شيء الا بعلمه واذنه. وكثيراً ما كنت أرى الملوك يتزلفون بالهدايا اليه ليخاطب الرشيد في حاجاتهم اذ ليس في اهل بيته من يجترأ عليه سواه ^(٧) حتى كان اذا ركب لا يجسر احد على سؤاله الى ابن يذهب غيره ^(٨)

(١) المسعودي ١ * ٣٠٦ (٢) المسعودي ٢ * ٢٠٧ (٣) الف

ليلة وليلة (٤) ابن خلدون ٢ * ٢٢٣ (٥) اغاني ٤ * ٩٩

(٦) المحاضرة ٢ * ١٤٢ (٧) الانبدي (٨) اغاني ٩ * ٩١

والى مسرور هذا الخصي الامرُ فيما هو خاصٌ بالسرايري والقبان
 وانهنَّ لكثيرةٌ في دار الرشيد يبلغن زهاء ألفي^(١) جاريةٍ يرفلن في
 احسن زيٍّ من كلِّ نوعٍ من انواع الثياب والجوهر... غير ان
 المقدم عليهنَّ ثلاث اهداهنَّ اليه الفضل بن الربيع سحر وضياء
 وخنث ذات الخال هنَّ صورة تستنطق الافواه بالتسبيح وعيونٌ
 لا ترندُ الاً باقتناص النفس وهنَّ اللواتي يهوهنَّ ويقول فيهنَّ
 الشعر^(٢) ومن ذلك قوله

ان سحرًا وضياءً وخنث هنَّ سحرٌ وضياءٌ وخنث
 أخذت سحرًا ولا ذنبٌ لها ثلثي قلبي وترباها الثالث

وقوله^(٣)

ملك الثلاث الانسات غناني وحلَّلتن من قلبي بكل مكان
 مالي تطاوعني البرية كلها واطبعهنَّ وهنَّ في عصياني
 ما ذاك الا ان سلطان الهوى وبه قوين اعزُّ من سلطاني
 وكنت اذا حضرت مجلسه وهنَّ يغنين له من وراء الستارة^(٤)
 ومعهنَّ غانيةٌ منقطعة الى حمدونه بتنه^(٥) يقال لها دفاق^(٦) لم يطق
 الستران يحجبهنَّ عن نظره فيخرجهنَّ اليه ويقول والله لا صبر لي
 على الحجاب وانما هو ضعفٌ يبيل بي مع هوى النفس...

(١) اغاني ٩ * ٨٨ (٢) اغاني ٥ * ٦٧ و ١٥ * ٨١ (٣) اغاني

١٢ * ١٥ و ٨١ وترين الاسواق والفوات ٢ * ٢٩١ (٤) اغاني ٥ * ١٢

(٥) اغاني ٧ * ٩١ (٦) اغاني ١١ * ٢٨

اما حريم الخلافة فانه دوائر كبيرة^(١) لا اتصال لها في بعض
ولكل هاشمية من بنات الخلفاء دائرة منفردة عما سواها من الدوائر
واعظمتها دائرة ام جعفر ودائرة اولاد المهدي ودائرة اولاد الهادي
ودائرة اولاد الرشيد من غير زبيدة وزوجها . ولهن جميعا من الخدم
والغلمان والنحسيان^(٢) ما ينتهي اليه اسراف الملوك في السعة وينجلى
به جمال السلطان بالزينة والاشراق . وحسي من انفاسهن في
النعيم وتقلبن على مهاد الدعة والرخاء انهن يجلسن على فرش
الحريرو ويتخذن اخذات حشوها من الورد الثير^(٣) وكنت ارى
الجواري من خدم الحاشية يلبسن الوشي المنسوج بالذهب ويتخذن
العصائب مكللة بالجواهر وهذه هي الزينة التي عمت نساء القصر
اقتداء بطيبة اخت الرشيد اذ كانت اول من اتخذت العصائب لعيب
في جينها فسترته بها فكان ذلك احسن ما ابتدعه النساء^(٤) ثم
اتخذها بعدها سحاء جارية اسحق النديم^(٥) وفريدة ومنة من مغنيات
البرامكة حتى انطلق استعمالها في جميع النساء وصرن يكتبن عليها
الكلام الذي يروق لاهل الهوى كما مر في موضعه من الكتاب
اما لباس الرشيد فهو لباس غير من العباسيين السواد^(٦)
لا يتأق فيه الا بما تقتضيه الرسوم المحفوظة وانما ينصرف همه الى لذة

(١) الاغاني (٢) اعلام الناس (٣) الاشعبي (في باب الزهد)
(٤) اغاني ٩ * ٨٢ (٥) الكنتز ٤٦ (٦) ابن خلكان ١ * ١١

المطعم بالتأنيق في صنوف الألوان. وقد جلست^(١) إلى طعامه أكثر من مرة في مجلس كامل الزينة مفروش بالرخام الأخضر وملبس بالوشى المنسوج بالذهب^(٢). فرأيتُه يتفنن في طعامه على غير شره بالأكل. يبدأ بالمرق من السكباغ وغيره تنشيطاً لجسده ثم يأكل الفاتر من الطعام من البقول وأشباها ثم الدجاج وأنواع الطير ثم الشواء ثم أنواع السمك ثم ما يُطبخ بالتوابل من اللحم والبقول وغيرها حتى تكاد مائدته الأتخلو من السنبوسج وهي^(٣) رفاق تحشى باللحم والدهن عليه التوابل من الفلفل والزنجبيل ثم تعلق بالزيت وتطرف بالخردل^(٤). وهو يتخلل طعامه كله بتناول اليسير من التوابل أو الحوامض التي تشبهه إليه فإذا اكتفى منه تناول الحلوى من اللوكة والريبكة والموزنج والفالودج وغيرها ثم الفاكة بعدها ثم النقل^(٥) وهو الذي يتناوله بعد طعامه للتعلل ولكن بالصحاف التي ليس اطرف منها في تحف الصين ولا أعلى ثمناً وقيمة. فكنت احسب لشدة تأنيقه بفنون المطعم انه لو لم ينه النبي صلى الله عليه وسلم عن الأكل في صحاف الذهب والفضة^(٦) لاتخذها كذلك ونزل فيها البواقيت والجواهر. فإذا اكتفى من التعلل جاءه الغلمان

(١) اغاني ٥ * ٢٤ (٢) اغاني ٢ * ١٨٤ (٣) المسعودي ٢ * ٤٢٦

(٤) اغاني ١ * ٢٦ (٥) ما ذكر من تعاقب ألوان الطعام مأخوذ عن الف

لبلة ولبلة ٢ * ١٠٢ والمسعودي ٢ * ٢٢٠ والابشمي ١ * ٨٤ (٦) الانليدي ٩

بماء الورد المسك^(١) في التمام الذهب وبشيء من الریحان فيغسل
يديه ويتجبر. فاذا كان بعد الغداء دخل مخدعه للقبولة^(٢) وإذا
كان بعد العشاء جلس للمغنين والندمان. كذلك عاداته من
يوم ولي الخلافة

وكذلك اولاد هذا الخليفة كلهم مترف وواسع في البذخ إلا
احمد فانه يحاول العزلة ويقعد مقعد ضناً ويتكسب بيده شيئاً
ينفقه على نفسه مع مقدرة ابيه كلها^(٣). اما القاسم فانه ذو كبر شديد
ونعمة طائلة وبذخ زائد واليه ينتهي حال ولد الخلافة^(٤) وكان
ابوه قد طوقه امر النداء الذي وقع بين المسلمين والروم بعيد
عودتي من خراسان فخرى ذلك على يده^(٥) وعمره يومئذ احدى
عشر سنة فتزاحم ركب الملوك على بايه ومكته ابوه من بيوت المال
فهو لهذا اليوم يتخذ القصور المزخرفة ويشترى الجواري والقيان^(٦)
ويقوم مجالس للشعراء والادباء والمغنين والندمان عنده ويصلهم
بالهبات الواقرة ويقطعهم الضياع^(٧) العامرة الى ان يصيب بعضهم
ناحية ما لا يصيبه في جوائز ابيه^(٨) من المال
أما الأمين والمؤمن وليا العهد فانها دونة في البذخ والإسراف

(١) انليدي ١١٢ (٢) اغاني ٥ * ١١ والمستطرف ١ * ١٢٢ (٣) ابن

خلكان ١ * ٧٥ (٤) اغاني ٩ * ٩٦ و ٣ * ١٥٩ (٥) ابن الاثير ٦ * ٥٧

(٦) اغاني ٢ * ٥٧ (٧) اغاني ٤ * ١١٦ (٨) اغاني ٢ * ١٦٨

ولا سيما الأمين يوم انه غزير العقل وان كان ضعيفه^(١) وبتخذ
 الوقار برقماً على وجهه لما يحدث به نفسه من مصير الخلافة اليه
 ولانه ابن هاشمي وهاشمية كالذي لم يتفق لغيره من الخلفاء لان
 ابا العباس و ابا جعفر والمهدي والهادي والرشيد كلهم ابنا سراري^(٢)
 اما المأمون عبد الله فهو زينة اولاد الخلفاء وسمته سمه خير وفضل
 وعفاف لم ار في ابيه خلة من الخلال المحموده ولا خلقاً من الخلائق
 الرضية الا وجدتها في نفسه طبيعة تسموه الى ارفع مقام في ادب
 الدنيا والدين. ولم ار في اولاد الملوك من يتعشق العلوم^(٣) الحكيمه على
 حدائنه سنه وقيم في مجالس العلماء والشيخ لمناظرتهم^(٤) في جميع
 انواع العلوم مثله. فما اذكر اني دخلت عليه مرة الا واصبته في
 مجلس حافل بالادباء والعلماء وهو متوسط فيهم كالشمس من
 حولها الضياء. وقد قصدت مجلسه من مدة قريبة مع جعفر اعز الله
 ملكه فالفيت^(٥) بحضرته جماعة من الادباء منهم الخريزي والعباس
 بن زفر ومنصور الثمري وهو السليم شعره من العيب لولا ان فيه
 طعناً بالشيعة يرجو به نوال رضى العباسيين عنه ومحمد الراوية المسمي
 بالبيدق لقصره وهو المنشد للرشيد اشعار المحدثين^(٦) وفتي من امراء

(١) المسعودي ٢ * ٢٢٥ (٢) السيوطي (٣) المقدمة ١٨

(٤) الدميري ١ * ٩٨ والمسعودي ٢ * ٤٠٢ (٥) اغاني ١٢ * ٢٢

(٦) اغاني ١٢ * ٢٠

آل نوبخت يقال له الفضل بن سهل وهو خليل المأمون^(١) وهديفة
لا يبصر على فراقه في نهار ولا ليل حتى كان اذا ركب في موكب
اركبه معه على الخيائب المنصوبة بالحناء وعليها القطوع والديباج^(٢)
وكان بمقربة من المأمون جماعة من النخاعة قد أحدقوا به إحداق
الهالة بالتمر ومنهم الكسائي^(٣) وابو محمد^(٤) مؤدباه يتباحثان معه
في مسائل النحو فكنت اسمعه يقول لم زيد على الرفع والكسائي
يعارضه ويقول زيدا منصوبة بأن فتطرح العلماء الحجة الاعرابية
التي دار عليها كلامهم ومناظرتهم وهي ان من خير القوم او ضيرهم
نية زيد فأجمع رأيهم على موافقة المأمون والمصادقة له^(٥) فتحققت فضله
في ذلك اليوم بنفسه وعرفت أنه يدخل العلوم من ابوابها لا تطفلاً
منه عليها شأن غيره من اولاد الملوك

وكان هذا الامير اذا انقلت عليه المطالعة ثنى انصابه الى ما
يجد فيه من التسلية ادباً وفائدة فلم يكن من الألعاب أحب اليه
من لعب الشطرنج يمارسه كآبئه^(٦) لاستنباط الحيل فيه حتى لم يكن
في الناس من يستطيع مقاومته عليها وهو يقول في وصفه هذه الابيات
أرض مربعة حراء من آدم ما بين الفين موصوفين بالكرم^(٧)

(١) الوطواط ١٤٢ (٢) اغاني ١ * ٨٨ (٣) المستطرف ٢ * ١٣

والمسعودي ٢ * ٢١٢ (٤) اغاني ١٨ * ٧٢ (٥) اغاني ١٨ * ٧٧

(٦) المسعودي ٢ * ٢٢١ والسيوطي (٧) المسعودي ٢ * ٦٠٤ والمستطرف

تذاكر الحرب فاحنا لالها شنبها من غير ان يسعيا فيها بسفك دم
 هذا يغير على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحرب لم تنم
 فانظر الى الخيل قد جاشت بمركة في عسكرين بلا طبل ولا علم
 واما لعبة بالاكرة والطباطاب^(١) ورميه في البرجاش الشباب
 وكرة بالصوالمجة في الميدان واقتناؤ ظرائف الطير والخيل
 والحيون^(٢) واتخاذ الديوك للمقاتلة فيما بينها والاكباش يناطح بها
 بين يديه فانها من ملذات الملوك^(٣) الذين يبلغون من الترف
 والترفة الى ان يعدوا امثال هذه الملاهي من باب المفاخرة والمباهاة
 فان كان يتخذها بما يدعوه اليه موضعه من الملك المترف فانه لا
 يفوته اتخاذ الاشياء التي تعود عليه من وراء الزينة والمكاشرة بفوائد
 من العلم والادب. فقد عني بجمع الشحف وغالى بطلبها من كل وجه
 حتى وعا عنده ظرائف الدنيا باسرها. وقد رأيت في بعض مجاميعه
 صندوقا وعاه خواتم الخلفاء كلهم من العباسيين والامويين والخلفاء
 الراشدين ومن كان يقوم بدعوة الخوارج بعدهم وفي صدر الدولتين^(٤)
 فكان جامعا لجميع الخواتم الا خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ولو لم
 يكن عثمان اضاعه في بئر اريس كما تواتر في الانباء^(٥) لما كفت عن

(١) المسعودي ٢ * ٤٠١ (٢) المسعودي ٢ * ٢٩٦ (٣) المسعودي

٢ * ٢٤١ و ٢ * ٢٨٦ (٤) في العقد الفريد والخميس والمسعودي والمثير يزي

و ابن الاثير ذكر كثير من خواتم الخلفاء (٥) ابن جبير ١٩٩ و ابو الفداء

طلبه حتى مجده وفي هذا المجموع وامثاله من المجاميع ادبٌ حاصلٌ
مع الفكاكة والزينة وهذا ما اذكره عن فضل هذا الامير وليس
هو الا النزر اليسير في جانب الكثير الواسع من فضله وادبه



جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم

اما دور البرامكة فانها من الجانب الشرقي بازاء دور الخلافة^(١)
ليس بينها الا عرض دجلة. وهي من البهاء والجمال والاشراق
بمكان^(٢) تسمي به قصور الرشيد لانهم بنوها على السعة التي لم يبلغها
احد من الملوك. ففي مظهر الانس ومحلى البهاء تغشاها الرسوم
والزخرفة من الداخل والخارج وابوابها متخذة من الجص المجسم^(٣)
ومجالسها^(٤) مفروشة بالوشى والبرسيم ومزينة بالتمائم الذهب^(٥)
والجمامات المنقوشة^(٦) والقوارير الفرعونية^(٧) وغيرها من الخف التي
تأتيهم من الملوك في سبيل التزلف والاستماله^(٨) وطبقتانها ملبسة
بأستار من الدباج عليها ابيات مرسومة^(٩) مما قالت الشعراء في
مدحهم وهي تأتيهم من مصنوعات الفرس لان العرب لا يعملون

- | | | |
|-------------------------|---------------------------|------------------|
| (١) الفزوني ٢١٠ | (٢) الدميري ٢ * ١٥٤ | (٣) المقدمة ٢٥٧ |
| (٤) ابن خلكان ١ * ١٥١ | (٥) الكثر ٣٦ | (٦) اغاني ٢ * ٢٧ |
| (٧) اغاني ٦ * ١٣٠ و ١٣٣ | (٨) المقدمة ١٤ والغري ١٨٦ | (٩) اغاني |
| ١٠٠ و ٨٦ * ٥ | | |

الطراز منذ نهاهم عبد الملك بن مروان عن ذلك^(١) ولا يكتبون على البسط والأسنار إلا لاله إلا الله^(٢) وذلك بخلاف الفرس لانهم يزينون نسجهم بالرسوم ويكتبون عليها ما يطيب لهم من الشعر او يتبركون به من الآيات

وقد اشتبكت عمارة البرامكة في حي لا يخالطهم به أحد وهي من السعة بحيث تنتهي من الشمال الى شارع المدينة^(٣) ومن الشرق الى درب دينار الصغير^(٤) ومن الجنوب الى باب الشماسية^(٥) وهو الموضع الذي فيه قصر مجي المعروف بقصر الطين^(٦) والمسماي بذلك معارضة لما أنفق عليه من الذهب واتخذ فيه من الزينة والزخرفة. وفي جوارهم موضع يقال له البردان^(٧) يشترون فيه الدور من الناس ويهبونها لمن هو طامع بهم من اهل العلم والأدب^(٨) لانهم قد رفعوا بيوتهم على قواعد الكرم والسماحة وكانت اعطياتهم كاعظم^(٩) ما يكون من اعطيات الملوك فان مجي اذا ركب يعد صرراً في كل صرة مائتا درهم ويدفعها الى المتعرضين له في الاسواق والشوارع^(١٠) وقد قالت الشعراء في ذلك

- (١) الانبدي ٢٧٢ (٢) الديميري وعلام الناس (٣) اغاني ٦ * ٧٨
 (٤) ابن خلكان ٢ * ٢١١ (٥) المسعودي ٢ * ٢٨٥ والاغاني ٥ * ٨
 (٦) اغاني ٥ * ٨ وياقوت ٤ * ١١٤ (٧) اغاني ٥ * ٨ والمسعودي ٢ *
 ٢٦٧ (٨) اغاني ٥ * ٧٢ (٩) المستطرف ١ * ٢٨٦ (١٠) الفخري
 ٢٤٠ وابن خلكان ٢ * ٢٦٢

يا سميَّ المحصور بجيِّ أُتَيْتَ لك من فضلِ ربنا جنتانِ -
كلُّ من مرَّ في الطريقِ عليكمُ فلهُ من نوالكم مئتانِ -
أما وقوفُ الامراءِ على بابهم^(١) فما لا تخضرنى عبارة أَرْضاها
للافصاح عنه وإنما للعين ان ترى ازدحام الخيل في ساحات قصرهم
واقفةً بالحفدِ والخدم والغلمان مما ليس على باب الرشيد مثله^(٢)
وكذلك إقبال المؤمنین عليهم من كافة الوجوه لأشهر من ان
أحاول في هذا الكتاب نعتهُ بالوصف الذي لا يعبر عنه القلم فقد
رأيتُ الناس يتصدونهم من أبعد الآفاق^(٣) ورأيتُ من العربان من
قصدا الفضل من أقصى قضاة^(٤) فلما سأله عن حاجته فاستجدهُ
عشرة آلاف درهم قال له قد ازدريت بنا وبنفسك يا اخا العرب
وانما تُعطى عشرة آلاف درهم في عشرة فلما اخذ المال انصرف وهو
يبكي فقال له الفضل ما بك اوك اُستقللاً بالمال الذي اعطيناك
قال لا ولكنني ابكي على مثلك تواريك الارض وياك ملك التراب
وانشد

لعمرك ما الرزية فُقدُ مالٍ ولا قرَسٌ يموت ولا يعبرُ
ولكنَّ الرزية فقد حرٌّ يموت لموته خلق كثيرُ
فنظر اليَّ الفضل بعد انصرافه وقال لي ان مثل هذا يقصدنا مرة

(١) الفخري ١٨٥ والمقدمة (٢) ابن الاثير والاتبليدي (٣) الفخري

(٤) الاتبليدي ١٨١

واحدةً في زمانه. ومن الامراء من نعمة باحساننا كل يوم^(١) ثم بغص
النعمة ويدب فيه مرض من الحسد فيكون من اشد الناس بغضاً
لنا وسعيًا في زوال ملكنا . . .

وقد انفجر البرامكة بالكرم^(٢) حتى صار يُضرب بهم المثل في
سعة العطاء فيقال فلان من الملوك يتبرمك^(٣). وقد اخبرني
المخازن القائم على بيت مالهم انهم يغلّون في كل سنة عشرين الف
الف دينار^(٤) فاذا انقضى الحول لم يبق منها في الخزائن دينار واحد.
فهم يخزون الكرم قاعدة في الحالين من نعم الدنيا ام بؤسها ويقول
يجي^(٥) ايد الله ملكه اذا اقبلت الدنيا فانفق فانها لا تفي واذا
ادبرت فانفق فانها لا تبقى وقال ابو نواس في مدحهم^(٦)

ان البرامكة الكرام تعلموا فعل الحجيل وعلومه الناسا
واذا هم صنعوا الصنائع في الوري جعلوا لها طول البقاء اساسا
وقال فيهم نصيب^(٧)

عند الملوك مضرةٌ ومنافعٌ وأرى البرامك لا تضرُّ وتنفعُ
ان العروق اذا استسربها الثرى أشر النباتُ بها وطاب المزرعُ

(١) الفخري ٢٤٠ والوطواط ٢٤٩ والعقد ٢ * ٢٤ والمستطرف ٢ * ١٩٢

واغاني ٥ * ١١٩ (٢) اغاني ١٢ * ٢٥ والاتيدي والفخري وابن خلدون

وابن الاثير والمستطرف ١ * ٢٨٦ والمسعودي ٢ * ٢٦٢ والاسماني ٩٩ (٣)

السيوطي والاتيدي (٤) العقد ٢ * ٢٨ (٥) ابن خلكان ٢ * ٢٦٤

(٦) اغاني ٢ * ٢٤ (٧) اعلام الناس

فاذا نكرت من امره اعراقه وقديمه فانظر الى ما يصنع
وقبل فيهم وهو منتهى المدح^(١)

انا بنو الامال من آل برمك فيا طيب اخبار ويا حسن منظر
لم رحلة في كل عام الى العدى واخرى الى البيت العتيق المستر
اذا نزلوا بطحاء مكة اشرفت بجي وبالفضل بن بجي وجعفر
فتظلم بغداد وتجلو لنا الدجي بمكة ماتحو ثلاثة اقر
فما خلقت الا لوجود اكفهم واقدامهم الا لاعواد منبر
اذا راض بجي الامر ذلت صعبه وناهيك من راع له ومدبر
وقال سلم الخاسر في بجي اعزه الله^(٢)

يا ايها الملك الذي اضحى وهنته المعالي
انت النوة باسمه عند الملمات النقال
لله درك من فتى ما فيك من كرم الخصال
وقال فيه آخر^(٣)

سالت الندى هل انت حر فقال لا
ولكنني عبد ليجي بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثه
توارثني من والد بعد والد

(٢) الوطواط ٢٤٩

(١) الاغاني كتاب ٥ والفخرى واعلام الناس ٢٨٢

(٢) اعلام الناس

وقال آخر^(١)

لا تراني مصافحاً كفّ بجبي اني ان فعلت ضيعت مالي

لو يسّ الخيل راحة بجبي لسخت نفسه ببذل النوال

وقال غيره في كرم الفضل^(٢)

ألم تر أن الجود من عهد آدم تحدرّ حتى صار يمتطه الفضل

ولو ان أمّ مسها جوع طفلها غذته باسم الفضل لاغذى الطفل

وقال غيره^(٣)

حكى الفضل عن بجبي ساحة خالد

فقامت به التقوى وقام به العدل

اليه تسير الناس شرقاً ومغرباً

فرادى وازواجاً كأنهم نحل

وقال آخر

قد كان آدم حين حان وفاته اوصاك وهو يجود بالحوباء

بينه ان ترعاهم فرعيتهم وكفيت آدم عولة الابناء

وقال غيره

ولائمة لامتك يا فضل في الندى

فقلت لها لن يقدح اللوم في البحر

ارادت لثني الفضل عن سنن الندي
ومن ذا الذي يثني السحاب عن القطر
مواقع جود الفضل في كل بلدة
مواقع ماء المزن في البلد القفر
كان وفود الناس لما تحملوا
الى الفضل لاقوا عنده ليلة القدر

وقال غيره^(١)

اذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة رأيت بها غيث السحابة ينبت
وقال ابن الخياط المكي^(٢)

لمست بكفي كفه ابغى الغنى ولم أدري ان الجود من كفه يعدي
فلا انا منه ما افاد ذوو الغنى أفدت واعداني فأنلفت ما عندي
وذلك ان الفضل امر له بخمسة آلاف درهم فاستأذنه في تقبيل يده
فاذن له فما انتهى الى الباب حتى فرق المال باسره فعوتب على
ذلك فقال الابيات المذكورة فيبلغ ذلك الفضل فاعطاه عشرين
الف درهم. وقال غيره^(٣) وهو امدح بيت في الكرم
ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء

(١) المستطرف ١ * ٢٦١ (٢) حابة الكبت والوطواط ٢٥٠ والاغاني

١٨ * ٩٤ وهو يرجع بالانشادة الى المهدي وليس الى النضر (٣) ابن

خلكان ١ * ٥٨٦

وقال مروان بن أبي حفصة في جعفر وهو صبي^(١)
 بنى لك خالدٌ وابوك بجي بناءً في المكارم لن ينالا
 كأن البرمكي لكل مال تجود به يدهُ يفاد مالا
 وقال فيه أيضاً^(٢)

أني كل يوم أنت صبٌ ولبلةٍ الى أم بكرٍ لا تفيقُ فتقصرُ
 احبُّ على الهجران اكفاف بيتها فيا لك من بيتٍ يحبُّ ويهجرُ
 الى جعفر سارت بنا كلُّ حرّةٍ طواها سراها نحوهُ والتهجرُ
 الى واسعٍ للمخندين فناؤهُ تروحُ عطاياهُ عليهم وتبكرُ
 وقال فيه^(٣)

بدولةٍ جعفر حمد الزمانُ لبابك كل يومٍ مهرجانُ
 جعلتُ هدبي لك فيه وشياً وخير الوشي ما نسج اللسانُ
 وقال العنابي وكان في نفس الرشيد عليه موجدةٌ فاستعطفهُ
 جعفر عليه فقال فيه^(٤)

مازلتُ في غمرات الموت مطرحاً
 قد ضاق عني فسيح الارض من حيلي
 ولم تزل دائماً تسعى بلطفك لي
 حتى اخلستُ حياتي من يدي اجلي

(١) وهو زيادة في القصيدة التي رثي بها معناً (٢) اغاني ٥ * ١٥ (٣)
 العند النريد ٢ * ٢٧٧ (٤) اغاني ١٣ * ٧

وقال فيه أشجع السلمي^(١)
 ذهبت مكارم^(٢) جعفرٍ وفعاله^٣ في الناس مثل مذاهب الشمس
 ملكٌ تسوس له المعالي نفسه والعقل خير سياسة النفس
 فاذا تراءت^٤ الملوك تراجعوا جهر الكلام بنطق همس
 ساد البرامك جعفر^٥ وهم الأولى بعد الخلائف سادة الانس
 ما ضر من قصد ابن يحيى راغباً بالسعد حل به أم الخمس
 الى غير ذلك من الاشعار التي لو حاولت تقييدها في هذا الكتاب
 لبلغت أكثر من عشرة آلاف بيت من الابيات الجيدة ما عدا
 البادر المبدول . فقد وجدت للرقاشي^(٦) وحده ديواناً مجمى أكثر
 من الف بيت في مدحهم وهي من البلاغة بحيث ان البرامكة
 يروونها لأولادهم تفضيلاً على غيرها من شعر المحدثين المعبدن

الدولة في خلافة الرشيد

نعود الى ما نحن آخذون به من ذكر ملكة الرشيد وسياسته
 فقد سبق القول بان دولته لمن أوسع دول الاسلام بل دول العالم
 رقعة ملكة^٧ فهي تنبسط من الهند وفرغانة في الصين الى طرف
 المغرب الأقصى من ناحية الزقاق كذلك كان امتدادها في ايام
 ابيه لا تنقص عنه الا بما ضم اليها من البلدان التي غلب عليها

(١) اغاني ١٧ * ٢٢ (٢) الاسعافى ٢٩ (٣) اغاني ١٥ * ٢٥

الروم في غزوات متواترة اذ كان شأنه وقتالهم في حال مستمرة على غير انقطاع كما كان شأن الخلفاء في مناوأتهم منذ صدر الاسلام^(١) فان الدولة الأموية قد حلت عليهم مرة بعد مرة وحملتهم خسائر عظيمة من المال والرجال وكذلك العباسية بعدهم قد ساقوا اليهم الجيوش ولم يزل أبو جعفر في مغالبتهم حتى اذاقهم مرّ البلاء. وكانوا مع ذلك لا يفترون عن الثورة ويأبون الا نكث اليهود ونقض العقود المبرمة. فلما ولي المهدي اخرج اليهم الرشيد وهو فتى^(٢) فركب في عدة وأهبة لم يكن مثلها في الاسلام وتحركت في نفسه نخوة الجهاد حتى انه اتسم بسمة الحاربيين في الجيش وحل الرمح في يده^(٣). وكان على القسطنطينية ملكة يقال لها ريني لم تطق مقاومتها فهزم جندها وتفرق المسلمون في البسائط يجاهدون ولا يبقون على احد من الروم حتى اذا نزل بجوار القسطنطينية وشرع في ضربها بالنار خافت عليها من الحريق فصالحته على كيليكية وحامت اليه الجزية التي كان يجملها اسلافها الى الخلفاء وتلك احسبها للروم من حيل السياسة في ايجاد الهدنة بالجزية فيما بينهم وبين المسلمين ففي نفسي انه لو لم يتهاون الخلفاء في امرهم لما بقي لهم ملك تجاه دول الاسلام العظيمة

ثم انه بعد ان ولي الرشيد وقع في نفس الروم ان يخلعوا نير

(١) راجع ابن الاثير (٢) الخميس ٢ * ٢٢١ (٣) اغاني ١٧ * ٤٨

الطاعة ويتقاعدوا عن حمل الجزية اليه فبعي الرشيد العساكر وشحنها في اسطول يسوقه حميد بن معيوب أمير الاساطيل^(١) بسواحل الشام^(٢) وسير الفرسان من ناحية البر يجرقون المدن ويثبون الخراب ففتحوا وغنموا وأثخنوا وأوغلوا حتى انتهوا الى جوار القسطنطينية ونصبوا المنجنيقات على الاسوار. فلما أدرك الملكة العجز عن دفاعهم ورأت الجند بين يديها وهو شتيت صالحتهم على الجزية وراحت تحملها الى بغداد وهي صاغرة الى انقضاء ملكها بعد ان نال المسلمون من غنائمها أعظم النيل واستشعروا من عزة الاسلام في غزوتهم تلك ما أفاضوا من التحدث به الى هذا اليوم فلما هلك ريني ملك الروم عليهم تفرور وكان ملكا شديدا البأس الا انه قليل الخبرة بامور السياسة وغير عالم بمكان الاسلام من العظم والقوة. فكتب الى الرشيد في منتصف هذه السنة كتابا ينقض الهدنة التي كانت بينه وبين ريني وفيه يقول من تفرور ملك الروم الى هرون ملك العرب. اما بعد فان الملكة التي كانت قبل كانت اقامتك مقام الرخ واقامت نفسها مقام البيدق فحملت اليك من اموالها احوالا وذلك لضعف النساء وحمهن فاذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من اموالها والا فالسيف بيني وبينك. فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبا حتى لم يتمكن أحد ان ينظر اليه

فدعى بدواة وكتب على ظهر كتابه بسم الله الرحمن الرحيم من
 هرون أمير المؤمنين الى تقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن
 الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه^(١) ثم احشد الجند وركب ليومه
 في صفوف المترجلين والفرسان وحمل الاقوات والقوات استظهاراً
 على نفوذ العزيمة ولم يزل حتى وافى مدينة هرقله ونصب عليها
 القتال وهي مدينة للروم لم يطمع أحد من ملوك الاسلام في الوصول
 اليها لخشونة مكانها فدك أسوارها بالمنجنيق ومنحه الله اكتاف الروم
 فنقلهم اموالهم ورقابهم ولم تقف هزيمتهم على هرقله فقط بل كانوا
 يسلمون معقلاً معقلاً وبلداً بلداً فكان ذلك الفتح فتحاً عظيماً لا كما
 له وهنأت الشعراء الرشيد وقال فيه ابو العتاهية^(٢)

قضى الله ان صفى هرون ملكه وكان قضاء الله في الخلق مقضياً
 تحببت الدنيا لهرون بالرضى وأصبح يعفور لهرون ذمياً
 فلما ضاقت الحيل بالروم رغبوا في المسالمة والموادة وأوجبوا
 على نفوسهم حمل الجزية وهم صاغرون. ولست اقول ان هذا الفوز
 كان سهلاً على الرشيد بل انه طوح من الرجال وأنفق من الاموال
 ما هو حقيق بان ينظر فيه فان الروم اهل بأس ومراس وهو يقاسي^(٣)
 معهم الحروب الصعاب وليس في شأنه معهم سياسة ولا حيلة وانما هي

(١) اغاني ١٧ * ٤٥ والطبري والمسعودي ١ * ١٥٨ وابن خلدون والسبوطي

(٢) المسعودي ١ * ١٥٨ (٣) اغاني ١ * ٣٨

حروبٌ قد تلاحت وأخذ بعضها برقاب بعضٍ بما يروم من
الاستظهار على نفاذ السلطان حتى يركب عليهم سيف الاسلام
والأفان الجزية التي يطمع فيها لا تفي بالقليل من الاموال التي تنفقها
الدولة وهي بمكانها من المهاجرة ومكان الروم من المدافعة في ظلال
الاسوار وفي ذلك تفاوتٌ بعيدٌ بخسائر القتال فيدلك على قوة
الاسلام انه غزاهم غزوات كثيرة^(١) ما أخفق في واحدة منها كما رأيت
هذا كان شأن الرشيد مع صهيب السبال واما السياسة التي
أتعبت خاطرهُ فكانت منصرفة الى اذلال العلويين في المغرب لانه
تعذر عليه محاربتهم مثل الروم بتعذر اقتتال المسلمين بالمسلمين
ولذلك جعل الملك في افريقية لآل ابن الأغب حتى يقاوموا
جندهم فلا يتمكنوا من إقامة مملكة لهم تنهاى من المغرب فتطوع على
المشرق كله فكانه وقع بين أمرين مخوفين عليه فاخار ما هو اقرب
منها الى النجاة بان يملك الأغلبة المغرب^(٢) حتى اذا قامت دولتهم
رسخت في مكانها وما تجاوزت الرمال التي بين افريقية ومصر
على ان العلويين مع ذلك كله قد ملكوا البلاد الى طرف
المغرب ولم يأل ابن الأغب جهداً في مناواتهم وهو لا يبلغ الغاية
التي يرومها من اذلال ملكهم وتضييع نفاذهم في المسلمين والاسلام
لان جندهم طائع لهم فيما استقرّوا به من تلك الاقاليم وكلهم صادق

(١) ابن الاثير كتاب ٥ و ٦ (٢) ابن خلدون

الجملة مدرباً على القتال ولان اهل المغرب كافة يميلون معهم
 ويتعرضون لهم في السياسة ولا سيما قبائل صنهاجة من بطون حمير^(١)
 وهو الامر الذي طيب مني النفس لا بغضاً في آل العباس لاني
 لا اريد بهم مكروهاً وانما العلويون هم اهل البيت الكريم وفيهم
 الانجاب الذين تعرف البطحاء وطائهم والبيت يعرفهم والحل والحرم
 كما قال الفرزدق في مدحهم^(٢) فانهم لا حق بالملك من الاغلبة
 وفي نفسي انه ثبت لهم من وجه الاتحاد الى آخر الزمان لان تمزقهم
 فيما مضى قد حصل بالتفرق كما ذكرت في الكلام عن ابي جعفر
 واما اليوم فانهم مجتمعون الى ادريس بن ادريس وله دون غيره
 من العلويين السلام عليك يا ابن رسول الله^(٣)

وقد كان مسير اهل البيت الى المغرب بايعاز البرامكة الامجاد
 وهم الآخذون بناصرهم والمتعرضون معهم والمقلدون الولايات لكثير
 من اهل الشيعة الشريفة^(٤). الا انهم لا يتعدون في ذلك ضرر
 الرشيد (وهو المؤمن لهم على ملكته). لان المغرب اذا سلخ عن بغداد
 ما ضر ذلك في الخلافة شيئاً لمناسبة عظم الممالك الاسلامية. فان
 التجزؤ لا يضر بالدول الا اذا كانت المملكة منحصرة في إقليم غير متسع
 الى طرف الدنيا الآخر ثم كان في جوارها امة اخرى متغلبة فانها

(١) ابن خلكان ١ * ٢٢ (٢) الاغانى ١٤ * ٧٨ وانبليدي ٩٤ وانشليجي ١٧٠

(٣) ابن خردادبة ٧٩ (٤) المحاضرة ٢ * ٨

يثال عليها جندها وتملكها جزءا بعد آخر. وإما الخلافة الإسلامية
 فان الجهاد في الاعاجم يعمل على استمرار ملكها وبقائه وتكون تجزئتها
 من الاطراف غير مضرة بها بل تعود عليها بما هو أجل فائدة لها اذ
 ان الملوك الذين يستقلون بأمرهم في اطرافها يرجعون عنها العدو
 ويردونه قبل ان يصل اليها فتعفو خزائنها من انفاق الاموال
 ورجالها من تغرير القتال وتبيت أمنة في شأنها بحراستهم اللهم إلا
 ان يكون فيهم من هو أعظم شأنًا منها واقوى سلطانًا وجندًا. وهذا
 بعيد عن ان يكون في دولة متجزئة من الاسلام وحتى لو انضم جندها
 كلها الى قيادة واحدة لما نوت الرشيد وانتزعت الخلافة منه وهو
 على ما نراه من عظم الشأن وضخامة الملك ولة الهند والسند واربينية
 والكرمان ومصر والشام ونجد وتهامة واليمن والحجاز وفارس
 وخراسان فهذه معظم الدنيا المعمورة وأوقاليمها ثروة وإطبتها تربة
 وغلة فلقد يجبي له من إقليم واحد من هذه الاقاليم من نحو مصر أو
 الهند مثلاً ما لا يجبي لغيره من سائر اقاليم العالم
 فكان يرى ملوكنا البرامكة أعزهم الله ان قيام الدولة العلوية
 في المغرب داع الى صلاح الرشيد ونصره وانها تكون حجة للخلافة
 بما تجاهد لها وترد أم النصرية عنها خاسرين. وكان يقول لي جعفر
 انه لو لم يكن للرشيد في اقاليم أفريقية الأفضاة كما كان لملوك أمية
 في الاندلس لما ظهروا على الفرنجة والمجند بين ايديهم قليل ولو

انه أتمنهم لاستنفدوا ماله أو استنصمهم لكانوا عليه لالة. قيثت بعد ذلك ان حبه وآل بيته للعلويين يعود بالمنفعة على الرشيد والاسلام كله لانه اذا قامت دولتهم في المغرب كان ذلك أثبت لبقاء الاندلس في يد المسلمين وربما أعاد الله على يدهم ما استعادته الفرنجة من الاقاليم التي فتحها طارق وزياد والله يبداً أحماً ويحيي أحماً لا اله الا هو الواحد القهار

عمران بيت المال

لم يبق علينا لتبين عظم دولة الرشيد الا ان نذكر قدر المال الذي يجمل اليه من جميع الممالك والبلدان فانه لم يسمع عن دخل دولة من دول الاسلام انه تجاوز القدر الذي يجمل الى بيت المال في زمانه مع انه يسلك مع الملوك مسلك الحلم ولا يضرب عليهم الخراج الا بموجب ميسرتهم. وان كان قد زال عنه القليل مما يجمل اليه من المغرب فانه قد استعاض عنه بالكثير ما فرض على بلدان النصرانية التي غلب عليها الروم من الاموال التي لا يصح اخذها^(١) من المسلمين كالخراج والعشور التي تؤخذ على جميع غلالهم ومحاصيلهم^(٢). فان المحمول اليه في كل سنة نحو من خمسمائة الف الف درهم من الفضة وعشرة آلاف الف الف دينار من

الذهب^(١) فحمل الناس كثرة هذا المحمول على ان يعدلوه بالوزن لا بالعدد فيقولون انه يبلغ ستة او سبعة آلاف فنطار من الذهب^(٢) الآن هذا اعيان ينتهي بالتفريط الى المغالاة لان زنة الفنتار ثلاثون الف دينار ولا يحتمل ان يكون في العالم الف الف الف دينار حتى لو صح افتراضنا بوجودها لما صح ان تحمل كلها الى بيت المال ولا يبقى منها شيء في ايدي الناس لمعاملاتهم. فان كان زعمهم بعيداً عن الصدق فلا اقل من كونه يدل على الكثرة وان المال يحمل الى بغداد بالصبر^(٣) لوفور الخير

وعندي ان ما يحمل اليوم الى بيت المال لم يكن يحمل نصفه الى خزائن الامويين والخلفاء الاولين من آل العباس. فلا يبعد ان كان عالم يحجرون من الجزية مالا لا يجملونه اليهم لاختلاف تقديرها بين ثمانية واربعين درهماً من الاغنياء واربعة وعشرين من الصناع واهل الحرف واثني عشر من اهل الفاقة والاعواز^(٤) دون ان يكون في الدواوين عمل اذلك. فلما قام وزيرنا باعباء الدولة اقر على العمال ما هو مفروض على ناحيتهم من جزية وخراج وصدقات وغير ذلك حتى صار يقيد الدخل في السجلات من قبل ان يحصل في يديه ولذلك لم يبق للغش سبيل الا فيما يؤخذ من المكوس على

(١) مأخوذ من المقدمة وكتاب قدامة ورسالة بن خراذبة (٢) المقدمة

١٥٨ (٢) الفزوني ١٠ (٤) المستطرف ١٣٨*

السلع والزيادة في النفقات^(١) التي يتصرف بها العمال وليس هو
الأقليل في جانب الكثير من دخل الدولة

أما واردات الأموال والغلال من البلدان فانها يطرأ عليها
الزيادة والتقصان بتنقل البلاد حولاً من حال إلى حال ولكن
الزيادة غالبية عليها لان العدل بها حال فقد كان حاصل السواد
(وهي الأرض^(٢)) ما بين الموصل وعبادان في الطول وما بين عذيب
بالتقاسية إلى حلوان بالعرض (عشرين الف الف درهم في زمن
الحجاج^(٣)) لكثرة الظلم فلما ارتفع عنها الجور أخذت بالعمران^(٤) إلى
ان صار يحمل منها نحو من ستين الف الف درهم لهذا الزمان وكان
حاصل فارس واصبهان والكرمان في عهد الامويين ثلاثين الف
الف درهم فلما انتظمت فيها الاحكام وانتشر فيها العدل حمل منها
البرامكة خمسة واربعين الف الف درهم . وكذلك عهد الخلفاء
بخراج مصر بعدما جباها عمرو بن العاص اثني عشر الف الف
دينار^(٥) الف الف وتسعمئة الف دينار وذلك لاختلال امرها فلما
تولأها البرامكة جبوها للرشيد ثلاثة آلاف الف دينار واربعئة
الف دينار^(٦) واستمرت على ذلك^(٧) إلى هذا اليوم

(١) المفريزي ١ * ٩٧ (٢) الماوردى ١٩٩ (٣) المستطرف وابن

خردادية ٢٦ (٤) المستطرف ١ * ١٢٥ (٥) المفريزي ١ * ٩٨

(٦) الخطط ١ * ٨٢ (٧) اغاني ١١ * ١٢

ويجمل الى بغداد غير الاموال المقررة والغلال الكافية الجند
 ارزاقهم والنخيل عليها قدر من المصنوعات والمحاصيل التي تكون
 في البلدان فيجمل من السواد مائتا الف حلة من الحلل النجراوية
 ومائتان واربعون رطلاً من طين الختم الاحمر الذي يطبع به على
 طرف الرسائل الدولية^(١). ويجمل من الاهواز ثلاثون الف رطل
 من السكر ومن فارس ثلاثون الف قارورة من ماء الورد ومن
 اصبهان عشرون الف رطل من الزبيب الاسود ومن مكران
 خمسمئة ثوب من المتاع البماي وعشرون الف رطل من التمر ومئة
 رطل من الكون ومن السند مئة وخمسون رطلاً من العود
 الهندي ومن سجستان عشرون الف رطل من السكر وثلاثمئة
 ثوب من الثياب المعنية ومن خراسان الفا نقرة من نقر الفضة
 واربعة آلاف برزون والفا رأس من الرقيق يتخذون خدماً في
 دور الخلافة ويكون لامراء بني هاشم منهم نصيب وافر وعشرون
 الف ثوب من المتاع وثلاثون الف رطل من الاهليج والفا
 وثلاثمئة قطعة من صفائح الحديد. ومن جرجان الف شقة من
 الابريسم ومن قومس خمسمئة نقرة من نقر الفضة ومن طبرستان
 والروبان ونهاوند ستمئة قطعة من الفرش الطبري ومائتا كسوة
 وخمسمئة ثوب وثلاثمئة الف منديل وثلاثمئة جام ومن الري

وقزوين عشرون الف رطل من العسل ومن هذان الف رطل
 من ربّ الرمان واثناعشر الف رطل من التين ومن الموصل
 وما اليها واعمال نينوى عشرون الف رطل من العسل الابيض
 ومن الجزيرة واعمال الفرات الف رأس من الرقيق واثناعشر الف
 زق من العسل وعشرة بزاة لصيد الملوك وعشرون كسوة للبيت
 الحرام ومن ارمينية قدر من البسط وخمسة وثلاثون رطلاً
 من الزم ومائتا بغل وعشرة آلاف رطل من الصونج ومن
 قنسرين والجند الف حمل من الزيت ومن جند فلسطين
 ودمشق كثير من الفاكة اليابسة وثلاثمئة الف رطل من الزيت
 ومن افريقية مئة وعشرون باطلاً ومن اليمن شيء كثير من المتاع
 وكذلك من نجد وعمان واليمامة والحجاز وكنكر وحلوان وماسبذان
 ومهرجان وشهرزور واذربيجان ومصر وجند الاردن^(١) يحمل
 كثير من المصنوعات التي تتصرف بها الدولة وتصرفها على الجند
 وغيرهم من المقرين الى السلطان

وهذا المال كله يتصرف به الرشيد دون ان يعارضه فيه احد
 من ارباب الدولة الا فيما يعرضه عليه البرامكة من دفاتر الدواوين
 والموازنة بين دخل المملكة وخرجها. وقد تجمع كثير في بيت المال
 منذ صدر هذه الدولة حتى ان ابا جعفر لما ادركه الموت قال

للمهدي في وصيته انه خلف له من الاموال ما ان كسر عليه المخرج
عشر سنين كفاه لارزاق الجند ومصحة البعوث وغير ذلك^(١)
فاخبرني بحبي اعزّه الله عن ابيه وكان قائماً على بيت ما له انه بلغ
الذي خلفه اربعة عشر الف الف دينار وستمئة الف الف درهم^(٢)
فلو لم يبق الا هذا في خزائن الرشيد لكفى دولة فخراً وزينة على
جميع دول الاسلام فاما الفخر فيكون لها من حيث المنعة لانه ما
دام بيت ما لها عامراً فلا تزال ممتعة على العدو واما الزينة فتأتيها
من المال على الوجوه التي نستغني عن ذكرها بوجودها طبيعة في
الملوك المترفين الذين يتوسعون من نعيم العيش الى تزيين دولهم
برواج الادب كما رأينا من الرشيد اقبالة على تقريب العلماء اليه
واتفاهه بعلمهم في دينه ودنياه

مجلس الغناء بدار الرشيد

وكان الرشيد يتخذ في كل عام مجالس للعلماء والادباء
والشعراء واهل الحرف والمهن ويجيزهم على موضعهم من العلم
والصناعة بما وسعت له يده من الكرم . وان الذي كنت ارتاح
الى شهوده من المجالس بداره اذا حضر وقتها هو مجلس الغناء .
على اني لم اراه في جميع السنين الماضية اُحفل منه في هذه السنة وكان

(١) ابن الاثير كتاب ٦ (٢) المسعودي ٢ * ١٩٤

الرشيد قد نشط له وقام بلبسته التي يلبسها في الصيف وهي غلالة رقيقة يتوشح عليها بإزار رشيدى عربض العلم مخرج^(١). وكان بين يديه جامات ذهب وفيها دنانير^(٢) مشورة يجيز بها من يطيب منه المسروع وتصلح منه الصنيعة. ومن حوله جماعة من بني هاشم والفضل وجعفر من البرامكة اعزها الله وهاجا لسان على سريع بجانيه ولما اجتمع المغنون انفلقوا الى شطرين لغرض فيما بينهم على الغناء^(٣) فمنهم المتعصبون للغناء القديم وهم جماعة اسحق النديم ومنهم المقصرون عن ادائه والمغيرون له وهم جماعة ابرهيم بن المهدي. وكان سبب هذا النزاع بين ابرهيم واسحق ان ابرهيم تغنى بلحن قديم اضاع صناعته فرد عليه اسحق وعاب ذلك عليه فقال انا ملك وابن ملك اغني كما اشتهي وعلى ما التذ^(٤) فتخالفا على ذلك فانضم الى غرض ابرهيم اسمعيل بن جامع وعمرو بن نابة^(٥) وفتح بن ابي العوراء وبيبي المكي وشارية وزيق وبنو حمدون^(٦) وحسين بن محرز والهدلي وغيرهم. وبقي مع الموصلية المترفعون عن الاغراض والآخذون بمجاسن الغناء من حيث طرائق الصناعة مثل مخارق^(٧) وعلوية وعريب وبذل^(٨) وسليم بن سلام ومحمد الرف^(٩) وزبير بن رحمان

(١) اغاني ٥ * ٢٢ (٢) اغاني ٩ * ٥٨

(٣) اغاني ٩ * ٢٥ (٤) اغاني ١٤ * ٥٢

(٥) اغاني ١٢ * ٢٠ (٦) اغاني ٩ * ٢٥ (٧) اغاني ١٢ * ١٩

واحد بن يحيى المكي ومحمد بن حمزة بن الوصيف^(١) وغيرهم . وكان قوم ابرهيم قبل وزارة جعفر اكثر عدد رجال من حزب اسحق لانهم كانوا ينضمون اليه ليتقربوا بكفالتيه الى الرشيد^(٢) فلما اخذ البرامكة بناصر اسحق وشادوا بذكره وجهروا بتفضيله رجع الى غرضه كثير من المجيدين ولم يزل المغنون في اهل البيوتات مثل آل هاشم والبرامكة وآل الربيع يتسكون بالغناء القديم ويجلونته كما يسمعون فلم يكن من مفسد له الا للتدمة اسماؤهم وجماعة من اولاد الخلفاء مثل ابرهيم واخيه يعقوب واختها عليّة^(٣) وابي عيسى بن الرشيد^(٤) وغيرهم ممن يرفعون عن ان يقيّدوا غناءهم بالمحفوظ من اصوات المتقدمين وان كانوا بموضع جليل من هذه الصناعة فهذا ابرهيم ليس في الناس من هو اعلم منه بالنغم والوتر والايفاعات ولا اطبع على الغناء^(٥) رأيتُه اذا تغنى يجلس الرشيد قرب كل من في دور الخلافة من اقرب موضع يمكنهم ان يسموه^(٦) لحسن صوته وتقليل ما يسمعون منه اذ كان لا يغني الا على حال تصون عن الغناء وترفع الا ان يدعو اليه الرشيد في خلوة او اذا كان جعفر عنده فيقول له احب ان تشرف جعفرًا بان تغنيه صوتًا

(١) اغاني ١٤ * ٦١ (٢) اغاني ٥ * ٢٦

٥٣ (٣) اغاني ٩ * ٦٦ (٤) اغاني ٩ * ٢٥ (٥) اغاني ٦ * ١٩

فيغني^(١). فكنت في ذلك اليوم في خدمة اميرنا فغنى ابراهيم على

آيات مروان بن ابي حفصة وفيها يقول

طرتك زائرة فحي خيالها زهراء نخلط بالدلال جمالها

هل تطمسون من السماء نجومها باكفكم أو تسترون هلالها

أو تدفعون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقالها

فلما بلغ الى قوله جبريل بلغها النبي فقالها هز حلقه فيه ورجعه

ترجيحاً تزلزلت منه الارض^(٢) فما اظن احداً يقدر على اداء الاصوات

التي يتغنى بها مثله الا اسحق المخالف له على هواه والمقر بما له من

الفضل فيما يصنعه من الالحان لو لم يفسد الغناء القديم ويجعل

للناس طريقاً الى الجسارة على تغييره

وأول من غنى في ذلك اليوم ابراهيم ابو اسحق وكان ذلك

باشارة مسرور العبد لان امر المغنين مفوض اليه^(٣) واذا احب

الرشيد ان يسمع صوتاً اشار اليه فاشار هو الى المغنين فغنى ابراهيم

ولي كبد مقروحة من يبعني بها كبداً ليست بذات قروح

أباها على الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علة^(٤) بصحيح

واللحن فيه ماخوري^(٥) لا يعرفه احد غيره مثله. ثم غنى على آيات

قالها في بعض قرى الري

(١) اغاني ٦ * ٧٤

(٢) اغاني ٩ * ٧٣

(٣) اغاني ٩ * ٥١

(٤) الاغاني كتاب ٥

انا في الرِّيِّ مقيمٌ في قرى الرِّيِّ اهِيمُ
ربما نهبني الاخسوانُ والليلُ بهيمُ
حين غارت وتدلتَّ في مهاويها النجومُ
لتي تعصرُ لما آينعت منها الكرومُ

ولحنها من الثقيل الاول باطلاق الوتر في مجرى البصر^(١) ثم غنى
الافاسلي يا دارمي على البلى ولا زال منهالاً بجرحائك القطرُ
الشعر لذي الرمة والغناء له بلحن خفيف الثقيل الثاني^(٢) فأجاد
ابرهيم حتى كأن كل ما في المجلس يجيبه ويردد الصوت معه من
حسن غنائه فطرب الرشيد حتى صار يقوم ويقعد ولا سيما من اللحن
الذي سمعه في شعر ذي الرمة لانه كان يحفظ ابياتوه كلها في صباه
فكان اذا سمع فيها صوتاً أعجبه اكثر من جميع الاصوات التي يصنعها
المغنون فيما لا يحفظه من الابيات ففطن ابرهيم لذلك منه وطاب
اليه ان يقطع شعر ذي الرمة ويحظر على غيره من المغنين ان
يداخلوه فيه فأجابه الى ذلك فأصاب ابرهيم عليه من الجوائز
ما يتجاوز التقدير^(٣)

ثم اشار مسرور الى اسمعيل بن جامع القرشي وهو من المتعصبين

على الموصلي فغنى

لم تمش ميلاً ولم تتركب على قتبٍ ولم تر الشمس الأدونها الكللُ

تمشي الهوينا كأنَّ الریح ترجعها مشيَ العافير في جيئاتها الوهلُ
 الشعر للاعشى والغناء فيه لابن سريج بلحن الرمل بالبنصر^(١) ثم غنَّى
 بلحن خفيف الثقيل الأول بالوسطى^(٢) على أبيات عمر بن أبي ربيعة
 كأنَّ أحور من غزلان ذي بقرٍ أعارها شبه العينين والجيدا
 اجري على موعدٍ منها فتخلفني فما أملُّ ولا توفي المواعيدا
 كاني حين امسي لا تكلمي ذو بغيةٍ يتغي ما ليس موجودا
 ثم غنَّى بلحن الهزج بالوسطى^(٣) على هذين البيتين

شكونا الى احبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
 وذلك لان النوم يغشى عيونهم سراعاً وما يغشى لنا النوم أعينا
 فأجاد اجادةً يرتاح اليها اهل الطرب^(٤) منَّ بحبِّ الخلاعة في
 الاصوات فهو يميل الى ظرف الغناء والنغم الكثير العمل كما يميل
 الى ظرف المعاشرة والتفنن بخلاعة الملبس^(٥)

ثم اشار صاحب الستارة^(٦) الى اسحق ابن ابرهيم فجاهه غلامٌ
 من غلمان الدار بعودٍ هنديٍّ^(٧) كان مودعاً له في خزانة المجلس^(٨)
 وقد أصلحت أوتاره قبل ذلك الوقت لان العبدان لا تصلح في

(١) اغاني ٦ * ٨٢ و ٧٨ (٢) اغاني ٦ * ٧٧

٨٢ (٣) المستطرف ٢ * ١٨٨ واغاني ٤ * ٩٨ و ٦٥ * (٤) اغاني

٦٩ * ٦ (٥) اغاني ١١ * ٧٧ (٦) اعلام الناس ١٢٠ (٧) اغاني

مجالس الملوك^(١) ففرض عليه وغنى على لحن وضعه معبد في ابيات
لاي صخر الهذلي^(٢)

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فياحبها زدني جوى كل ليلة ويا سلوة الايام موعداك المحشر
واني لتعروني لذكراك هزة كما اتفض العصفور بلله الفطر
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر^(٣)
فطرب الرشيد وقال له زدنا يا ابا صفوان من غنائك و ابا صفوان
كنية يلقبه بها عند الحب^(٤) فغنى

قل لمن صد عاتبا ونأى عنك جانباً
قد بلغت الذي اردت وان كنت لاعباً

الشعر والغناء له^(٥) ولحنه من الثقيل الثاني بالسبابة في مجرى
الوسطى^(٦) ثم غنى على ابيات المنخل اليشكري في بعض بنات الملوك
المنادرة

واقدم دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير
فدفعتها فندفعت مشي القطة الى الغدير
فلتمتها فتنفست كتنفس الظبي البهير^(٧)

(١) اغاني ٥ * ٥٨ (٢) اغاني ٥ * ١٦ (٣) اغاني ٥ * ١٦ والوطواط

٩٠ وانبدي ١٤٣ (٤) اغاني ٥ * ٥٢ (٥) اغاني ٥ * ١٢٦ والدريشي

٢١٢ * ١ (٦) اغاني ٥ * ٥٧ و ٩ * ٥٤ (٧) اغاني ١٨ * ١٥٢

فأجاد في الغناء الى ما وراء الغاية حتى سجع القوم جميعاً فقال وهو
يكاد ان يخرج من ثيابه لشدة بلوغ الطرب من نفسه والله ما الغناء
الذي يلين العريكة ويفسح في الرأي^(١) والصدر ويحدث طرباً في
النفس الا غناء هذا الرجل

ثم أشير الى فليح بن ابي العوراء فغنى على لحن صنعته في بيتين
لعدي بن الرقاع العاملي^(٢)

وكانها بين النساء اعارها عينيه أحور من جاذر جاسم
وسنان اقصدته النعاس فرتت في عينه سنة وليس بناغم
ثم اتبعه بلحن من الثميل الاول باطلاق الوتر في مجرى البصر^(٣)
صنعه في بيتين للمؤمل من شعراء الدولة الاموية

ألا يا ظبية البلد براني طول ذا الكمد
فردّي يا معذبتي فوادي او خذي جسدي^(٤)

وهو يعارض فيه اللحن الذي صنعه فيما ابرهيم النديم فاجاد ولكنه
قصر عن ان ينحو صناعة الموصلي وان كان قد مضى في بعض كتي
السالفة من الثناء عليه ما يشهد لموضعه الجليل من الغناء^(٥) فانه

(١) الاغاني ٧ * ١٤٣ (٢) المستطرف والشريشي ٢ * ٢٨٠ (٣) اغاني

١٩ * ١٤٧ (٤) في قول الفارض

أخذتم فوادي وهو بعضي فالذي بضركم لو كان عندكم الكل

النفات الى هذا البيت (٥) الاغاني ٤ * ٩٨ و ٩٩

قد وجد اليوم من برعه وبرع الناس كلهم في طيب السمع ومحاسن
الصنعة وترجيع الألمان^(١)

ثم أشير إلى مخارق من حزب اسحق وهو طيب الصوت يعد^{درة}
وابراهيم بن المهدي وابن جامع وعمر بن ابي الكنات من أحسن
الناس صوتاً^(٢) فغنى بصوت رخيم

يا رب سلى لقد هيجت لي طرباً زدت الفؤاد على علته وصباً
فكنت احسب ان الدنيا قد صارت احزاناً^(٣) بما ألم في غنائيه من
ابراز معنى البيت وما وراءه من توجع العاشقين ثم غنى

فبت فيما شئت من نعمة ينخنيها نحرها والتم
حتى اذا الصبح بدا ضوءه وغارت الجوزاء والمرز
خرجت والوطء خفي كما ينساب من مكنيه الارقم

الشعر لاسماعيل بن يسار والغناء له بلحن الرمل^(٤). ثم غنى مجي المكي
على لحن صنعة في بيتين لمحمد بن أمية من كتاب ابراهيم بن المهدي^(٥)
احبك حباً لو يفض يسيره

على الناس مات الناس من شدة الحب

واعلم اني بعد ذاك مقصر

لانك في أعلى المراتب من قلبي

(١) الاغاني وابن خلكان والاثليدي وحلبة الكميت (٢) اغاني ٩ * ٢٥

(٣) اغاني ٢ * ١٨٩ (٤) اغاني ٤ * ١٢٢ (٥) اغاني ١١ * ٢٤

ثم غنى بلحن خفيف الرمل^(١)
 طرفتك زينب والمزار بعيد بني ونحن معرسون هجود
 فكأننا طرفت برياً روضة انف نسبح مزنها وتجود
 فكان لحنة كثير العمل حلوا النغم صحیح القسمة محكم الصنبعة ولولا
 ذلك ما طرب الاذن سماعه وهو بكانه من خشونة الصوت ثم غنى
 سليم بن سلام من جماعة اسحق

أفاطم^(٢) مهلاً بعد هذا التدليل
 وان كنت قد ازمت صرعي فاجلي
 اغرك مني ان حبك قاتلي
 وانك مهما تأمري القلب يفعل

ثم غنى بلحن من الهزج الخفيف بالسبابة^(٣) صنعة في هذين البيتين
 وقت على ربع لسلي وعبرني ترفق في العينين ثم تسيل
 أسائل ربعا قد تغتت رسومه عليه لاصناف الرياح ذبول
 فطرب الرشيد وقال^(٤) لو كنت حكم الوادي لما زدت على هذا
 الاحسان في هزجك ثم غنى حسين بن محرز بلحن صنعة يحيى^(٥)
 المقدم ذكره في هذين البيتين

هل هيجك مغاني الحي والدور فاشتفت ان الغريب الدار معذور

(١) اغاني ٦ * ٢١ (٢) المسعودي ٢ * ٢٩٦ (٣) اغاني ٦ * ١٢

(٤) اغاني ٦ * ١٢ (٥) اغاني ٦ * ١٩

وهل بجلُّ بنا اذ عيشنا أنقُ بيضُ أوانسُ امثالُ الدمى حورُ
ثم غنَّى

خمسُ دسسنَ اليَّ في لطفِ حورُ العيونِ نواعمُ زهرُ
فطرقتهنَّ مع الجريِّ وقد نام الرقيب وحلقُ النسرُ
الشعرُ للأحوص والغناء لمعبد رمل بالسبابة في مجرى البنصر^(١).

فاجاد ولكنه لم تظهر له صناعةٌ يسموها الى مقامات المتقدمين في
الغناء وكذلك جميع من غنَّى بعده في ذلك اليوم قد ذهبت طلاوة

اصواتهم وهم بين ابرهيم واسحق وابن جامع ومخارق وامثالهم من
المجيدين الا الزبير بن رحمان فاني وجدت لغنائه موقعا حسنا من
النفوس وكنت ارى الرشيد يتمايل طربا من نغماته فغنَّى

رضيتُ الهوى اذ حلَّ بي متعيزا ندبما وما غيري له من ينادمه
أعطيه كأس الصبر بيني وبينه يقاسمها مرةً وأواسمه

الشعر لبشار بن برد والغناء له هزج بالوسطى^(٢) ثم غنَّى

فردني مصاب القلب انتِ قتلتي ولا تركيه هائم القلب مغرما
الى الله اشكو بخلها وساحتي لها غسلُ مني وتبذل علقما

واللحن فيه لسباط من خفيف الثقيل الاول بالبنصر^(٣). ثم تعاقب
المغنون على طرح الاصوات في نوباتهم فلم استحسن منها الا لحنًا

واحدًا للهزلي صنعهُ^(٤) في شعر وضاح اليمن

ان الوشاة اذا اتوكِ تنصحو ونبهوكِ عن
اني تهيجني اليكِ حمامتان على فنن
فاسقي خايلك من شراب لم يكدره الدرر
حتى اذا ظن في نفسه اقتداراً على الصناعة واراد ان يعارض اسحق
بالحن الذي صنعه في شعر العباس بن الاحنف^(١)
لا جزى الله دمع عيني خيراً وجزى الله كل خير لساني
كنت مثل الكتاب اخفاه طي فاستدلوا عليه بالعنوان
أسقط في يده وقصر دون بلوغ المرام. وكان في جملة المغنين رجل
اعى يقال له أبو زكار وهو شديد التعصب للغناء القديم وكان آخر
من غنى في ذلك اليوم بدأ بلحن صنعه في هذا البيت
يا . راكب العيس التي وفدت من البلد الحرام^(٢)
ثم باخر لا برهم القديم^(٣) صنعه في بيتين لعمر بن ابي ربيعة وها قوله
ليت هنداً انجزتنا ما تعد وشفقت انفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد
فلم تظهر له بها صناعة حتى تغنى^(٤)
يا ايها القلب المطيع الهوى انى اعتراك الطرب النازح
تذكر جلاً فاذا ما نأت طار شعاعاً قلبك الطامح
هلاً تناهيت وكنت امرءاً يزجرك المرشد والناصح

مالك لا نترك جهل الصبا وقد علاك الشمطُ الواضحُ
ولحنها ثاني ثقل بالسابية في مجرى الوسطى. فأحسن كل الاحسان
في تأدية النغم كأنما لا تظهر صناعته إلا بغناء ما في معناه زجرٌ
وتذكير من الابيات

ولما أذنت الشمس بالغروب أوماً الرشيد الى المغنين ان يجلوا
صفوفهم وفرق فيهم الجوائز بقدر اهليتهم من الصناعة فمن مصيب
الف دينار ومن مصيب خمسة ومن مصيب دون^(١) ذلك ثم أوماً
الى من كان يتخلل الغناء بما يضرب به من المعازف (وفرق فيهم
من المال دون ما فرقة في المغنين) فأصاب الجوائز السنية أربعة
منهم وهم منصور زلزل وكان يضرب على عود من العبدان
الشبايط التي صنعها معارضة لعبدان الفرس وهي عَجَبٌ من
العجب^(٢) وكأنما تنزل المجالس بحسن نغمها^(٣). وبرصوم الزامر^(٤)
وهو أحسن الناس زمراً بناي. كان اذا زم فيه يحدث النغم الذي
يريدُه مع صحة المقاطيع والتقسيمات حتى كان بين يديه ينطق
بلسان آدمي. وجعفر الطبال وهو حسن التوقيع على الطبل^(٥)
وكان يضرب بالكوبة^(٦) في ذلك اليوم. ورابعهم الفريض وهو
مشهور بضرب العود والتوقيع بالقضيب والنقر على الدف^(٧)

(١) راجع الاغاني (٢) اغاني ٥ * ٢٤ (٣) ابن خلكان ١ * ١١ (٤) اغاني

٦ * ١٢ (٥) اغاني ١٤ * ٥٤ (٦) النناوي ٢١ (٧) الاغاني ٢ * ١٢٩

الرسالة السابعة

في ذكر آداب العرب

هذه رسالة اليك أفردتها لذكر آداب العرب وعلومهم فقد طالما شهدت مجالسهم بدار الرشيد في محاوره فقهاء وحلقات علماء ومنادمة ادباء ومناظرة جدليين^(١) ومرآة اخباريين ونوبات^(٢) مغنين. وذلك من المحفوظ التي لم تتفق لغيري من المتصلين بالملك لاني كنت أقرب الناس مكاناً الى الرشيد تحت ظل البرامكة وكنت من المحظوة لديه بحيث اذا جلست الى منادمتيه عدل عن جلال موضعه من الخلافة^(٣) ورجع الى محاسن المنادمة من اطلاق النفس على صفاء الاخوان فكان يعد الى مخدة^(٤) يجعلها تحت فخذيه ويمكّن منها جلوسه ثم يقول هلمّ بجديثك^(٥) وهذا غاية ما يكون من الملوك اذا طابت نفوسهم من منادمة الجلساء. وكنت اذا انفردت مجلسه دون أحد من المقربين اليه اخرج اليّ جوارية فيجلسن متشكلات بالزهور^(٦) ومكّلات باللؤلؤ والزبرجد^(٧) فيغنين

(١) المسعودي (٢) اغاني ٢٠ * ٦٤ (٣) اعلام الناس (٤) اغاني

(٥) انليدي ١١١ (٦) اغاني ٧ * ٢٦ (٧) اغاني

ويضربن بالملأهي الى هذه من الليل فاذا اتاه من الحرم^(١) التفاح المنقوش المطيب^(٢) وغيره من الفاكمة والمحلوى عزم الي ان اجلس الى طعامه وأجالسه على نبيذ^(٣) التمر^(٤) وغيره من الشراب الذي لا ينهى الشرع عنه^(٥) ولا يكون له حكم الخمر الا اذا اسكر^(٦) وكان يجب ان احذنه عن آداب الفرس وعلومهم وصنائعهم لانه كان في طبيعته ميل الى الأدب واهله^(٧). ولذلك كانت دوائه تزداد خيراً وصلاًحاً^(٨) وتشرق بهاءً وجمالاً. واقبل اهل العلم عليه من كافة الوجوه يستمطرون غيث نداءه فحقق لهم الآمال وساق اليهم الجميل واجرى عليهم الارزاق الواسعة^(٩)

وكانت همة الرشيد مصروفة الى ترجمة كتب الفلاسفة من قوم يونان وغيرهم بعد ان رأى جعفرًا وزيره يبتاع من صحفهم ما يأمر الترجمة بتعريبه^(١٠) ثم يعطيهم زنة الكتاب المعرب ذهباً (لان سوق العلم نافقة عند البرامكة^(١١) وهم الذين قرّبوا العلماء وأشاروا بعمل الكاغد لنسخ أسفارهم^(١٢) لان الفضل رأى الرفوق التي تستعمل في الصكوك ورسائل السلطان لاتكفي العلماء في مصنفاتهم ولا الترجمة في معرفاتهم فرأى من عمل الكاغد ذريعة الى نشر العلم الذي غني

(١) المسعودي ٢ * ٥٦ (٢) اغاني ١١ * ٢٥ (٣) اغاني والف ليلة وليلة
 (٤) المقدمة (٥) العقد ٢ * ٢٠٠ (٦) الفناوي ٢٦ (٧) الفخري
 ٢٣٠ والشرقاوي ١٢٢ (٨) المسعودي ٢ * ٤٠١ (٩) كتاب الاغاني
 (١٠) ابن خلكان ١ * ٢٢٦ (١١) الفخري ٢٣٥ (١٢) المقدمة ٢٦٨

برفع مناره مع أهل بيته كافة^(١) فحسد هم الرشيد على ذلك وتشوق
الى الاطلاع على كنوز الحكمة^(٢) فأنفذ رسالة في إحراز الاسفار القديمة
وكتب في أشخاص النراجة الذين يحسنون العربية من الروم
وغيرهم وتقدم اليهم في تعريبها باقرب اللغات الى الازهان.

فلما تناول العرب هذه الاسفار تمهروا في استخراجها ووقفوا على
اغراض الحكماء منها^(٣) فصعدوا من الادب المقام الذي لم تبلغه أمة
قبلهم في المشرق. وهذا من الامور التي تدل على ذكاء العرب^(٤)
ونبل الهمة عندهم وانهم يبلغون الغاية التي يرومونها من جميع
المطالب في برهة يسيرة من الزمان. والأفلا نجد في اخبار الامم
السالفة من حاز من اطراف الدنيا مثل ما حازه المسلمون في مثل
المدّة التي وقع فيها الفتح فقد كان من شأنهم عند ما صار الامر
الى بني أمية أن حازوا اكثر الاقاليم وابتدؤا الأعاجم سلطانهم
ووصلوا من المشرق الى الهند والسند وتجاوزوا المغرب الى ابعد
من الاندلس شمالاً. وما مثلهم في سرعة هذه الفتح الا مثلهم في
سرعة تحصيل العلوم وبلوغهم من المدنية على قرب عهدهم بها
ما لم تبلغه أم العلم من قبلهم. فمن الغريب الذي ينطق بفضلهم
وذكايمهم انهم لم يقتصروا من الحكمة على نقل فلسفة يونان فلقد

(١) العقد القريب (٢) الديميري ١ * ٢٥ (٣) المقدمة (٤) المسعودي

أهداني بعض علمائهم صحفاً وجدتهم فيها يرمون الى اغراضٍ من
الفلسفة بعيدة ويضيفون على قواعد اليونان شرحاً^(١) اصابوا
الرأي بالزيادة فيه بعد البحث والتحصيل^(٢) وذلك غير ما فتحوا
من الابواب الواسعة للنظر في العلوم الرياضية وتحريرها واصلاحها
وغير ذلك

وكان اول عهد العرب من العلم في خلافة ابي جعفر^(٣) لانه
كان يعزّر جانب الحكمة ويبحث عن مكامن العلم ويعزم على اهل
الكتابة ان يدونوا الاسفار لاذاعة العلوم بين الناس اذ لم يكن
معروفاً عندهم الا علم الرواية واخبار العرب وعلم الاحكام الشرعية
واستنباطها من القرآن والحديث وعلم العروض الذي وضعه الله
في صدورهم^(٤) وبضاعة مزجاة من النجامة وعلم الافلاك مما أخذوه
عن الفرس وجماعة الهند . فلما جاءت هذه الايام تحب عليهم
أذيال النعيم والدعة بعد ان فرغوا من اعمال الحروب التي وقعت
في صدر هذه الدولة وجهوا همهم الى النظر في العلوم والآداب^(٥)
لتجديدها طمس من العلم فكتبوا في جميع فروعها ومطالبه بحيث انه لو
جمعت صحف امة قديمة عهد بالعمران لما وجدنا ما تحويه من العلم
اعظم مما نجدُه فيما دونته العرب من الصحف . واني لذاكر ان الرشيد

(١) حبي خله ٢ * ١٢ (٢) ابن خلكان ١ * ٢٦٢ (٣) الميوطي

وابوالفرج ٢٤٦ (٤) اغاني ٢٠ * ٥١ (٥) المقدمة

لما ركب الى الرقة في بعض اسفاره حمل معه ثمانية عشر صندوقاً^(١)
 من اسفارهم مع انه لم يأخذ منها الا نخبة ما في خزائنه وكفى بذلك
 بياناً على ما نروم ذكره من كثرة الصحف^(٢) التي دونها العرب
 بين تعريب وتأليف

الطبُّ والاطباء

وكان ابو جعفر محص الله عنه ذنوبه يوجه عنايته الى علم
 الطب من بين العلوم فنى لتعليمه حلقة كبيرة فوض امرها الى
 طبيب اعجمي يقال له فرات بن شحاننا وهو من تلاميذ تياذوق^(٣)
 الذي كان طبيباً بدار الحجاج امير العراق . فتخرج عليه طائفة
 من النصارى^(٤) دون المسلمين ولست اعلم السبب في اعراضهم عن
 هذا الفن الا ظنهم الكفاية فيما لديهم من المخرجات التي توارثوها عن
 مشيخة الحمي وعدم حاجتهم الى مثل هذه الصناعة في كسب الرزق
 وترفعهم عنها كغيرها انفة بانهم اهل ملكات وذلك خطأ واقع
 عليهم عاره لانه قد خلت منهم مراتب في دور الخلافة وتحولت الى
 أم النصرانية وهم الذين برعوا عليهم في الطب^(٥) وعربوا كتب
 جالينوس وابقراط من حكماء يونان و اضافوا اليها كثيراً ما عرفوه

(١) اغاني ٥ * ٦٧ (٢) حمي خلفه (٣) ابو الفرج ٢٠٠ (٤) اغاني

١٢٨ * ٩ (٥) المقدمة

من علم الحيوان بعد وقوفهم على مقالات أرسيناس^(١) وديموقراطيس^(٢)
 وغيرها من العلماء الذين يرجع إلى كلامهم في طبائع الحيوان
 وخواصه ومنافع النبات ومضاره
 ولقد كان مظهر الطب في النصرانية رجل يقال له ماسويه
 أبو حنا وكان أمياً لا يعرف القراءة إلا أنه تلقى الطب من أفواه
 اليونان وطال به المران له والتجربة فيه إلى أن بلغ منه المكان الذي
 لا يدفع . وكان له ولدان يقال لهما يحيى^(٣) ويوحنا فتخرجا عليه في
 الطب ومعها ثالث يقال له جبريل بن بخنيسوع فبرعوه في شفاء
 الأمراض . فاما يوحنا فإنه صار طبيباً بدار الخلافة ودون رسالة
 طويلة أودعها ما عرض له من التجربة في معالجة أهل السقام واتخذ
 مجلساً افرده للنظر في استنباط العلاجات باجماع رأي غيره من
 الأطباء وكان الرشيد قد ولاه ترجمة الكتب^(٤) التي وقعت إليه من
 مدونات الأطباء الحكماء مثل ابقراط وجالينوس وغيرها فأحسن
 تعريبها على ما وجد فيها من الصعوبة التي نالت من نفسه اعظم
 مشقة وذلك بخلاف الكتب التي عرّبت في خلافة المهدي والبي
 جعفر فانها لم تكن جديدة بالثقة بها ولا الالتفات إليها إذ كانت
 عارية من التواعد التي وضعها الحكماء وليس تحوى سوى علاجات

(١) المسعودي ١ * ٩٢ (٢) حكي خله ٢ * ١٢١ (٣) ابن الاثير

٦ * ١٢١ (٤) ابو الفرج ٢٤٧

أشار بها ضعفاء العقول من الأطباء وكانت الى الجهل والخرافة أقرب منها الى العلم والحقيقة فلم يجد العربون في نقلها مشقةً وعناء .
 اما الكتب التي عرّبها ابن ماسويه فهي من اصحّ وأنفس ما صدرت
 به اقلام اليونان

واما جبريل بن بختيشوع فانه ماهرٌ في جميع العلوم الداخلة
 في علم الطب . وله في الكلام على الحيوان ^(١) رسائل تدلُّ على سعة
 اطلاعه . وكان جعفر ^(٢) أيدهُ الله شديد الحبِّ له والاحفظ به
 حرصاً على ما وسع صدره من العلوم فقربته الرشيد اليه برأى
 البرامكة واتخذهُ في دور الخلافة موضع صالح الهندي الذي كان
 مقدماً من قبله على اطباء بغداد ^(٣) . فلما صار الى هذا المقام الجليل
 ورأى الناس يرجعون الى رأيه فيما يشربوه من الادوية حلّم على
 الإعراض عن الدجالين وهم الشيوخ الذين بعدت المهابة عنهم
 ودلّ ما بلغوه من الشيخوخة على بلوغ الخرف منهم فبزعمون انهم
 يطيبون الناس بالمواضع ^(٤) ليمتلكوا أفئدة العوام بما لا فائدة فيه
 من الخرافة فوفّقه العلم الى بلوغ الغاية التي رامها من قطع السبيل
 عليهم دون الارتزاق بهذه الجهالة التي تميّت الاذهان الضعيفة
 ويأتي بعد جبريل بختيشوع ويوحنا بن ماسويه طبقة ثانية

(٢) ابو النرج ٢٢٨

(٢) ابو النرج ٢٢٥

(١) حبي خلفه ٤ * ١٢٥

(١) المسعودي ٢ * ٥٨

من اطباءهم وكلهم من الأمة النصرانية الأعمى ابا قريش الصيدلاني
 وليس هو بطبيب ماهر انما رُزق الشهرة بين الناس عن اتفاقٍ وقع
 له بان بشر الخيزران لايام ابي جعفر بانها تحمل مولوداً ذكراً يصير
 اليه امر الأمة فلما القت ذا بطنها وكان غلاماً أفرغت النعمة عليه
 واتخذته طبيباً في دار الخلافة^(١). وقد سمعتُ من يقول ان الخيزران
 انما قرّبتة اليها لمهارته في الحجامة وليس في الطب فان صحّت الرواية
 فيكون عندي احق بالثقة من غيره اذ لست اثق من الطبّ الأما
 يحفظ الصحة للصحيح واما العلاجات التي يزعمون انها تبعد العلة
 عن العليل بعد تمكنها فيه فانا من الثقة بها على شيء لانني احسبها
 من باب الغوص على اسرار الطبيعة وطالما وجدت للاطباء في
 العلة الواحدة آراء متباعدة ومن المعروف عند العقل ان الخلاف
 في الامر الواحد لا يطابق الحق فيه الا وجه واحد. واما الحجامة
 فانها على خلاف ذلك والرأي مجتمع فيها على حذف العضو الفاسد
 وفصله. واني وان كنتُ على بُعدٍ من الطبّ فلا أجدُ بداً من
 الإقرار بفضل العرب فيما استنبطوه من العلاجات وما وقفوا
 عليه من مركبات العقاقير التي لم يسبق اليها احدٌ من المتقدمين
 ولا غرو فان الطبّ صناعة لا تبلغ الغاية منها الا على طول التجربة
 والمِران ولذلك كان المتأخرون يفضلون بها المتقدمين في كل عصرٍ

وَأَمَّةٌ وَقَدْ قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ (١)
 أَلَا لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَ إِلَّا بِسُنَّةِ سَأْنِيكَ عَنْ مَجْمُوعِهَا بَيَانِ
 ذِكَاكَ وَحِرْصِ وَإِصْطِبَارِ وَبَلْغَةِ وَإِرْشَادِ اسْتَاذِ وَطَوَّلِ زَمَانِ

النجامة وعلم الأكوان

أما النجامة فإنها كانت معروفة قديماً عند العرب كما سبق
 الإلماع إلى ذلك غير أنها كانت محصورة في نفرٍ من خواص
 الأقبال الذين تداولوا ملكهم قبل الإسلام . فلما جاء أبو جعفر
 قَرَّبَ المنجمين إليه وقدم عليهم نوبخت المنجم المشهور (٢) وكان ممن
 حفظ عن المجوس فاتخذ في الزوراء حلقةً شهدها كثير من الناس
 لأنه لم يكن فيهم أخلف له في علمه من الموصلي المنجم كتب في
 الأسطرلاب سراً أودعه من علم الكواكب وسيرها وحركاتها
 أصولاً يعبرها العلماء جانب الثقة والاعتبار ويرجعون إليها في علم
 الأفلاك

ثم نبغ بعده في النجامة علي بن عيسى الأسطرلابي (٣) وأبرهيم
 الفزاري المنجم وتهرأ في استخراجها من كتب الفرس . وقد عثرت في
 خزائن البرامكة على أرجوزة في علم الأفلاك نظمها أبرهيم هذا المنجم (٤)

(٢) المسعودي

(٣) الفزوي

(١) الكثر ١٢٩ والشلبي ١٠٢

(٤) المسعودي ٢ * ٤٠٠

فجاءت ناطقةً بحسن نظره ولطيف مأخذه وسمو موضعه من هذا العلم . ثم نبغ بعده تيوفيل بن توما الرهاوي وكان المقدم على جميع النجمين في خلافة المهدي وكانت له معرفة تامة باليونانية حتى سمي الى ترجمة كتاب شاعرٍ يقال له أميروس عن فتح مدينة ايلبون في العصر الخالية الى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة ^(١) . وأميروس هذا شاعرٌ مجيدٌ كان يغترف المعاني من بحار التصور ويبرزها في الصورة التي يعجز عن مثلها الشعراء فوقف نظمه بين الحكمة وكلام النبوة موقفًا لا يتخلص في مناوئته الا العقول النيرة والاذهان الثاقبة وقد اثني عليه ارسطو في كتابه بدمج يرفعه الى أسى مقامات الرجال ^(٢)

اما النجمون لهذه الايام فهم اثنان مشهوران ماشاء الله اليهودي واحد بن محمد النهاوندي ودونها في الشهرة ثالث يقال له محمد بن موسى المنجم ^(٣) . فاما ماشاء الله فيقال ان له حظًا في علم الغيب ^(٤) وكان من جملة النجمين الذين اتصلوا بابي جعفر وكسبوا الانعامات منه وهو اليوم بدار الترجمة أخذ عن امر الرشيد بتعريب الكتب التي تبحث في علم الافلاك . واما أحد النهاوندي فانه بالموضع الاجل من علم الرصد ألف فيه كتابًا سماه المستمال واودعه من تحقيق

(٢) اغاني ١٥ * ٨١

(٣) المقدمة ٥٢١

(١) ابو الفرج ٢٢٨

(٤) ابو الفرج ٢٤٨

النظر بما عرض له من امور الفلك فيما رَصَدَ بمدينة جنديسابور
 ما لم يسبق اليه احد من النجيين . وَاَلَّفَ في الموازنة بين الفرس
 والهند واليونان على ما عرفوه من النجامة كتاباً آخر اودعه صورة
 الدنيا كلها يعورها وجبالها ووديتها واقاليمها وبلدانها وسائر اماكنها
 وجعل الدرّجة خمسة وعشرين فرسخاً والفرسخ اثني عشر الف ذراع
 والذراع اثنين واربعين اصبعاً والاصبع ست حباتٍ وتسعين
 مصفوفة بعضها الى بعض ^(١) وهذا ما يحتاج الى دقة النظر في معرفة
 عرض الارض ومناسبة الاقاليم وغير ذلك . وقد اهداني هذا النجم
 نسخة مصوّرة من كتابه المستمال في شهور السنة الخامسة والثمانين
 ولكنه اخبرني انه لم يرسله بين الناس لما يحتاج اليه من المراجعة
 والاصلاح فيما يعرض له من امور الفلك الذي يباشر رصده الى
 هذه الغاية

وانقد مضى في كلامنا عن الطب ان النصارى برعوا فيه على
 المسلمين وكذلك قولنا في هذا العلم ان الفرس برعوا فيه على
 العرب لانهم كانوا يجافون عنه ويعدونّه والسحر الذي ينهى
 الشرع عنه علماً واحداً ^(٢) . وذلك بخلاف الفرس فانما همم موجه
 الى العلى في مباحثهم ومناظراتهم ولذلك كان انصباهم الى الرصد
 وما ينبي عنه من اشارات النجوم وحركات الكواكب اعظم من

انصبابهم الى ما سواه من العلوم . وكان المقرَّب لهم في الاسلام
 ابو جعفر المنصور^(١) كما ذكرتُ في مواضع كثيرة من الكتاب لأجل
 ان يطلعوه على طوارئ الجوِّ وحدث الانواء وانتقال الشمس
 والقمر والكواكب في بروجها^(٢) وينبئوه عن جذب الارض او
 خصيها بما يكون من معرفة ذلك قبل حدوثه وأوانه منفعة عظيمة
 للملوك . ثم قرَّبهم البرامكة لاستشارة الاسطرلاب في جالوسهم
 وركوبهم^(٣) وما يباشرون من الاعمال وعقدوا لهم مجلساً يناظرون
 فيه للزيادة على كتب الاعاجم ما يستنبطون من حركات الكواكب
 المتحركة والمتخيِّزة واسبابها بطرق هندسية وركز الكواكب الثابتة
 وما يرون من الافلاك التي تخص بالكواكب وغير ذلك . وتقدَّموا
 الى فنِّ علم النجامة ان يعرِّب كتاب المحسبي لبطليموس من حكما
 يونان واتخذوا موضعاً للرصد يُعرِّف بذات الخلق^(٤) فكان يجتمع فيه
 كثير من ادباء المسلمين الذين لم يشاركوا الاعاجم في هذا العلم
 الا بما يلتمسون منه معرفة الايام والشهور والسنين^(٥) من طريق
 حركة كل كوكب وهو الفرع الذي يسمونه بعلم الازياج^(٦)

(١) السيوطي (٢) المقدمة (٣) الاتليدي والافغاني (٤) المقدمة

٤٢٦ ويقول ان المأمون كان المحدث لها او المحدث منها (٥) المقدمة ٤٢٧

(٦) حجي خلفه ٢ * ٥٦٠

الحديث وعلوم الشرع

الحديث هو العلم الذي هوت إليه افئدة المسلمين. كان شأن العرب به في صدر الاسلام ان يرحلوا من بلد الى بلد ليسمعوه من الصحابة^(١) ثم من الانصار ثم من التابعين ثم من سماع من التابعين من غير ان يدونوه في الصحف. فلما أسرع الموت في العلماء وكانوا كلهم شيوخاً تسارع اهل العلم الى تدوينه^(٢) على طريق الاسناد ولكن من غير ان يجعلوا للتعيين فيه مجالاً. فكتب ابن جريج^(٣) بمكة ومالك بن انس بالمدينة ومعر باليمن وسفيان الثوري بالكوفة وهشيم بن بشير^(٤) بالعراق والاوزاعي^(٥) ببيروت من ساحل الشام وحماة بن مسلمة وشعبة بن الحجاج وابن ابي عروبة بالبصرة وذلك كله في خلافة أبي جعفر^(٦). وكان أصحهم حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم مالك بن انس وهو راس المحدثين^(٧) رأيتُه اذا تحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدثت له في ذلك فقال احب ان اعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا احديث به الا متمكناً على طهارة. وكان يكنى ان يحدث على الطريق

(١) حجي خلفه ٢ * ٢٧ - (٢) الزرقاني ١ * ١٠ - (٣) الزرقاني ١ * ١٠

والنيربزي ٢ * ٢٢٢ (٤) ابن خلكان ١ * ٩٢ واغاني ٥ * ٥٤ (٥) حجي

خلفه ٢ * ٢٨ (٦) السهوتي (٧) ابن خلكان ١ * ٦٢٦

أَوْ قَائِمًا أَوْ مُسْتَعْبِلًا وَيَقُولُ أَحِبُّ أَنْ اتَّفَعْتُ مَا أُحَدِّثُ بِهِ عَنْ رَسُولِ
اللَّهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا جَاءَ هَذَا الْعَصْرَ وَالنَّاسَ مُطَّلَعُونَ عَلَى حِكْمَةِ الْفَرَسِ
وَالْيُونَانِ أَخَذَ أَهْلَ الْعِلْمِ فِي وَضْعِ عِلْمِ الْكَلَامِ صِيَانَةً لِلدِّينِ وَالشَّرْعِ
وَرَجَعُوا إِلَى تَدْوِينِ الْحَدِيثِ وَلَكِنْ بَعْدَ طَرَحِ الْمَوْضُوعِ مِنْهُ وَتَصْحِيحِ
الْفَاسِدِ الْمَقُولِ . فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَخَذَ فِي ذَلِكَ أَبُو يُوسُفَ فُتَيْبِهِ
الْإِسْلَامِ وَهُوَ الَّذِي أَخَذَ الْمُحَدِّثِينَ عَلَى إِغْلَاطِهِمْ ^(١) وَبِذَلِكَ الْمَوْضُوعِ
مِنْ أَحَادِيثِهِمْ وَلَا سِوَا مَا كَانَ مُسْنَدًا مِنْهَا إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ فَإِنَّهُ أَوْفَعَ
عَلَيْهِ طَعْنًا وَتَقْرِيعًا بِمَا نَقَلَ مِنَ الْحَدِيثِ عَلَى غَيْرِ تَحْيِصٍ وَامْعَانِ
نَظَرَ ^(٢) . ثُمَّ أَخَذَ إِخْذَهُ فِي تَصْحِيحِ الْأَحَادِيثِ الْفَاسِدَةِ أَبُو اسْحَقَ الْفَزَارِيُّ
وَعَبَدَ اللَّهَ بْنَ الْمُبَارَكِ وَهِيَ أَشْهُرُ الْأَيَّةِ لَا يَأْمَنُ هَذِهِ وَالرَّشِيدَ لَا يَسْمَعُ
الْحَدِيثَ إِلَّا عَنْهَا وَلَا يَلْتَمِسُ الرَّدَّ عَلَى الزَّنَادِقَةِ إِلَّا مِنْهَا . فَكَانَ إِذَا
أَخَذَ عَلَى الزَّنَادِقَةِ جَمَاعَةً فَقَالُوا لَهُ عَلَى سَبِيلِ النِّكَايَةِ وَهُوَ يَضْرِبُهُمُ
الْحُدُودَ ابْنَ أَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَلْفِ حَدِيثٍ وَضَعْنَاهَا عَنْ
النَّبِيِّ مَا فِيهَا حَرْفٌ نَطَقَ بِهِ قَالَ لَهُمْ وَابْنَ أَنْتُمْ يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ مِنْ أَبِي
اسْحَقِ وَابْنَ الْمُبَارَكِ بِتَجْلَانِهَا فَيُخْرِجَانِهَا حَرْفًا حَرْفًا ^(٣)

وَلَقَدْ بَلَغَنِي مِنْ لَامِرِيَّةٍ فِي كَلَامِهِ أَنَّ هَذَيْنِ الْإِمَامَيْنِ يَتَوَلَّفَانِ
فِي فِقْهِ الدِّينِ وَعِلْمِ الْكَلَامِ رِسَائِلَ يَذْكُرَانِ فِيهَا مَذَاهِبَ الْأَيَّةِ إِلَى أَنْ

(١) ابن خلكان ١ * ٢٧٦ (٢) أبو الفداء ١ * ١٢٨ (٣) السبوطي

يتعدياها الى الرد على الذين يقولون بخلق القرآن من الزنادقة
والمسلمين الذين يزعمون انه مجوي غير العربي الفصح^(١) من الكلام
وهذان المذهبان فاشيان اليوم بين الناس والاول منها اشد
خوفاً منه على الاسلام لان زعم الآخرين ضعيف الحجج واهي الدعائم
بما يعلم عن العرب من انهم خالطوا الأمم في أسفارهم وعلقوا من
لغاتهم الفاظاً استعمالوها في اشعارهم ومخاوراتهم حتى جرت مجرى
العربي الفصح فاورد في القرآن من الالفاظ الاعجمية فانما دخل
في العربية الفصحى بطريق الاستعمال والتعليق والأفلا يكاد يرى
فيه من هذه الالفاظ ما لم يرد^(٢) في شعر المتقدمين من الجاهلية.

وفي هذا القدر كفاية للرد على هؤلاء المنتهين فيما يزعمون. واما الذين
يذهبون الى ان القرآن مخلوق^(٣) فلا بد من ايجاد حجة تكون قامة
لافتراءهم على الله ومخدةً لنار الفتنة التي كنت طي مذهبهم وهذا
من الامور التي ينبغي ان ينظر الاولياء فيه بعين الحذر لان الفتنة
لا تؤمن غائلتها بعد فساد الدين ويكون آخر امرها بواراً على
الدولة ومدعاة لسقوط العرب الذين ما فتحوا الاقاليم وحازوا
سلطان الاعاجم الا بنخوة الدين وفتوة الاسلام...

ولقد عثرت من مدونات الفقه على كتب جليلة واجلها كتاب

(٢) الدميري

(٣) الاثنان ١ * ١٤٩

(١) الاثنان ١ * ١٦٨

لابي حنيفة رحمة الله في الفقه الأكبر في الكلام^(١). وكتاب لمالك بن انس سماه الموطأ وذهب في استنباط الاحكام الشرعية من القرآن والحديث الى مخالفة ابي حنيفة على مذهب ينفرد به. وهو الكتاب الذي يقرأه الرشيد ويحفظه^(٢) على صدر قلبه تفضيلاً على غيره من كتب الفقه. وعثرت ايضاً على كثير مما دون العلماء فيما يشتمون عن الفقه من علوم الاحكام منها لابي حنيفة وابي يوسف رحمهما الله ومنها لابن شبرمة وابن ابي ليلى^(٣) وقد افردا نظرها في علم الفرائض ومنها كتاب لفتى يقال له يحيى بن اكرم جمع فيه ما استحسن من آراء اصحاب المذاهب وهو الكتاب الذي اصبر الى مطالعته من بين جميع هذه الصحف الشرعية وقد وجدت قبل صاحبه من بلاغة الفطنة^(٤) وصدق الحدس ما يؤكد لي انه ان مد له في العمر ليفضن الفقهاء واما الكتب التي وقعت الي في علوم الحديث فانها اكثر من ان تؤخذ بالاحصاء^(٥). غير ان الافادة منها كانت محصورة في ما جمعه كبار العلماء وبقي ان جملة ما في غير كتبهم مراجعة واعادة لما سبقوا الى تدوينه. فكان احرى بالادب وحرص للعلماء لو صرف الباقون عنايتهم الى النظر في غير ذلك من العلوم وما اضاعوا العمر في نقل ما هو متداول بين الناس ومسبوق الى تدوينه من غيرهم من العلماء

(١) حجي خاتمه ٤ * ٤٥٧ (٢) الزرقاني ١ * ٩ (٣) حجي خاتمه ٤ *

٢٩٦ (٤) ابن خلكان ١ * ٩٢ (٥) حجي خاتمه وكتاب النهروست

اللغة وتصريف الكلام

أما اللغة فإن العلماء قد وضعوا قواعدها على اصول وقفت عندها الغاية في الاصلاح وتدقيق النظر لانه سبق اهتمامهم بها اهتمامهم بما سواها من العلوم اضطراراً الى تفسير القرآن اذ كانت الكتابة عندهم مفقودة وكانت الفاظ العرب ضائعة بين الرمال فاسرعوا الى التقاطها من اطلال الديار وبادروا الى تقييد اللغة على حجة الاسناد والرواية

وأول من أخذ في ذلك عبد الملك بن مروان من ملوك أمية وقد عبر الناس بقراون في مصحف عثمان نحواً من اربعين سنة وهو بلا علامات^(١) فكثرت التصحيف والغلط لوجود الحروف المتشابهة حتى انه كان يقرأ بعضهم ما يمجّد بآياتنا الا كل خنار والاصل جبار وعذابي أصيب به من اشاء والاصل اساء وهم أحسن أنانا وزياً والاصل رياً والذين كفروا في عزّة وشقاق والاصل غرة الى غير ذلك. فوكل النصر بن عاصم ان يضع علامات لهذه الحروف المتشابهة فوضعها أفراداً وازواجاً^(٢) لها فكف الناس عن التصحيف ثم أخذوا في ضبط اللغة لحفظ الحديث النبوي والوقوف على الصحيح منه الى ان جاء هذا العصر والناس أخذون في تدوين العلم

(١) حجي خلفه ٢ * ١٥٤ (٢) ابن خلكان ١ * ١٧٥

فشرعوا في تدوين محفوظهم من لسان قريش وقيدوا ما كان يتناقل فيما بينهم عن طريق الرواية والاسناد

وأول من دون اللغة هو الخليل بن أحمد البصري الذي قدمت ذكره في أول الكتاب وقد ضمن كتابه^(١) أصول اللسان العربي وقيد الالفاظ بالتصريف إلا ما كان دخيلاً عليه من كلام الاعجم فانه اكتفى من ذكره بالاشارة اليه واسند الرواية فيما نقله الى اكابر الحفاظ ولذلك صار كلامه حجة يرجع اليها في منصرف الكلام ثم دونها بعده كثير من العلماء منهم ابو الحسن علي بن حمزة الكسائي مؤدب الامين والمأمون^(٢) من اولاد الرشيد وهو فاضل علم بال نحو ومنهم سيبويه والفراء والاقفش وعلمهم منفرد بالنحو الا الفراء فانه كثير الفضل على العربية بضبطها وتخليصها^(٣) وقد بلغني عنه مكان جليل من العلم ولكن لم يجعني به مجلس الى هذا اليوم. ومنهم ابو عبيدة معمر بن المثنى البصري وقد وقع الي كتاب له في فقه اللغة كتبه لتعليم الرشيد^(٤) في خلافة ابي جعفر فاودعه كلام العرب وقيد لغتهم وذكر المرادفات التي وردت عنهم في جميع الاسماء والافعال والاصناف^(٥) مشيراً الى صحة استعمالها في مواضعها من الكتابة واني على متابعة الالفاظ التي تصف الاشياء على ازدياد

(١) المقدمة ١. ٥ (٢) المسعودي ٢ * ٢١٢ والابشهي ٢ * ١٢

(٣) ابن خلكان ٢ * ٢٢٨ (٤) ابن خلكان ١ * ١٥٢ (٥) العوالي

في معانيها او نقص يبعدها عن الكناية بما لا يصح استعماله لها من الوصف الذي اقامه على طبقات معلومة من كلام العرب وهذا الكتاب يفتقر اليه كل كاتب من ابناء العرب الذين ينزلون الامصار وينقطع عهدهم باهل البداوة الذين يحافظون على قوام اللسان العربي^(١). لاني وجدت اللغة على قسمين قسم بدوي وقسم حضري. فاما القسم البدوي فهو لغة الجاهلية التي تجدها في اهل البادية لهذه الالام واما القسم الحضري فانه قطعة من لسان العرب يمازجها كلام السوق^(٢) والفاظ المعريين فيما ينقلونه من كلام الفرس واليونان مما لا نجد له مسمى في لسان العربان لان لغتهم انما وضعت للبادية حيث لا تكون هذه الاشياء التي نجد اسماءها في كتب الاعاجم كما ان في لغات الامصار اضراباً عن تسمية الاشياء التي لا توجد الا في بادية العرب

ثم اني وجدت في اهل اللغة قصوراً تساحوا فيه وتفاضوا عنه جميعاً وذلك انهم عند ما بصرفون الكلام يسردون لغات القبائل فيه من غير ان يشيروا الى ما كانت تختلف به لغة قبيلة عن اخرى. فلقد قيدوا للاسد نحواً من الف اسم ولكن من غير ان يذكروا الاسم او الاسماء التي كانت تصفه به عربان كذا وكذا وقيدوا للبعير والحية وسائر الحيوانات والاشياء والاصناف مثل ذلك

(١) بظهر هذا ما نقل الاصمعي وغيره من كلام العرب (٢) اغاني ٢ * ١٧٣

أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ عَلَى إِغْفَالٍ مَا نَحْنُ آخِذُونَ فِي الْإِنْتِقَادِ بِهِ عَلَيْهِمْ
 حَتَّىٰ إِنِّي رَأَيْتُ لَمْ فِي تَصْرِيفِ الْأَفْعَالِ إِلَىٰ مَا يَشْتَقُّ عَنْهُ مِنَ الْمَعَانِي
 مُضَادَّةً غَفَلُوا عَنْ ذِكْرِ مَعْنَاهَا بَيْنَ مَعَاشِرِ الْعَرَبِ بَانَ كَقَوْلِهِمْ عَنْ وَثَبٍ
 بِمَعْنَى الْجُلُوسِ وَالْوَثُوبِ وَذَلِكَ مِنَ الْأَضْدَادِ الَّتِي لَا أَظُنُّ أَنَّهَا تَجْمَعُ
 عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فِي لُغَةِ الْقَبَائِلِ فَإِنَّمَا كَانَ يُرَادُ بِهِ الْجُلُوسُ فِي لُغَةِ
 حَبِيرِ وَالْوَثُوبِ فِي لُغَةِ قَرِيشٍ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ ^(١)

وَبَدِيهِ أَنْ تَخَالَفَ الْمَعَانِي عَنِ الْأَلْفَاظِ قَدْ يَكُونُ قَصُورًا فِي
 اللُّغَةِ وَمُدْعَاةً لِلْبَسِّ فِي الْكَلَامِ فَلَوْ قَالَ قَاتِلٌ عَذْرَاءُ اللَّهِ وَكَانَ مِنْ
 أَعْدَائِهِ وَإِطْعَمَ قَلْبَ نَبِيِّهِ الْمُسْتَقِيمِ وَأَقْطَعَ رُؤُوسَ أُمَّةٍ الْمَعْبُودِ وَلَا
 تَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَتُجَدُّ وَالْجَنَّةُ مَشْحُونَةٌ بِالْكَفْرِ وَالْجَامِعُ مَجْلِبَةٌ لِلْمَأْتَمِّ لَكَانَ
 الْمَتَبَادِرُ مِنْ مَعْنَى كَلَامِهِ كَقَوْلِهِمْ أَنَّهُ رُبَّمَا يُرِيدُ التَّسْبِيحَ بِذَلِكَ حَمَلًا
 عَلَى مَعْنَاهُ فِي لُغَةِ قَرِيشٍ وَغَيْرِهَا فَإِنَّمَا عَذْرٌ بِمَعْنَى بَجَلٍ وَالْأَعْدَاءُ هُمُ
 الْأَنْصَارُ وَطَعَنَ قَلْبَ النَّبِيِّ أَي سَلَكَ وَسْطَ الطَّرِيقِ وَقَطَعَ كَطَعَنَ
 زَنَةً وَمَعْنَى وَالْأَمَامِ الطَّرِيقِ الْوَاسِعِ وَقُرْأَ جَمْعٌ وَجَمَدٌ بَجَلٌ وَالْكَافِرُ

(١) وَقَدْ وَرَدَ فِي كِتَابِ اللُّغَةِ كَثِيرًا مِنْ إِشْتِرَاكِ الْمَعَانِي عَلَى الْأَفْعَالِ الَّتِي تَجِيءُ
 بِمَعْنَى حَدُوثِ الْأَمْرِ الَّذِي لَهُ تَفْيِيزٌ مِنْ نَفْسِهِ مِثْلُ الصُّعُودِ وَالْإِنْخِدَارِ وَالْحُضُورِ
 وَالْغِيَابِ فَانْهَمَ يَتَّبِعُونَ عَنْهَا فِي بَعْضِ كَلَامِهِمْ بِالْفَاظِ إِشْتِرَاكِ بَيْنَ الْمَعْنِيِّينَ بِاعْتِبَارِ
 أَنَّ الْجَبَلَ لَا يَنْتَلِ مِنْهُ إِلَّا بَعْدَ صُعُودِهِ ثُمَّ لَا يَعْتَبَرُ الصُّعُودُ إِلَّا الْإِنْخِدَارُ وَكَانَ
 الرَّجُلُ لَا يَحْضُرُ إِلَّا بَعْدَ غِيَابِهِ فَإِنَّهُ لَا يَغِيْبُ إِلَّا بَعْدَ الْحُضُورِ . وَهَذِهِ هِيَ الْأَفْعَالُ
 الَّتِي اسْمُهَا بِالْفِعَالِ الْمَشَارِكَةُ وَإِنَّمَا الْكَثِيرَةُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ

المحارث والجامع القدر العظيمة والمراد منها الشراء الى غير ذلك.
فهذا الشأن غير محمود في لسان العرب ولا سيما بعد ان توحد
بنزول القرآن وقد عجبت كل العجب كيف اهل اصلاحه لهذا
الزمان وقد امتلأت صدور الرجال من العلم والادب والعرفان

الشعر في البداوة

العروض علم وضعه الله في صدور العرب حتى ليس احد منهم
الأوهو يقدر على قول الشعر طبعاً ركب فيهم قل قوله او كثير^(١).
كان اهل الجاهلية ينطقون به عن بلاغة لا يقصدون منها إلا
المفاخرة بين الاقران بخلاف ما نجد في شعرائنا لهذا الزمان فانهم
يغضبون انفسهم على المدح^(٢) بما يستمعون الملوك عليه من الصلات.
وعندي انه كلما تباعدت اجيال الاعراب وامتزج بهم الاغراب
وتجافوا عن سكنى البادية الى حيث لا يكون لهم مجالس لمناشدة
الاشعار كدايمهم^(٣) في سوق محبة وسوق عكاظ وسوق ذي الحجاز
فقدوا كثيراً من بلاغة الشعر وضاق مذهبهم به^(٤) على اتساع
الحضارة فيهم الى ان يكلفوا طبيعتهم شيئاً لا يقدرون عليه فيقولون

(١) اغاني ٢٠ * ٥١ (٢) اغاني ٢ * ١٧٩ (٣) الاغاني والفزوني ٥٧

وابن خلدون ودبوان الحماسة والموازنة وابن العميد وابو عبيدة (٤) المقدمة

البيت ويجكونة^(١) اياماً

وكان الحامل للمتقدمين على الاجادة في العروض ان شاعرهم
كان ينفرد بمذهب واحد من المذاهب المعروفة عندهم بين فخر
ونسب ومدح وهجاء من غير ان تكون له محاسن فيما سواه . ثم ان
كلام العرب^(٢) كان سائراً لا يامهم على الالسنه فلم يعانوا تكلفاً الى
البلاغة^(٣) فيما قصدوا من هذه المذاهب التي انفردوا بها على انفرادهم
من الاحوال في خصائص كانوا بها موصوفين كما سترسال امرء
القيس في معاش الشباب بحيث أتى من نعت محاسن النساء بما ليس
لقول غيره موقع مثله من القلوب ومدخل لطيف وان هو الا
أرق الغزاليين حيث يقول

أفاطم مهلاً بعد هذا التدلل

وان كنت قد أزمعت صرعي فاجلي

أغرك مني ان حبك قاتلي

وانك مها تأمري القلب يفعل

وكجد عنتره بن شداد في الفروسية بحيث أتى في الحماسة^(٤) بما لم يسبق

اليه أحد من القوالين كقوله

هو سابقني المنايا وهي طالبة قبض النفوس اتاني قبلها السبق

(٢) اغاني ٣ * ١٦١

(٣) اغاني ٥ * ٢٧٢

(١) اغاني ٣ * ٢٥

(٤) الاغاني ٣ * ١٨٨

والموازنة والمنطرف ١ * ٧٧

وكاسترسال حاتم الطائي في سعة العطاء^(١) بحيث أنه بني قواعد
الكرم على المحالين من اقبال الدنيا او إدارها فيقول^(٢)
تري ان ما انفتت لم يك ضائري

وان يدي ما بخلت به صفر

وكارتفاع السهول بن عادياء في درجات المحاسن الشريفة بحيث
انه اتى من الفخر في كلامه بما يسره به الى ارفع طبقات الشعر كقوله^(٣)

اذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه

فكل رداء يرتد به جميل

تعيرنا انا قليل عدينا

فقلت لها ان الكرام قليل

وكاتقطاع أمية بن ابي الصلت الى العبادة بحيث اتى في ذكر عامة
الآخرة بما لم يشركه به متقدم ولا متأخر^(٤) الى غير ذلك مما يتسع
له المجال فتقف منه على هذا الحد

وقد انتهت بلاغة الشعر الى المعلقات السبع وهي اصدق

شاهد على فضل المتقدمين بما قصدوا اليها من انسجام القول ونعت
الشعائر التي تدل على أنفة النفس وعلو الهمة على غير تكلف لها

(١) ابن كتيبة والمستطرف ١ * ٢٠٤ (٢) اغاني ١٦ * ٩٦ (٣) ابن

نباتة والاغاني ٦ * ٨٣ والوطواط ٧٦ والمستطرف ١ * ١٦٠ (٤) اغاني

بما نعلم من انشادهم اياها ارتجالاً بين العشائر فان الحارث بن حلزة لما انشد عمر بن هند معلقته توكأ على قوسه وانشدها واقتطم كفه وهو لا يشعر من الغضب حتى فرغ منها^(١). فيظهر ان كان لهم في الشعر سرٌّ ضاع عن المحدثين سره لانقلابه عليهم من الطبيعة الى الصناعة^(٢) لان العربان كانوا كلهم شعراء وكانت الحكمة سائرة على السننهم كما شهد النبي صلى الله عليه وسلم حتى اذا انشده قول طرفه من اصحاب المعلقات

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً

ويأتيك بالاخبار من لم تزود

قال هذا من كلام النبوة^(٣). ثم ان النساء^(٤) كنَّ يقطن الشعر ايضاً لا يامهم حتى ان بعضهن قد فضلت الرجال مثل لبلى والخنساء وكتبتها شاعرة فصحاء فلقد وجدت في شعر لبلى كثيراً من المعاني الحسان ومن كلامها^(٥) فيما ابتدعتها من اقوال اهل السيف مهفف الكشح والسربال مخرق عنه التميمص لسير الليل مخترق لا يأمن الناس مساءً ومصبجة في كل فج وان لم يغز يتظر ووجدت في نابين الخنساء لصخر والبكاء عليه ابياتاً^(٦) يتخذها

(١) الاغانى وابو عبيدة (٢) الموازنة وكتاب الاغانى (٣) العند

التريد ١٢٢ * ٢ (٤) المستطرف ١ * ٧٦ (٥) اغاني ٩ * ١٧١

(٦) الاغانى ٦ * ١٤٠ والعند ٣ * ٢٢٤ والانليدي ٢٥

رجال الادب مثلاً في رقة الالفاظ التي لا تخرج الأ من قلوب
المتوجعين . وفي قولها^(١)
وان صخرًا لنا تم الهداة به كانه علم في رأسه نار
وقولها

اذا القوم مدوا بايديهم الى المجد مد اليه يدا
فقال الذي فوق ايديهم الى المجد ثم مضى مصعدا
ما يرفعها الى محاسن الشعر^(٢) ومساماة البلغاء من الرجال
وقد اجاد المتقدمون في براعة الاستهلال الى حيث يقف الحد
وكانوا يذكرون ربوع الاحباب وتعفية الرياح رسومها وما يخالج
قلوب العاشقين من الوجد والصبابة في وقوفهم بالعيس الى
اطلال الديار الى ان يتخلصوا منها الى ما يأخذون به من مذهبهم
ولكن على انخطاط يقعون به اكثرهم بعد علوهم في ابتداءاتهم الا
الذين يتوسطون في مطلعهم فيستمررون على استوائهم او الذين
يعلون علوا حسنا ولا يزالون فيه على بلاغة تسحر الالباب ولكنهم
نفر قليل مثل امرئ القيس وزهير بن ابي سلمى والنايعة الذبياني وهم
المتقدمون على جميع الشعراء وموضعهم واحد من البلاغة^(٣) الا انه
غلب على ذي القروح التجميل بالمعاني وبديع الوصف وعلى النايعة
الاسترسال في البراعة وعلى زهير العناية بتقويم الالفاظ . وقد

سمعتُ الأصمعيَّ يقول وقد سُئِلَ مَنْ اشعر العرب انهم زهير اذا
 رغب والنابغة اذا طرب وامرء القيس اذا غضب وعترة اذا ركب
 والاعشى اذا رهب^(١) اه . ولئن كان في تفضيل الشعراء بعضهم على
 بعض عسرا لا يؤمن معه من الزلل عن محاسن الشعر والافراط
 في ظلم الشعراء حقوقهم فما انا براء في ابيات العرب ما يسمو الى كلام
 النابغة في ذكر مفاخرها من حب القتال وثباتها في الطعان
 والنزال بقوله^(٢) في مدحهم

ولا عيبَ فيهم غير ان سيوفهم بهنَّ فلولٌ من قراع الكتابِ
 ولا الى كلام زهير في معرض المدح وقد اتى عن المادحين فضول
 الكلام بقوله^(٣)

وان يكُ من خيرِ اتوهُ فانما توارثه اباك اباهم قبلُ
 ولا الى جمال الوصف الذي نظمه امرء القيس في معلقته نظم اللالي
 في شذور الذهب فقد لا تحضر البلغاء انفسهم عبارات ينصحون بها
 عن محاسن كلامه الذي ذهب مذهب المعجزات فان العرب لم
 ينفكوا عن السجود له وهو معلق في الكعبة^(٤) الى ان ظهر الاسلام
 وفسدت فصاحته بما نزل من كلام الله على النبي صلى الله
 عليه وسلم

(١) الاغاني وابو عبيدة (٢) فقه اللغة ١٨٤ واغاني ٩ * ١٦٨ (٣) اغاني

(٤) الاغاني

وأما الذين دون طبقتهم من الشعراء فانهم ينفردون بالخصائص التي لا يتعدونها الى التصرف بالمذاهب الواسعة كانفراد ابي داود بوصف الخيل^(١) وانفراد علقمة بوصف الوحش وانفراد اوس بن حجر بوصف الخمر^(٢) الى غير ذلك . ولم يكن بينهم اقرب الى طبقة الثلاثة المتقدمين من الاعشى ميمون بن جندل الاسدي^(٣) ولكنه كثيراً ما كان يقع في الانحطاط^(٤) او يأتي بالالفاظ الغريبة التي تعجم على الاذهان وهذا يصح ان يسمى لحناً في شعره وشعر غيره من المتقدمين وان كان بعض المتأولين من الادباء يجدون له مخرجاً للسلامة من العيب اذ يجوزون للمتقدمين ما ليس يجوزونه للمتأخرين

الشعر في الحضارة

ولقد وجدت في شعر الاسلاميين المتقدمين علواً كادوا ان يساموا فيه اهل الجاهلية ولذلك يصح ان ينخرطوا في طبقاتهم وذلك مثل الأحوص وذو الرمة^(٥) وحسان^(٦) بن ثابت وعمر بن ابي ربيعة^(٧) والقطامي صريع الغواني^(٨) وغيرهم فان لشعرهم من

(١) اغاني ١٥ * ٩٥ (٢) اغاني ١٥ * ٩٦ (٣) الاغاني ٩ * ١٤٠

(٤) الموازنة (٥) المستطرف ٢ * ٢٩ (٦) الاغاني ٤ * ٢ (٧) اغاني

(٨) اغاني ٢ * ٢٥ ١٠١ * ٢

الديباجة والماء والرونق والحلاوة^(١) ما لا نجد في شعر البلغاء من الجاهليين. وربما انتهى بعضهم في المذاهب التي كانوا بها آخذين الى حيث تفق بلاغة الشعر كذكر الفخر والحجاسة في كلام حسان اذ يقول

لنا الجففات الغرّ يلعن بالضحى
واسيافنا يقطرن من نجدة دما
أو ذكر الحكمة في كلام القطامي حتى انه لما اشهد عبد الملك بن مروان قصيدته اللامية وانتهى منها الى قوله

قد يدرك المتأني بعض حاجبه وقد يكون مع المستعجل الزلل
لم يتالك من ان يقول لعمرى هذا هو الشعر الصحيح. او ذكر عامة الشباب في كلام ذي الرمة وعمر بن ابي ربيعة^(٢) بحيث ان لها في نعت محاسن النساء من الاوصاف البارعة مع عذوبة الالفاظ وجودة السبك ما ليس مثله لاحد من شعراء العرب^(٣) الى غير ذلك ثم ان الشعر يقع في الحضارة بعد هؤلاء المتقدمين ويفقد كثيراً من البلاغة التي كانت على لسان الجاهليين لابرار معانيهم في افصح الكلام الا انه لا ينفط عنه في الاوصاف البارعة وتناول المعاني من حيث الشعر نفسه فلقد نجد لبعض المحدثين من سعة التصرف به سرعة خاطرهم الى النظم ما لولا ان تأخرت ايامهم لحسبناهم من طبقات المتقدمين. على ان لغتهم ليست من الفصاحة^(٤) بالموضع الذي كان

(١) البنية ٧ (٢) اغاني ٢ * ١٠١ (٣) المنطرف ٢ * ٢٩ (٤) البنية والاغاني

للجاهليين والعذر لهم في ذلك ان شاعر البادية كان يلتمس الفصح
من الالفاظ حتى يسمو على كلام غيره من الشعراء واللغات اذ ذاك
كثيرة بين العربان واما اليوم فان اللسان الذي نُزِلَ فيه القرآن
معروفٌ عند كل الناس ولا يضطرُّ الشاعر الى التماس الالفاظ
يفضل بها لسان غيره لتوحد لغة قريش في كافة الامصار وانما
وجب عليه ان يتدع المعاني^(١) التي لم يسبق اليها غيره دون تكلفه
الى تناول الغريب^(٢) من الكلام لان الالفاظ السوقية عندي لا تمنع
ان تكون القصيدة جيدة^(٣)

ولقد قسمت الشعر في الاسلام الى طبقات ثلاثٍ اقربها الى
بلاغة البداوة بعدها عن حضارة الامصار. اوها عصر عبد الملك
والشعرا ذاك في ثلاثة من تميم^(٤) وهم جرير والفرزدق وهو نبغة
الشعر^(٥) والاخلطل النصراني وهو المجيد في مدح الملوك^(٦) ووصف
الخمر وكان المقدم عليهم جرير^(٧) بقوله في المدح وقد فضل الشعراء^(٨)
أستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
وقوله في النسب^(٩)

ان العيون التي في طرفها حورٌ قتلنا ثم لم يبين قتلنا

(١) المقدمة ٥٢٩ (٢) اغاني ٢ * ١٤٥ (٣) اغاني ٢ * ١٢٢ و ١٧٢

(٤) اغاني ١٩ * ٦ (٥) اغاني ٩ * ١٤٧ (٦) اغاني ٩ * ١٤٧ (٧) اغاني

١ * ٢ (٨) الاغاني والوطواط ١١١ وابن خلكان ١ * ١٤٢ (٩) اغاني

١٤ * ١٧٧ والعقد ٢ * ٤٥١

يصرعن ذاللب حتى لا حراك به وهن اضعف خلق الله انسانا
وهذا من الكلام الذي تنهاى اليه رقة اهل الصباية ولم نجد من
بعد مثله الا في شعر جميل وكثير^(١) وقد استرسلا في معاش الشباب
وانقطعا الى النسيب^(٢) من مذاهب العروض . وقال جميل في
موقف المتوجعين من العشاق^(٣)

وما زلت يابئن حتى لو اني من الشوق استبكي الحمام بكى ليا
وما احدث الناي المفرق بيننا سلوا ولا طول الليالي تقاليا
على اني راض بان احمل الهوى واخلص منه لا علي ولا ليا
واما الطبقة الثانية فانها عصر ابي جعفر وشعراؤه من تقدم ذكرهم
والطبقة الثالثة هي عصر الرشيد والبرامكة وشعراؤه اكثر من ان
يؤخذوا بالاحصاء ولكن لا ارى بينهم الا ابا العتاهية وابانواس
وهما شعر الناس^(٤) لهذا الزمان

اما ابو العتاهية فانه انتطع في شعره الى ذكر عامة الآخرة^(٥)
له ارجوزة حوت اربعة آلاف بيت واودعها من المعاني الجليلة
ما ابرزه في احسن الصور وقد وجدت في انشاده روائح الجنة في
الشباب^(٦) قولاً يقبله القلب ولا يفسره اللسان . والناس يذكرون

(١) اغاني ٤ * ٥٨ (٢) الموازنة ٤ (٣) الاغاني وتزيين الاسواق وابن

خلكان ١ * ٦١ والابشيبي ٢ * ٢٢٤ (٤) ابن خلكان ١ * ٩٢ (٥) ابن

الاثير واغاني ١١ * ٢٢ (٦) اغاني ٢ * ١٤٢

انه خرج عن العروض بوزن لم يذكره الخليل بن احمد ولكني لا اجد ذلك خطأ منه او تطاولاً على قواعد العلم لان الخليل لم يستوف الكلام في العلم الذي وضعه ولا سيما في بحر المديد فان من العروضيين من زاد فيه على ما ذكر^(١) وقد كان ابو العتاهية من المحظوة عند الرشيد بحيث كان لا يفارقه في حضر ولا في سفر^(٢) ثم آل امره الى الزهد فلبس الصوف وعزف نفسه عن الدنيا^(٣) وكان يقول^(٤)

كان كل نعيم انت ذائقة من لذة العيش يحكي لمة الآل
فصار اذا استدعاه اليه ليصف له ما هو به من عزّة الملك بادره
بالتذكير فيبكي الرشيد من مواعظه فيهم الجلّاس الى معاتبته فيقول
الرشيد لم دعوه انه يرانا في عي فيكره ان يزيدنا منه^(٥)
واما ابو نواس فان مذهبه من القول منافع المذهب ابي العتاهية
واكثر ما فيه الغزل والزهر والخمر تباعاً لما نجد عليه من التماس
الهزل^(٦) والمزاح في حضرة الملوك انفسهم^(٧) فهو يذكر ابليس والخمر
في شعره كما يذكر ابو العتاهية الجنة والآخرة فيقول^(٨)
عجبت من ابليس في كبره وخبث ما اضمهر في نيتته

(١) المسعودي ٢ * ٢٦٥ (٢) اغاني ٢ * ١٥٧ (٣) اغاني ١١ * ٢٢

(٤) اغاني ٢ * ١٦٢ (٥) الفخرى ٢٢٠ وابن الاثير ٦ * ٧٩ والطرطوشي ١٧

والكشكول (٦) تزيين الاسواق ١ * ٧ (٧) اغاني والف ليلة وليلة وحلقة

الكعبت واعلام الناس (٨) الف ليلة وليلة واعلام الناس ١١٩

ثم يقول في معرض آخر^(١)

وليلة طال سهادي بها فجاءني ابليس عند الرقاد
وقال هل لك في قهوة عنقها العاصر من عهد عاد
ويقول في الخمر^(٢) على سبيل الاستطباب

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفانك لابنة الكرم
الى ان يقول^(٣)

فعلت في البيت اذ مزجت مثل فعل الصباح في الظلم
فاهتدى ساري الظلام بها كاهتداء السفر بالعلم
ويقول في المنادمة عليها^(٤)

الافاستني خمرًا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرًا اذا امكن الجهر
ويقول في وصفها مما لم يسبق اليه احد^(٥)

وحمره قبل المزج صفراء دونه كان شعاع الشمس يلفاك دونه
ويقول^(٦) في انشراح الصدور من شربها

اذا ما انت دون الالهة من الفتى دعا همة من صدره برحيل
ويقول في نعت صفائها مما ينتهي اليه جمال التصور ورقة الكلام^(٧)

رقّ الزجاج وراقت الخمر وتساها فتشاكل الامر
فكأننا خمر ولا قدح وكأننا قدح ولا خمر

(١) انليدي ١٢٠ (٢) الحصري ٦٢*٢ (٣) المسعودي ٢*٤٢٢

(٤) الوطواط ٤٥ (٥) المسعودي ٢*٤٢٢ (٦) البنية ٩٦ (٧) وجدت

في ابن خلكان ان هذا القول ليس لابي نواس

وله في صفاتها ونعت طعمها وربحها ولونها وشعاعها وحال
 المناديات عليها والاصطباح والاغتياب^(١) ما توسع فيه الى ادب
 ليس للشعراء حظ به مثله وهذا مما يدل على اقتداره على الكلام
 وان كان مذهبه غير محمود عند اهل العبادة فاهو عندي الأشاعر
 المسلمين حقيقة واني أفضل شعره على شعر ابي العتاهية لان قصائده
 كلها سليمة من العيب^(٢) واما ابو العتاهية فانه وان تكن له
 استخراجات لطيفة ومعانٍ ظريفة فقد يقول البيت النادر ثم يتبعه
 البيت السخيف البادر^(٣). وقد ذكر لي وراق في درب القراطيس
 كنت ألف حانوته ان مر به ابو العتاهية يوماً وعندة ديوان لابي
 نواس فوقع نظره على هذا البيت

لن ترجع الانفس عن غيبها ما لم يكن منها لها زاجر
 فسألني لمن البيت فقلت لابي نواس فقال والله احب ان يكون
 لي هذا البيت ينصف شعري^(٤) اه. واظن انه لو وقف على قوله^(٥)
 ليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد
 او قوله وهو امدح بيت المحدثين

وكلت بالدهر عيناً غير غافلة مجود كفلت ناسو كلما جرحا
 لقال فيها مثل ذلك. ولقد لقيت اسمعيل بن نوبخت في مجالس

(١) المسعودي ٢ * ٤٢٢ (٢) النير واني وابن خلكان (٣) اغاني ٢ *

١٨. (٤) الطرطوشي ١٠ (٥) الاغاني والنبية ١٠٢

البرامكة وقد جرى الحديث بحضرتهم عن الشعراء فقال سمعت
الناس يقولون ان الاصمعي أعلم الشعراء وأشعر العلماء فوالله ما رأيتُ
أحق بهذا القول ان يقال فيه من أبي نواس لاني ما رأيتُ أوسع
علماً في كل شيء منه وليس في الشعراء من مبارٍ يعلق له بغبار
وكفى بتحقيق فضله عليهم ان كلامة كلة موزون^(١) مثل الشعر الذي
رسخت في صدره ملكته وصار في نفسه طبيعة ترفعه على جميع الشعراء
وقد لقيتُ في بغداد جماعة من الشعراء مثل العائني وأبي مصعب
وأبي الشيص وأبي عبد الرحمن العطوي وغيرهم واتصل بي اخبار
جماعة ممن يتصرف بفنون الشعر ويتبدع المذاهب التي لم يسبق
اليها الشعراء الى نظم القصائد التي ليس في آياتها حرف يعجم كقولهم^(٢)
وحاولوا ردَّ امرٍ لا مردَّ له والصرم داء لاهل اللوعة الوصل
أو نظم الزهريات في كلام لا ينحط عن لغة الجاهليين في جود
السبك وتقوم الألفاظ كقول بن أبي عمينة^(٣) الذي قدمت ذكره
في أوّل الكتاب

فان جمحت فاذكر لها قصر معبدٍ بمنصف ما بين الأبلّة والحبل
ومن حولنا الریحان غضاً وفوقنا ظلال من الكرم المعرّش والتخل
ولكنهم قد كانوا في ايام ابي نواس وأشجع ومسلم بن الوليد فضاع
فضلهم بين هؤلاء المجيدين^(٤) ولم يكن لهم ذكر في مجالس الخلفاء

(١) ابن خلكان (٢) اغاني ٤ * ١٠٧ (٣) اغاني ١٨ * ١٤ (٤) اغاني ١٥ * ١٠٨

الغناء وتحريره وإصلاحه

قد مضى اليك من الكلام عن الغناء في بعض كتبي السالفة ما يقضي بصحة ذوق العرب وحسن ما يصنعون من الاصوات وكان أصل الغناء عندهم أربعة نفر^(١) ابن سريج وابن محرز وهما مكبان ومالك ومعبد وهما مدنيان . وكانت النساء ايضا يشاركنهم بهذا العلم فتقدمت عليهن عزة الميلاء بالغناء الموقع لانها كانت احسن الناس ضربا بعود^(٢) . وكان لها استاذة يقال لها رائثة فتخرجت عليها ثم قدم الحجاز سائب ونشيط وغنيا بالفارسية فلقت عزة عنها نفعا وألفت عليها الحاناً كثيرة لينة^(٣) ثم ظهر طويس المغني فصنع الرمل والهزج^(٤) واول ما غنى به على لحن صنعته قوله^(٥)

قد براني الشوق حتى كدت من وجدني اذوب
ثم غنى ابن مسجح الغناء العربي المنقول من الفارسي^(٦) واشهره بين
الناس فكان ابن سريج يضرب بالعود على هذا الغناء المنقول الى
ان ظهر معبد في المدينة المنورة وصنع من الاصوات البديعة ما فضل
فيه غيره من اهل زمانه وفيه يقول شاعر تلك الايام^(٧)

أجاد طويس والسروجي بعده وما قصبات السبق الأ لمعبد

(١) اغاني ٥ * ٥٧

(٢) اغاني ١٦ * ١٢

(٣) اغاني ١ * ٢٨

(٤) اغاني ٢ * ٨٦

(٥) المستطرف ٢ * ١٨٨

(٦) اغاني ٤ * ٢٨

(٧) ابن خلكان ١ * ٥٧١ وابن نباتة

وقد كان الغناء من قبل نقله عن الفارسية مأخوذاً عنهم عن
الآذان^(١) فلما نقلوه عن قومنا اجادوا بتأليف الانغام الى ان فضلهم
في حسن الاصوات . وكان عهد العرب بالغناء في ايام الامويين
ثم في خلافة ابي جعفر من بعدهم وكان هو المقرب لهم والمتقدم اليهم
بتعريب كتاب اللخون الثانية لبطليموس^(٢) من علماء يونان حتى صير
الغناء في الناس صناعةً لكسب المعاش

وكان الحامل للعرب على اعادة الغناء امرين الاول انفراد
كل واحد منهم بلحن من الالحان ينقطع الى التفتن فيه حتى يفوق
الحان غيره من المغنين كانفراد معبد بالثقل^(٣) وابن سريج بالرمل
وحكم الوادي بالهزج واحد النصيبي بالانصاب^(٤) الا الخفيف
الرمل فانهم يتشاركون فيه جميعاً بحيث لم اجد مغنياً انا تغني لنفسه
يكاد يغني الا خفيف رمل^(٥) . والثاني ما كانوا يتناولونه من الخلفاء
جوائز ومن الامراء واهل النعمة اجرة واسعة^(٦) على غنائهم ممن
يستدعيهم الى فرح او يجتمعهم لمناضرات الغناء ثم يخرج بدر الدنانير
لاجازة المحسنين^(٧) منهم فسئل حين المغني وقد تدب الى مادية
لا يعهد الساحة في صاحبها لم لا ترضى بالاجرة اليسيرة قال انما هي
انفاسي اقسها بين الناس اقتلوموني ان اغلي بها الثمن

(١) اغاني ٥ * ٨٩ (٢) ابن نباتة (٣) اغاني ٦ * ٦٦ (٤) اغاني

١٦١ * ٥ (٥) اغاني ٧ * ٢٦ (٦) اغاني (٧) اغاني ١٤ * ٥٥

ثم ظهر عصر البرامكة وهم محبوبون للعلم ومقربون اهل الادب اليهم فكان ممن قرَّبوه من المغنين ابرهيم الموصلي وابنه اسحق وهما بمكان جليل من الادب الا انه غلب عليهما الغناء بما وضعاه من الالحان فاشتهرا بالكناية به وقد وضع ابرهيم اللحن الماخوري الذي لم يشركه فيه احد وكان يظن اضعوبة المأخذ في ابتداعه ان ابليس^(١) القاه عليه في المنام. فانما طال ما تهوَّس بالغناء وامعن من النظر في ابتداع الالحان على اطراف الانعام موقعاً من القلوب حتى توهم ان الارواح كانت تلقي عليه هذه الاصوات. وقد قالت الشعراء في مدحيه على موضعه الجليل من الغناء^(٢)

ما لابرهيم في العلم بهذا الشأن ثاني
انما عمر ابي اسحق زين للزمان
جنة الدنيا ابو اسحق في كل مكان
منه يجني ثمر اللهو وربحان الجنان

وكذلك كانت اجازة ابنه اسحق فانه وضع الحاناً كثيرة في غناء العرب وجاء بلحن التخيث^(٣) الذي لم يسبق اليه غيره ولا قدر على حسن التغني به مثله احد قط. وقد صنع الحاناً لا يقدر شعبان منثلي ولا سقائلا يجمل قرابة على الترم بها. وصنع غيرها ما لا يقدر

(١) الاغاني ٥ * ٢٦ وحلقة الكعبت ١٥٨ وانايدى ١٠٠ والفة ليلة وليلة

(٢) اغاني ٥ * ٦ (٣) اغاني ٢ * ٧٩

المتكى^(١) ان يترجم به الأقد مستوفزاً ولا القاعد حتى يقوم^(٢). لانه سبى
من اقتداره على الغناء الى ان يجعل في نفس السامع تحركاً لما يعنى
بعناه من الاشعار فيجهاها على الكبر في معرض المدج وعلى الحماسة
في معرض الفخر وعلى الرقة في استرسال الهوى وعلى البكاء في
موقف التذكير وذلك فضلاً عن اجادته في ضرب العود. فلقد
كثرت يوماً بدار الرشيد وفي مجلسه عشر جوار يضربن على العبدان
فوقع خلل في بعض الاوتار فعرفه من بين اربعين وتراً^(٣) نحرّك
بين اناملهنّ فهذا اقتدار عظيم على هذه الصناعة لم يبلغه منها قوم
يونان مع طول مدتهم^(٤) في الممارسة لها والمران عليها

ولقد كتب اسحق رسالة مطوّلة في الغناء صحّح فيها اجناسه
وانغامه وطرائقه وميزه تمييزاً لم يقدر عليه سواه^(٥). وقد خطأ يحيى
المكي فيما دون من الغناء^(٦) ويونس الكاتب في الرسالة التي نسب
فيها الاصوات الى من ابتدعها من المغنين^(٧). الا انه كان يرى ان
ليونس فضلاً فيما سبق الى تدوينه من الاغاني حتى ليس مرجع نسب
الاصوات الا اليه اعظم من فضل يحيى المكي فيها حاول تمييزه من
الغناء وتصحح اجناسه على جهل ساقه الى اضاءة الصناعة القديمة.

(١) اغاني ١ * ١٢. (٢) اغاني ٥ * ٤١ و ٥٣ و ٦. (٣) اغاني

كتاب ٥ (٤) اغاني ٦ * ١٨ (٥) اغاني ٥ * ٥٢ و ٦ * ١٧

(٦) الاغاني كتاب ٥

لأنَّ هذا هو المبدأ الذي يتعصب له اسحق^(١) وينظر فيه من يقول
بضده من اولاد الخلفاء كما مرَّ في موضعه من الكتاب
ومن العجيب من حذاقة اسحق انه اقام طرائق الغناء من
نفسه لا نقلاً عن كتب اليونان الاّ ما اقتبسهُ من تقسيات^(٢) اقليدس
وما هو الاّ النزر اليسير في جانب الكثير الواسع من علمه فقد ميز
اجناس الغناء كلّه^(٣) وجعل الثقيل الاول اصنافاً فبدأ فيه باطلاق
الوتر في مجرى البصر ثم اتبعهُ بما كان منه بالبصر في مجراها ثم بما
كان بالسبابة في مجرى البصر ثم فعل هذا بما كان منه بالوسطى
على هذه المرتبة ثم جعل الثقيل الاول صنفين الاول ما ذكرناه
والثاني القدر الاوسط من الثقيل الاول واجراه المجرى الذي تقدم
من تمييز الاصابع والمجاري والحق بذلك جميع الطرائق والاجناس
واجراها على هذا الترتيب . وميزها على اكثر من عشرة آلاف
صوت للمغنين لم يغير فيها لحناً واحداً وذلك بخلاف الذين دونوا
الغناء قبله ومن بعدُ فانهم اضاعوا صناعة الغناء القديم الاّ احد
بن يحيى المكيّ المقدم ذكره في كتاب له في الاغاني ونسبها يقال له
المجرّد^(٤) فهو اصل يرجع اليه ويعول عليه وما اعرف كتاباً بعد
كتاب اسحق يقارب كتابه ولا يقاس به . فكأنه قام على مخالفة

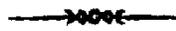
(٢) اغاني ٥ * ٥٣

(٣) اغاني ١٥ * ٨١

(١) اغاني ٥ * ١٠٢

(٤) اغاني ١٥ * ٦٥

ابيه ومن ذهب مذهبه في تغيير اصوات المتقدمين ورجع الى الغناء القديم الذي سبق الى التعصب له مغن يقال له سياط وقد عد على المهدي وانا مقبم بالرسالة في خراسان فلم يوفقني الحظ الى الاجتماع به ولكن حسبي من الثناء على موضعه الجليل من هذه الصناعة^(١) ان ابرهيم واسحق هما تلميذاه^(٢) واليهما المنتهى في اعادة الغناء



لمعة في علوم الفلسفة

ان العلوم الفلسفية التي استخرجها العرب من كتب الاعاجم كانت مجهولة بينهم من قبل الا عند نفر قليل من اهل الشام من جاور الرهبان وتلقى^(٣) عنهم حكمة اليونان التي كانوا يحفظونها في خزائهم^(٤) واما اليوم فانا نجدها في سكان الامصار من العراق ومصر والشام والحجاز الا عربان البادية لانهم لا يوجهون الى العلم عنايتهم وانما هم^(٥) ارتياد المسارح والمزارع لحبواناتهم كما سبق الالماع اليه في صدر الكتاب

وهذه العلوم الفلسفية تقسم الى اربعة انواع^(٦) رياضية ومنطقية وطبيعية واهلية فاما العلوم الرياضية وهي النجامة والعدد والهندسة والغناء فانهم قد نبغوا فيها النبغة التي لم تكن للمتقدمين من

(٦) المقدمة ٤١٦

(٢) اغاني ٦ * ٩

(١) اغاني ٦ * ٦٥

(١) حبي خلفه ٤ * ٤٦٢

(٦) المقدمة (٦) المفري

الفرس واليونان وقد مضى من الكلام عن النجامة والغناء ما يقضي
 بفضل الموصليين والخراسانيين فيما وقفوا عليه من علم الافلاك
 وفضل العرب فيما ابتدعوه من الاصوات المحكمة والانغام
 الحسان . ولم يكن موضعهم من العلوم العدديّة وما يتبعها من الجبر
 والمقابلة وهي الصناعة في استخراج العدد المجهول من قبل المفروض
 المعلوم^(١) الأموضعهم من النجامة والغناء في تحريرها واصلاحها
 والاعتبار في الاقسام التي تلتحق بها من فن المناظرة والفرائض
 والمعاملات بتقدير الاوزان وغير ذلك . وهذه هي العلوم التي
 يمتازون بها عن سواهم من الأمم بما وضعوه لها من التواعد التي لا غاية
 بعدها في الإصلاح

واما علم الهندسة فقد كان مرجعهم فيه الى كتاب بطليموس
 الذي اخرج الهندسة من القوّة الى الفعل^(٢) وكتب اقليدس
 المهندس من حكماء يونان وقد عرّبت رسائلها في خلافة ابي جعفر
 ثم أعيد تعريبها في هذه الايام بقلم مهندس يقال له ابو كامل^(٣) في
 جلد كبير سماه كتاب الاركان^(٤) وفيه خمس عشرة مقالة لاقليدس
 يبحث في الاربعة الاول عن السطوح وفي الخامسة عن الاقدار
 المناسبة وفي السادسة عن نسب السطوح بعضها الى بعض وفي

(١) المقدمة ٤٢٢ (٢) ابن نباتة (٣) اغاني ٦ * ١٩١ (٤) المقدمة

السابعة الى التاسعة عن العدد وفي العاشرة عن المنطقات والقوى على المنطقات ومعناها الجذور وفي المقالات الخمس الباقية مطلب واسع في المحسّنات^(١). وقد الحق العرب بالهندسة علم الهندسة المخصوص بالاشكال الكروية نقلاً عن كتابين لميلاوش وناودوسيوس وفيها بحث مسهب في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر باسباب الحركات^(٢). والمحتمل ايضاً علم المخروطات نقلاً عن كتاب ابولونيوس^(٣) من علماء يونان فعرفوا ما يقع من الاشكال والقطوع في الاجسام المخروطية وقادوا التجارة والبناء^(٤) بما وقفوا عليه من كيفية رفع الاثقال^(٥) وجرها وغير ذلك

واما العلوم المنطقية ومنها الشعر والخطابة والمجدل والبرهان والمغالطة وغير ذلك^(٦) فان ايجادتهم فيها كانت دون ايجادتهم في العلوم الرياضية الا علم العروض فانهم قد بلغوا فيه الغاية التي لا وراءها مطمح الا لكلام النبوة. وان كان شعر الجاهلية جافياً لمكان اهلها من الخشونة وقيامهم في القفر بين الابل والوحش والمنازل الخالية فان شعر المتصّرّين ليس بخال من رقة الالفاظ وجمال الصور وهم قائمون بين فرش الحرير واطباق الرياحين

(١) المقدمة ٤٢٤ (٢) المقدمة (٣) المقدمة (٤) المقدمة

(٥) حجي خلفه ٤ * ٤٦١ (٦) حجي خلفه ٤ * ٤٦٤

وآلات الطرب والقيان والندمان^(١) . فلقد نسمع عن اهل
الاندلس انهم يقولون شعراً ارقّ من النسيم^(٢) وذلك لغزارة
المياه في اراضهم ونماء الرياحين في جناتهم وظهور ربح الصبا عندهم
حتى كان المرتحل منهم الى المشرق اذا استقبل نسيم الغرب ذابت
نفسه من الشوق الى تلك الديار فقال
واذا ما هبت الريح صباً صحت واشوقني الى الاندلس^(٣)
مع ان ديار العربان قفرة واقامهم محرقاً للابدان ومجفّ للعقول
وذلك مما لا يولد فيهم من رقة القول ما نجد في شعر الاندلسيين
اما علوم المنطق فقد كان مرجعهم فيها الى كتب المنطقيات
لارسطو الحكيم عربت في خلافة ابي جعفر^(٤) بمناظرة عبد المسيح
الحمصي وهو من اشهر النقلة بعد سلام الابرش^(٥) وهي تشتمل على
رسائل ثمان اربع منها في صورة القياس واربع في مادته^(٦) . واما
علوم الخطابة والمجادل والمغالطة فقد دونوا فيها اسفاراً كثيرة ولكن
على غير تخيص يرجع بهم الى محاسن العلم . الا ابن العلاف^(٧) خطيب
هذا الزمان في رسالة له بالخطابة بدأ فيها بذكر اخبار سبعان
وقس بن ساعدة وغيرها من بلغاء العرب الى ان أتى على بيان
القواعد التي تلزم آداب الخطابة في جميع اقسامها وانواعها

(١) الاغاني (٢) المقرئ وابن سعيد (٣) المقرئ (٤) المسعودي ٢ * ٤٠٠

(٥) حمي خلفه ٢ * ٩٧ (٦) المقدمة (٧) ابن خلكان ١ * ٩٢

وأما العلوم الطبيعيَّة وهي^(١) علم المبادي وعلم السماء وما فيه
وعلم العالم وعلم الكون والفساد وعلم المعادن والنبات والحيوان
وفيه علم الطب فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب الأعراف والآما وقنوا
عليه بأنفسهم من حقيقة المعادن في علم الكيمياء وهو النظر في المادة
التي يتمُّ بها كون الذهب والفضة بالصناعة. فتوصلوا به إلى معرفة
امزجة المكونات وحقيقة المعادن والمنضلات الحيوانية من العظام
والريش والبيض والعدرات وغير ذلك^(٢). وكان الناس يصبون
إلى هذه الصناعة طمعاً بما في منوعاتها وأمزجتها من تسليمة المخاطر
مع تنوير العقل حتى إن الملوك أنفسهم كانوا يتمهرون في استخراج
المركبات ومزجها على غير ترفعٍ عنها فهذا خالد بن يزيد بن معاوية
الأموي قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ودون فيها الرسائل المسهبة
حتى أفتى عليها عمره^(٣). وكذلك جعفر الصادق رضي الله عنه
أحد الأئمة الاثني عشر ومن سادات أهل البيت قد ترك في مجاميعه
أكثر من خمسين^(٤) رسالة له في علم الكيمياء والزجر. إلا أن هذه
الرسائل لم تكن حاوية من العلم الآما وقف عليه أصحابها من
طريق التجربة والمران فبقيت الكيمياء مفرقة غير مجموعة حتى قام
جابر بن حيان الطرطوسي وهو تلميذ جعفر الصادق رضي الله عنه

(٢) اغاني ١٦ * ٨٨

(٢) المقدمة

(١) حبي خلفه ٤ * ٤٦٢

(٢) ابن خلكان ١ * ١٤٦

فكتب سفرًا جليلًا في علل المعادن^(١) ودون الكيمياء في سبعين رسالة ربطها باصول العلم ونبذ من مذاهب المتقدمين ما لم يؤيده التحقيق في مجرباته . وقد قسم هذه الصناعة الى قسمين منها القوة النفسية وهي السيمياء ومنها القوة العلمية وهي الكيمياء وادخل العلوم السحرية مع السيمياء وذلك لان إحالة الاجسام النوعية من صورة الى أخرى انما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العلمية وقد وضع القواعد على منهاج لم يشركه فيه احد ولا قدر على مثلها حكاة اليونان أنفسهم ولذلك نُسب اليه علم الكيمياء وصار يُسمى بعلم جابر^(٢) . واما الذين اشتغلوا في الكيمياء غيره فقد قصروا دون بلوغ الغاية التي بلغها منها وربما اكب عليها جماعة بما طمعوا اليه من منال الذهب ولذلك لم يقيدوا مجرباتهم ومصطنعاتهم بالقواعد الثابتة وانما جروا على مذاهب ضعفاء العقول من اليونان مثل طباطوس وغيره وزعموا ان لهم طريقة لاستخدام الجن^(٣) في هذه الصناعة فلم يكن طائل فيما صنعوه ولا فائدة مما نوعوه ووضعوه واما العلوم الالهية وهي السياسات والحرب والفلاحة وعلم الاخلاق وسياسة الاخلاق وغير ذلك^(٤) فلم يكن للعرب نابغة فيما نقلوه عن كتب اليونان وانما ينفرد حسن نظرهم في علم الكلام وهو

(١) حجي خله ٤ * ٢٤٦ (٢) المقدمة ٤٦٢ (٣) حجي خله ٢ * ٥٨٤

(٤) حجي خله كتاب ٤

فن العقائد الذي وضعوه تحفظاً^(١) من العلوم الحكيمية اذ كانت تخالف الشرع الشريف^(٢) فتوسّعوا فيه الى ادب كثير الفروع . وقد رأيتُ لم كتباً في السياسة^(٣) المدنية يذكرون بها تدبير المنزل بمقتضى الحكمة^(٤) ليجلوا العامة على منهاج يكون فيه حسن النوع وبقاؤه فذلك احسن ما لهم من التأليف واما فيما سواها من السياسات فقد كانت بضاعتهم منها نزره كما سبقت الاشارة اليه قبيل هذا



أَدَبُ السِّيَرِ وَالْحِكَايَاتِ

اما تسطير الحكاية والتقصص فانه فن بل علم بل ادب هوت اليه أفئدة العرب . واول من سبق الى تدوينه عبدالله بن المقفع وهو الكاتب المشهور بالبلاغة^(٥) والذي كان قائماً بديوان الانشاء في خلافة أبي جعفر^(٦) له كلام على الملوك يشهد بانة كان عارفاً بالسياسة^(٧) وآيات في البلاغة تشير الى ان الحكمة قد نطقت من نواحيه الا ان اهل زمانه قد توافقتوا وهم دونه في العلم على ان يقولوا

(١) ابن خلكان ١ * ٦٨٧ (٢) حجي خله ٢ * ١٠٠ (٣) المقدمة ٢٢

(٤) ابن خلكان ٢ * ١١٢ و ١١٤ (٥) حجي خله ٢ * ٨٤ (٦) المستطرف

١ * ١٥٩ والمقدمة وابن خلكان (٧) المحاضرة ٢ * ١٢٢ (٨) الفجري ٢١

ان كلامه كان اكثر من علمه^(١) لانهم ارادوا ان لا يرفعوا عقله الى مساماة البلغاء الذين اوتوا الحكمة وفصل الخطاب. وقد كان تدوينه له في تعريب^(٢) كتاب هندي يقال له كليله ودمنة^(٣) وهو يتضمن حكايات وضعت عن لسان البهائم وأشير بها الى سلاقتها من الحلم والنخب والقوة والمجنون والتيقظ والذهول والعقل والحق والحلم والمكر الى آخر السلائق لتثقيف العقول وترويض الاخلاق بهذه الطريقة من الفكاهة لانه يستخرج من الاقوال الهزلية ضرورياً من الحكمة البليغة. وهو يشتمل على غرضين سياسي وأدبي فاما السياسي فانه داع الى العدل وزاجر عن البغي وفيه بيان سلوك الملوك في آدابهم وتديبرهم لامور ممالكهم وما ينبغي عليهم من العدل عن اللهو والغفول الى التيقظ والسهر واما الادبي ففي بيان المعاش في ظروفها والوانها وسائر احوالها والاقتصاد في تدبير المنزل والمعاملات بين الناس وما ينبغي عليهم من سلوك الامور بعين العقل والبصيرة. ولذلك يعد من كتب الحكمة ونرى الفضلاء من الملوك قد اقبلوا عليه وطمحوا ببصرهم اليه حتى ان كسرى انوشروان انفذ طيبيه برزويه الى بلاد الهند لاتساخته له فترجمه الى الفارسية ولم يزل الملوك يعظمونه بعده الى هذا اليوم وقد وضع ابن المقفع في اول ترجمته فصلاً سماه باب عرض

(١) ابن خالكان واغاني ١٨ * ٧٦ (٢) المسعودي ١ * ٢٨ (٣) السبوطي

الكتاب^(١) وأودعه من صنوف البلاغة والحكمة ما ضارع به سائر
ابواب الكتاب وذكر ان اغراض واضعه يبدا بالفيلسوف تنقسم
الى أربعة احدها ما قصد اليه من وضعه على السنة البهائم ليسارع
اهل الهزل الى قراءته والثاني اظهار خيالات الحيوان بصنوف
الاصباغ والالوان ليكون أنسا لقلوب الملوك والثالث ان يشتد
الحرص عليه للنزهة في صورهِ فينخذهُ الملوك والسوقة ويكثر بذلك
اتساخهُ ولا يبطل والغرض الرابع وهو الأقصى مخصوص
بالفيلسوف خاصة

ولقد قرأت هذه الترجمة اكثر من مرة بل اقول اكثر من مئة
مرة وانا شغفُ بها لمكانها من البلاغة^(٢) في أقرب الكلام الى الافهام
وعهدي بجميع الكتب الاعجمية اذا عرّبت عرّيت الأهدا الكتاب
فاني رأيتُ في العربية أفصح منه في الفارسية. وقد كان صبية البرامكة
يحاولون حفظهُ على اذنانهم ففطن لذلك ابان بن عبد الحميد
الكاتب ونظمهُ لهم بالشعر حتى يسهل استظهارهُ عليهم ويقول في
مطلع الكتاب^(٣)

هذا كتاب أدبٍ ومخنه وهو الذي يدعى كليله دمنه
فيه اخيالات وفيه رشد وهو كتابٌ وضعتهُ الهندُ
الى آخر الابيات فاعطاهُ بجبي عشرة آلاف دينار واعطاهُ الفضل

خمسة آلاف جائزة على هذا الاستخراج لانه كان بموضع جليل من
 البلاغة التي توارثها عن ابيه (فانما كان عبد الحميد من فحول
 الكتاب وفخر المسلمين فيما اتاه الله من البلاغة^(١) التي جمعت سحر
 البيان واخذت بمجامع الجنان يقال انه لما ظهرت دعوة اهل البيت
 وكان عبد الحميد كاتباً في دولة الامويين قال لمروان سأصدر
 عنك كتاباً الى أبي مسلم فان قرأه حصل عندنا وجه من الآمال
 وان لم يقرأه ذهبت الدولة منكم . فلما وصل الكتاب الى ابي مسلم
 وكان عالماً بمكان عبد الحميد من البلاغة قال ابقوا الكتاب على
 طيبه فانما فيه سحرٌ غالب) . على اني لو سئلت التفضيل بين هذين
 الاستخراجين لاقول ان ترجمة ابن المقفع حقيقة بان تكتب بماء
 الذهب ونحف بها خزائن الملوك

ولما رأى الادباء اقبال الناس على هذا الكتاب تسارعوا
 الى تعريب غيره من كتب السير والخرافة فترجموا عن الهندية
 كتاب وزره وشماس^(٢) وفيه اخبار ملوك الهند وبناتهم وما يتخللها
 من الامثال التي توسع العقول ترويضاً وترجموا عن الفارسية
 كتاب هزار افسان وسموه الف ليلة وليلة ومعنى هزار افسان الف
 خرافة وكان السبب في وضعه كما هو معروف ان ملكاً من ملوك
 الفرس كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة فتلها من غد اليوم غيره

عليها من الرجال . فتزوج بجارية من بنات الملوك ممن لها عقلٌ
ودراية يقال لها شهرزاد وفي بعض النسخ شيرزاد^(١) . فلما اتصلت
به ابتدأت تخرفه وتوصل الحديث عند انقضاء الليل بما يجعل الملك
على استبائها ومسألتها في الليلة التالية عن تمام الحديث الى ان أتى
عليها الف ليلة وليلة وهو مع ذلك يباشرها الى ان رزقها الله منه
ولداً طرحه اليه وأوقفته على حيلتها عليه وكان للملك قهرمانه
يقال لها رسازاد او يقال دينارزاد فكانت موافقة لها على ذلك^(٢) .
وفي هذا الكتاب دون المائتي سمر^(٣) لان السمر كان يحدث بها في
عدة ليالٍ^(٤) وهي من اطرف الحكايات التي وضعها الفرس في
غالب الدهر

ولما راج سوق هذا الكتاب تداوله النساخ والكتّاب وازدادوا
اليه حكايات كثيرة وضعوها على سبيل الفكاهة بما نعهد فيهم من
طول الباع في وضع الحكايات ولا سيما ما يتضمّن اخبار الجان
ووصف مساكنهم تحت الجور وتزويجهم بناتهم من ملوك الانس
وقصص العفاريت والهواتف وغير ذلك الى ان صار جملة ما في
الكتاب حكايات عربية لا يمازجها من كلام الفرس الا القليل .
وهي وان كانت بعيدة عن الصدق ففضل العرب في اقتصاصها

(١) المسعودي ١ * ٢٩٦ (٢) الف ليلة وليلة (٣) وهي اليوم اكثر

من ذلك (٤) الفهرست

انهم يمتلكون فؤاد السامع بركة مأخذهم في تجميلها وتزويقها كالذي
 زعموا ان "صيادا التي شبكته في البحر نهاره ولم يتناول سمكة فلما
 اقبل لينصرف وقد اعياه الملل وضقت به الحال جر الشبكة فاذا
 هي عليه ثقيلة قطع ان تكون مشتملة على حوت يستعيب بثمنه عن
 نصبه في ذلك اليوم فلما جذبها الى الشاطئ وجد فيها قمقاما من
 نحاس فض خامة فصعد منه دخان خيم على السماء فنظر في
 الدخان فاذا به يجمع ويتكون الى ان وضع منه جان من صفته كذا
 وكذا من الرواية. فلما تدانبا جرى بينهما حديث يقبض النفس هيبة
 وفرقا بحيث لا ينثبه السامع الى ان هناك خرافة فاذا انتهت به الحكاية
 الى ما اصاب الصياد من المال والجوهر بعدما حل به من الهول
 والاعياء انبسط منه الخاطر المنقبض والتمس مثالا لهذا المسكين
 فوجده كثيرا في الناس فرجع الى الحكاية فاذا فيها سر يرومه
 الكاتب من وراء الفكاهة

وإجماع الرأي على ان ليس في حكايات الناس وقصصهم
 واحاديثهم ما هو اظرف من هذه الحكايات فان فيها من الوصف
 البارع والتمثيل الساطع ما ينطق بفضل العرب فيما تطرقوا اليه
 من وصف معاش الناس واخلاقهم وما يتقالبون عليه من الاحوال
 التي توسعوا بوصفها الى ادب جزيل الفائدة جميل العائدة . فاما

الحكايات التي ذكرها وقوعها في الاسلام فليس اقرب منها الى
 الماجريّات التي تحدث في بغداد اكثر الايام اللهم الا ما ارادوا ان
 يمزجوا به اخبار الخلفاء لنكتة يتشوقون الى الوقوف عليها من اتفاقات
 الملوك مثل حكاية الخليفة الثاني^(١) وحكاية الخليفة والصيد^(٢) الى
 حكايات كثيرة بظرفون بها اخبار الرشيد وجعفر الا فيما يذكر
 عن تطوافها ومسرور ليلاً في الاسواق متنكرين^(٣) عن ان يعرفهم
 احد فان ذلك ليس بالموضوع وقد ذكرت مثل هذا^(٤) في بعض
 فصول الكتاب ولكنني جرّدتُه عن المبالغة التي يجمل الرواة بها
 احاديثهم كوقوف الرشيد في معرض الخطر^(٥) او وقوعه هو وجعفر
 تحت سيف الرجل الذي كاد ان يقتلها لولا انها تدارك امره بحيلة
 وجدا بها السلامة والنجاة

واما الحكايات التي زعموا انها وقعت في قديم الزمان وسالف
 العصر والوان فهي من الغرائب التي لا دلالة لها على الصدق وإنما
 اقبل خلق من العوام على تصديقها لانتطاع اخبار الامم عنهم بحيث
 كان يتعذر عليهم معرفة غثها من سمينها ولان ناقل الرواية كان
 يحدّثهم بان كذا وكذا من الامر الغريب جرى في كذا من البلدان

(١) الف ليلة وليلة والانسليدي ١٢٦ (٢) الف ليلة وليلة
 ليلة ٥١ * ١ و ٢٨ * ١ والانسليدي ١٢٦ (٣) اغاني ٦ * ١٢٧ (٤) الف
 ليلة وليلة ٢١ * ١

المترامية الشقة المتفاوتة السبيل . فلو حدثهم ان في الشام مدينةً
بُنيت من النحاس ^(١) أو في العراق بلدًا صار غديرًا ثم انقلب ماؤه
الى حجارة واسماكه الى أناس ^(٢) لما صدقوا كلامه لانهم يطرقون هذه
البلدان كل يوم وعهدهم بها على غير انقطاع وإنما نقل اليهم ان ذلك
كله في جزائر الوقواق وما وراءها من بلدان العجائب فوسعوا
مجالاً في صدورهم لتصدق كلامه بما كانوا يتشوقون الى الوقوف
عليه من نعم الناس وهم بمكانهم من عيش البدواة والشقاء
ومن أظرف ما ورد في حكاياتهم قصص العشق والغرام فيما
أعربوا به عن معاني النساء بين كاعب حسناء وغانية هيفاء وشاعرة
فصحاء وعجوز ذات دهاء . وما توسعوا في كلامهم عن العشاق ووصف
هنائهم في الطلاق وتوجعهم ايام الفراق الى وضع الحكايات التي
ترتاح اليها القلوب بما تصف من النعيم الذي يبعد ان يتمتع به
الانس وإنما هو صورة تمثل في الضمير على غير حقيقة لها الا المجاز
كالذي قيل عن فتى من اولاد الملوك انه وقع الى جزيرة كل من فيها
نساء وتجارها نساء وجندها نساء وكلهن آية من آيات الحسن
والجمال وانه قضى بينهن اياماً من النعيم اقل ما اصاب فيها من
اللذة انه كان اذا طرح الشبكة في البحر على سبيل النزهة خرجت
له من الاصداف صبية من بنات الجان كأنها حورية من حور

الجنان . . . الى غير ذلك من الوصف الذي يحرك القلب ويملك
الجنان

وقد حلالي من حكاياتهم ايضا قصة السندباد البحري^(١) وهي تشتمل
على الحوادث التي وقعت له في سفرات سبع أتى عليها جميعا في طاب
المال . وفي كل سفرة عجيبة بل عجائب لم يسمع احد بمثل ما فيها من
المتالف التي وجد الكاتب مشقة جزيلة لاستنباط الحكيلة فيها على
وجوه تدفع الناس الى ركوب الاخطار لنوال العلى والفخار بما تمتلك
به أنفسهم من ذكر جبال الماس وعيون العنبر وعجائب البلدان
التي وقع اليها السندباد . وعلى بعض السنة الادباء ان هذه القصة
ليست من وضع العرب وانما نقلوها عن الهند واليونان واطافوا
اليها ما يحسن ان يكون في كلامهم حتى نفوا العجيبة عنها فهذا كلام
فيه بعد عندي لاني سمعت الرواة يحدثون بمثل ذلك . وفي مطلع
الحكايات من ان الحمال اشد به الحر فخط حبلته على باب التاجر
في ظل يتردد اليه النسيم الرطيب وتفوح منه ریح العطر والطيب
وانه كان يرى عزة ذلك التاجر في كثرة خوله وغلمانه ويسمع تغريد
القماري والشحارير في جنانه وينشق من طعامه ریحاً احزنت منه
النفس لا تقطاع الامل منه وهو بمكانه من التعب وشقاء الحال
ما يستوقف الطرف ويشهد لبراعة الوصف فيما قصد اليه من بيان

الفرق بين عيش الرخاء والنعمى وعيش الشظف والبلوى
وليس الظن في هذه الحكايات السندبادية إلا أن واضعها
رجلٌ قد عانى الاسفار وثقل على متن البحار حتى ذكر ما عاينه من
عجائب الامصار . وهذا شاهدٌ على صدق ما ذكرناه من ثقل
الكتاب في ايدي الادباء الذين وسع عليهم جميعاً عن ان يضمه
صدرٌ واحدٌ من الرجال والأفان في وصف المحروب من الحبل
ما لا يستنبطه إلا من طال وقوفة في ساحات القتال وكذلك في
ذكر نوادر الزواج من المعميات ما لا يستنبط الفتوى له إلا من انفرد
نظره في علوم الاحكام الشرعية^(١) وحتى لو يكن ما يقال في ذلك
لوجدنا في اختلاف الاقلام دليلاً آخر على اشتراك الادباء في تأليفه
لانا نجد منهم من يسترسل في المغالاة الى ان يذكر عن فارس من
الفرسان انه قتل في معركة واحدة كذا وكذا من الاعداء وهم الجمع
الذين لا يتولى أحد احصاءهم في يومٍ واحدٍ ثم نجد من رسم قواعد
الرواية على منهاج لم يتعدده الى ذكر المبالغة التي بعدت دلالتها
على الصدق وانما ذكر الاخبار للنظر في عادات الناس واخلاقهم
وكيف يتقلبون بالزمان أو يتقلب الزمان بهم وذلك مثل ما قصد
الادباء في كلامهم عن العربان ان يذكر والحامد التي تفاخروا فيها على
جميع الامم من الكرم والمروءة والعفاف والمساوي التي تفانوا بها من

(١) حلبة الكهنت والاتيدي ١٠٦ و ١٤١ والف ليلة وليلة

طلب الثأر وإدراك الغنائم أو مثل ما قصدوا في حوادث هذه
الأيام ان يذكروا أخبار النساء وما يكون من تحلن في تسيير
الرسائل الى الشبان^(١) وادخالهم عليهم في الصناديق^(٢) ورفعهم اليهن
من تحت الليل^(٣) في الزنايل المعلقة الى غير ذلك من وصف
العادات المترفة التي وقعت في بغداد لهذا العهد. وهذا هو الفرع
الخاص الذي أرتاح اليه من حكايات الف ليلة وليلة لأنه ينبي
عن أخبار العرب الخاصة وفيه حسن وبراعة وصف ليس مثلها
في أدب الحكايات

تدوين الأخبار وأيام الناس

انما وضع العرب هذه الحكايات بعد ان توغلوا بالاسفار في
أطراف البلدان حتى انهم تجاوزوا الصين^(٤) الى ما وراء فرغانة
فاستفادوا بذلك من غير الاموال باحوال شاهدوها وعادات
جروا على سننها ومبان تقلدوا منها الزينة والاحكام وشرائع تفقهوا
في استخراجها للأحكام. وكانت عادة السافرة بعد عودتهم الى الديار
ان يحدثوا الحي بغريب ما نظروا وعجيب ما سمعوه^(٥) فمن هذه

(١) اغاني ٦ * ١٦. (٢) اغاني ٦ * ٤٠ والشريشي ٢ * ٢٤٦

(٣) العقد والف ليلة وليلة واغاني ٥ * ٤٢ وانليدي ٢٠٤ والمقدمة ١٨

(٤) انليدي ٧٧ (٥) الشريشي

الاحاديث المنقولة ما اتصل بي من ان في بعض الأمم من هم عراض
الوجوه وسود الجلود أطول ما فيهم اربعة اشبار^(١) وفي جلودهم نقط
حمر وصفر وبيض وان فيهم من له أجنحة يطير بها او رأس كلب
على بدن آدمي أو وجه آدمي على بدن ثور أو أسد^(٢). وسمعت من
يحدث ان من البلغار من طوله اكثر من ثلاثين ذراعاً يأخذ الفرس
تحت ابطه كما نأخذ الولد الصغير ويكسر بيده ساقه كما تقطع باقة
البقل^(٣) الى غير ذلك. وليس الظن في هذه الاساطير التي يتناقها
الاخباريون من اهل الاسفار الا انهم رأوا رسومها على الآثار التي
تخلفت عن الهنود والفرس السالفة وغيرهم من اهل العصور الخالية
فحدثوا بها على طريق الرجم بالغيب كأن من امثال هذه الخلائق
المشوهة ما كان في قديم الزمان او لا يزال موجوداً فيها وراء الأقاليم
هذه الايام

ولما دارت هذه الاساطير بين الناس اشفق اهل الادب على
اخبار العرب من دخول الفساد عليها فتسارعوا الى تقييد التاريخ
في الاوراق حتى لا يتشوه من تمادي الرواية على السنة العوام. وقد
كان شعر العربان^(٤) محفوظاً^(٥) في اهل العلم فنقلوه الى الكتب
للدلالة على ما يرومون اثباته من الاخبار وعينوا وقوع الحوادث

(١) ابن خردادبة ٦٢ (٢) الفرمانى ٥ # ٥٤ (٣) المستطرف ٢ * ١٦٢

(٤) التناوي ١١٩ (٥) ابن الاثير وابن خلدون

السالفة مثل ما كان يعينه العربان في الجاهلية بقولهم هذا جرى في
 ايام كسرى وهذا في حرب البسوس^(١). واما الحوادث التي وقعت
 في الاسلام فقد ارجوها بالسنين والشهور والايام وكانت اصح في
 النقل والرواية من ايام العرب لان شأن الرواة عليها من الخلاف
 والاختلاف والمخالفة ما هو اشهر من ان يذكر (والحوادث اذ ذاك
 محفوظة بالانواء وطلوع النجم) ولم يسلم منها عن الفساد الا علم
 الأنساب الذي حفظته العصبية في العربان^(٢) حتى اتصلت انساب
 اشرافهم الى ابرهيم الخليل مثل انساب قريش وثقيف وغيرهم من
 البيوتات^(٣)

واول من سبق الى تدوين التاريخ محمد بن اسحق^(٤) في كتابه عن
 المغازي والسير^(٥) واخبار المبتدأ. ولم يكن التاريخ قبله مجموعاً ولا
 معروفاً ولا مصنفاً^(٦) ثم نتابع اهل العلم على تدوينه من بعد ووضع
 محمد المعروف بالواقدي كتاباً في فتوح الشام ضمنه كثيراً من سير
 الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم واتى على ذكر الحروب التي سمرت
 نارها في الشام على عمال الروم الا اني رأيت يسوق الحديث جزافاً
 في كلامه عن الجند والقتلى فهو يقول انه سار الى قلعة كذا خمسون
 الفا والى حصن كذا ثمانون الفا والى بلد كذا تسعون الفا مما لم يكن

(١) الاغاني (٢) المقدمة (٣) العند الفريد (٤) حجي خلفه ٢ * ٦٢٤

(٥) المقدمة ١٧. (٦) المسعودي ٢ * ٤٠١

قدر نصفه في المسلمين كما ثبت عند آية النقل وكذلك قوله عن
الروم انه قُتِل منهم كذا وكذا من الآلاف وهو قدرٌ يتجاوز عدد اهل
الشام كلهم من الروم وغيرهم. فانما ينفرد فضل الواقدي في علم الفقه
والحديث وليس له باع فيما سواه من العلم
وقد كتب في التاريخ بعدة عبد الله الاصمعي وحماد الراوية وهما
يعرفان اخبار العرب ويمليانها على ظهر قلبها. الا ان الخلل في رواية
حماد انه يقول الشعر على لسان المتقدمين^(١) فهو اقرب الى المؤاخذة
عليه في فساد التاريخ من الثناء عليه فيما يصنع من الشعر الذي لا
ينحط عن كلام الجاهليين. يقال انه روى الفين وتسعمائة قصيدة لكل
حرفٍ من الحروف الابجدية مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات^(٢).
واما الاصمعي فليس من الامور التي نتقدها عليها الا انه كثير
الرواية وواسعها حتى يكون فيها بعض المزية عند كثير من اهل
العلم ليس لغرابتها او لبعدها عن الصدق بل لكثرتها فيما نقل في
مدوناته. وهذا لا ينقص فضله في العلم وانما هو واقع عليه من باب
تعظيم الشيء الذي يتفاوت قدره عن ان يكون مثله في صدور
الرجال

ثم اني وجدت حمادا و الاصمعي جميعا قد وقعوا في الخطا والتصور
الذي وقع فيها اهل الرواية قبلها ومن بعد. فاما الخطا فهو اعراضهم

جميعاً عن ذكر محاسن الاعاجم من النصارى وغيرهم حتى لا يشغلوا
 كتبهم في ذكر مذاهب كفرهم كما يزعمون . واما التصور فانهم
 يذكرون الحوادث من غير ان يستوعبوا مبدأها ومعادها ولا ان
 ينظروا في عللها واسبابها ولا ان ينتقدوا على الملوك معايبهم فيما سقطت
 به دولهم بعد ان تسلموها وهي بمكان عظيم من النفاذ والسلطان
 هذا ما اعلمته في هذه الرسالة عن علوم العرب وآدابهم بما يشهد
 لهم بالفضل الجزيل فيما توسعوا الى النظر فيه من جميع انواع العلوم
 والفنون والصناعات ^(١) اذ كان لهم من النقاشين والمصورين والرسام
 في المشرق الاقصى ما يدل على ان لهم من الصناعة ايضاً مكاناً غير
 مدفوع فلقد رأيت من علمهم صوراً على الورق الصقيل تظهر خارجه
 وليست بخارجه وداخلة وليست بداخلة ^(٢) . ورأيت من رسومهم
 على الآنية والعدان والقباب ما يبهر البشري في جمال الاشراق وتمام
 الحسن ^(٣) . وهذا كله قد توصلوا اليه في عصر الرشيد الذي سمي
 بالعروس ^(٤) لخصبه ونضارته وكثرة خيره وانتشار علمه فان مما
 ذكرت في هذه الرسالة عن آداب العرب ^(٥) لشاهداً ناظراً ببلوغ
 الغاية من الحضارة وال عمران اذ كان العالم مرآة يرسم فيها حال
 الأمم في كل عصر ومكان

(١) المقدمة (٢) كتيبة ودمنة (٣) المري (٤) المسعودي ٢ * ٤٠١

والشرفاوي ١٢٢ (٥) المسعودي ٢ * ٤٠١

وقد وقع تدوين هذا الكتاب في أوّل شهر السنة السادسة والثمانين بعد المائة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم والله أسأل ان يجعل حالنا بالستر الجميل وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم لا ربّ سواه



الرسالة الثامنة

ذكر الرسالة الى قيصر الروم

هذا هو كتابي التاسع أفردته لذكر الرسالة الى انبرذور الفرنجة وانا اكتبه اليوم على متن السفينة في البحر الفاصل بين الروم وأفريقية . كان الرشيد لأول وصول رسول الانبرذور الى الحضرة قد استدعاني اليه فأصتبه في مجلسه متنقلاً كأنه يريد امرأ عظيمًا^(١) فاستدنانني اليه^(٢) وقال أنا اتانا من ملك الفرنجة رسول يقرئنا من السلام فرأينا ان نوجهك اليه بالطاف تروم اليه ان يتقبلها في سبيل المودة لغاية نرغب فيها اليه من التعصب على بني أمية الذين يمزقون الاندلس فيما هو واقع بينهم من الحروب^(٣) . فلذا وافقنا على ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من انفاذك اليه

(١) المسعودي ٢ * ٢١٥ (٢) اغاني ٥ * ٤٨ (٣) المفري وابن الاثير

واجهد بان تسترق لبه بخلاية لسانك وتقدم اليه بالوعد الجميل في
 اننا نوقيه حقه يوم الفتح ونصرف اليه نفقة الحرب من بيت مالنا
 ونجري الارزاق الواسعة على جنده ونقاسمه ما تحوي خزائن الظالمين
 من المال والجوهر واستصحب معك هذا اليهودي الذي جاء به
 رسوله فهو يترجم عنك اليه وخذه بالتعظيم الكثير لانه شيخ متوف
 جليل القدر فيما تمل الرسول الينا. وقد تقدمنا الى مسرور ان يصحبك
 بالخدام في الدواب والخيام الى ساحل الشام فاذا عدت الينا وانت
 آخذ على مصر وصل الليث ان يوجه معك طائفة من الحرس الى
 عيذاب فتوافينا الى البلد الحرام حيث توافقنا حاجين والله نسأل ان
 يحوطك بحراسته ويأخذ بعونك فيما تقدمنا به اليك من امر الرسالة
 فلما اذني بالانصراف اتيت البرامكة لاستطلاعهم رأيهم في المصلحة
 فلقيت جعفر منزها في البستان وبين يديه جماعة من الندمان فلما
 اقبلت عليه قال ما انت وخوض الجور قل غير ما مور فقلت ومن
 ابن ذلك للسلطان قال انما انا الذي اشرت على الرشيد بان
 يوجهك في هذه الرسالة الى سلطان المغرب ثم اوما الى الجلاس
 فتخوا عن موضعنا فاستدنا في البو وقال بم اوصاك فقلت بكذا وكذا
 من الامر فوجم ساعة ثم قال سبحان الله الام يتادي به تغير التمال
 لقد اشرت عليه ان يقلع عن مناخزة الامويين اذ لنا في المشرق
 ما يشغلنا عن قتالهم وفي ظهور الخوارج الذين يقارعونه على الخلافة

في كل حين ما ان ضعفنا عنهم مرة واحدة لفسدت دولته^(١) فساداً لا تقوم لها من بعده قائمة. ولو ان الرشيد عن موعظتي غني بما عنده من العقل والعلم الا ان الملوك قد تطع نفوسهم الى ما وراء العسر من طمع الاستيلاء وقد قال الله تعالى لا تسألوا عن اشياء ان تبد لكم تسوءكم. فإنا لنا والامويين وقد كفانا الله شرهم فان يكونوا في شقاي^(٢) فلندعهم ينادون بالويل والحرب الى ما وراء البحور وليس لنا ان نلقي برجالنا في المواضع المحفة ونرد بهم موارد الفناء فاني لأرى الجند يتفاني قبل الاشراف على تلك المنافع كما اني احسب الانبرذور على ما يؤثر عنه من ايثار الرفق ولزوم التؤدة لا يوافق صاحبنا على ما يروم من الايقاع بملوك أمية وهم مطمئنون في ديارهم ومعصمون في قلاعهم وقد عمروا امصارهم ودونوا دواوينهم^(٣) وشكوا حصونهم بالرجال واتخذوا الاهبة لهم والعدة والكراع^(٤) ودون الاستيلاء على ديارهم شيب الغراب. انما كان أولى بالرشيد ان يرى دول الاندلس درعاً منيعاً للاسلام لانها لو دخلت في حوزته لم يأمن ان ارسل الجند ان يخونه القواد او مات الانبرذور عن خلفه لا يرعى العهد ان يوجه من يقبض على عمالها من لدنه. وقد اتاني ان اعاوده في هذا الشأن فان رغب عما فرط منه والأفلي يفعل ما كان فاعلاً لبلوغ امنيته

(١) الفخري ٢٥ (٢) ابن الاثير ٦ (٣) العقد ٢ * ٢٥٧ (٤) الفخري

فلما كان الغد بكر جعفر الى الرشيد واخلى معه ساعةً جيدةً
يقلب عليه الآراء ولكن من غير ان يجيل عنه مرامه فاستدعاني اليه
وسلني كتابة الى الانبرذور وأمرني بان اتجسس اخبار العمال وانفق
أمورهم حيثُ مررتُ وأوصاني برجلٍ من الامويين في دمشق كثير
المال والجاه ان اتحقق له عن حاله^(١) حتى اذا كان يخشى من استمالة
اهل الشام الى الفتنة رفعتُ ذلك اليه ليتدبر امره. ثم قال واذا
مثلت بين يديه (بريد الانبرذور) فقل له عن أمية انهم كفروا بالنعمة
وسعوا في الارض فساداً وأنا أحقُّ بالملك منهم لمكاننا من قرابة
النبي صلى الله عليه وسلم. ثم اذنتي بالانصراف وكان يظهر لي من
الميل اليّ والتعطف عليّ بحيث انه كان يدعوني بلفظة الحبيب^(٢)
كلماً بدأ بالكلام بعد انقطاعه

وكان من الطاف الخليفة الى الانبرذور فيل عظيم ابيض جاء
المهدي هدية^(٣) من بعض ملوك الهند واقمشة فاخرة من الوشي
و بسطاديباج من طبرستان واعطرة من اليمن والحجاز ومسك
وصندل واعواد ندى من الهند وسرادق عظيم مجلل بالحراير والبكل
ومزولة كبيرة تدل على الاوقات وهي من عمل صنّاع بغداد وشطرنج
يديع الحسن قد اتخذت ادواته من العاج المنقوش وهي من عمل

(١) الانليدي والاشبهي ٨٤ * ١ (٢) اغاني ٦ * ٥٧ (٣) اغاني

ممثل من النصارى يُعرَف بيوسف الباهلي وقد نقش اسمه على الاداة التي تمثل شخص الملك وهي من الحسن بحيث يكبر الناظر صناعتها قد مثلت فيلًا يلف خرطومهُ على فارسٍ مقاتل . وعلى رأسه جندي يأخذ بزمامه ومن حوله ثمانية فرسان يراد بهم الرمزالى الجنود الثانية الذين يحيطون الشاه في الشطرنج . وعلى ظهره هودجٌ مزخرفٌ بأنواع الرسوم قد استوى فيه ملك على رأسه تاجٌ مثل تيجان ملوك حير^(١) . فظهر من حذافة الرسام في هذا التصوير ما يستحق عليه الثناء الجميل لانه مثل اصحاب القبلة كما هم وجعل في آذانهم اقرطاً وعلى زنودهم اساور وعلى ابدانهم القراطق وهي لباس الهنود^(٢) واتخذ عدد الخيل مزخرفة وصنع لها السروج والازمة والركائب وقلد الفرسان انواعاً من السلاح الا المقاتل الذي اخذه الفيل بخرطوميه فانه رام سلاحه الى الارض ومناضل عن نفسه احنياً لا في الخلاص وعليه سمة التوجع والانكماش مما يشهد للممثل بانه من مهرة الصناع^(٣)

طريق الرسالة الى دمشق

ولقد رسم عليّ طريق الوجهة بان اسير الى الكوفة ثم الى دمشق ثم الى بيروت على ساحل البحر . وكان مسيرنا في غاية البطء رفقا

(١) المسعودي ١ * ٢١٥ (٢) المستطرف ٢ * ٢٦ (٣) هذا الاثر

لم يزل محفوظاً في دار الافرنج لهذا الزمان

بالفيل والدواب المحملة فاجتزنا بعد الانفصال عن بغداد بمدينة النيل التي مصرها الحجاج^(١) وهي في منتصف الطريق بين بغداد الى الكوفة^(٢) . ثم عطفنا الى الانبار^(٣) ثم الى مدينة الكوفة . فنزلت بها في رحبة خنيس الانصاري من اجداد^(٤) اسناذي رحمة الله وهي في مقابلة الباب الكبير المعروف بباب الفيل^(٥) وقد طاب لي المقام بين اهلها بما وجدت فيهم من الحب لاهل البيت ولا سيما في قوم كندة من ملوك النصرانية وهم من غلاة الشيعة^(٦) واكثرهم عالم وحكيم واديب كان بيتهم مهبط العلم ومفجر الحكمة . وقد لقيت منهم اسحق الكندي وهو عامل الرشيد على الكوفة قلدة الامارة بايعاز البرامكة الذين قصدوا تعظيم الشيعة^(٧) وائتلاف قلوب الرعية على حين لا تمس المخالفة بمكروه . لكن الائمة ينكرون ذلك عليهم لظنهم ان ذلك عجز في الاسلام فانما نظرهم ضعف بل قصور في نظر اهل السياسة لان استخدام النصارى دال على عظمة الرشيد واستفحال ملكه حتى انه يتمكن من الانتفاع بعلمهم وهو آمن من الفتنة التي يخشى ان تعصف ريجها من ناحيتهم

ولقد وجدت الكوفة من اعظم مدن العراق^(٨) فيها ما لا يشجر

(١) الفناوي ١٢٥ (٢) ياقوت ٤ * ٨٨٢ (٣) المسعودي ٢ * ١٤

(٤) ياقوت ٢ * ٧٦٢ (٥) اغاني ٥ * ١٦٦ (٦) الرطواط ١٢٥

(٧) المحاضرة ٢ * ٨ (٨) ابن جبير ٢١٢

ونخيل^(١) وقدّرتُ ان تكون في الكبر ككصف بغداد فحقّ تسميتها
 بالكوفة لاجتماع الناس فيها من قولهم تكوّف الرمل اذا ركب بعضه
 بعضاً^(٢). وقد زارني فيها كثير من ادبائها المشهود لهم بالفضل الاّ
 انه لم ينهيا لي زيارتهم لفصر الوقت معي الاّ اسحق اميرهم فوجدته
 من العلم والعقل بالموضع الذي اكنفي من الدلالة عليه باني استخسر
 بعده عن الاسلام وهو يسكن داراً مباركة تعزى الى عقيل بن
 ابي طالب^(٣) وهي بازاء المسجد المبارك الذي قال فيه عليّ عليه السلام
 ان ركعتين فيه تعدلان عشراً فيما سواه من المساجد وان البركة منه
 الى اثني عشر ميلاً من حيث اتيتة^(٤). زرته قبيل الانفصال عن
 المدينة ولم أر في عهد المساجد ما هو اطول من عهده^(٥) ثم زرتُ
 مشهد عليّ^(٦) عليه السلام وتبرّكتُ منه وقرأتُ عنده شيئاً من القرآن
 ولما ركبتُ من الكوفة تخلفت عني الدواب الحملة فانقطعتُ
 في الفلاة مع جماعة من الحرّس ورحنا نفوز القفر بعد القفر حتى اذا
 عظمت عليّ مشقة السفر تذكرتُ طيب بغداد^(٧) وضرائفها^(٨) فحننتُ
 الى مجالس البرامكة وكنتُ اقول متملاً بقول الرشيد^(٩)
 على اهل بغداد السلام فاني ازيد بسيري عن ديارهم بعداً

(١) النناوي ١٢٦ (٢) نفوس ٢٠١ (٣) اغاني ٤ * ١٨٢ (٤) ياقوت

٤ * ٢٢٥ (٥) ابن جبير ٢١٢ (٦) نفوس ٢٠١ (٧) اغاني ٥ * ٩٤

و ١٧ * ٧٥ (٨) القزويني (٩) ياقوت ١ * ٦٨٨

ولم أزل مجدداً في السير حتى بلغت دمشق في اثني عشرة ليلة^(١) ولواني
أسريت في الليل لكنت بلغت في ثمانية أيام^(٢) فادونها. فنزلت فيها
عند قاضيها الامام عمر بن ابي بكر بن تميم القرشي العدوي^(٣) في دار بناها
عويمر ابو الدرداء وهو اول من ولي القضاء على دمشق^(٤). وكان
القضاء قبلة يسكنون قصر الحجاج^(٥) المعروف بالقصر الكبير
اما الشام فانها بلاد مباركة كثيرة الخيرات وافرة الغلات
الا انها نكدة الحظ في تغلب الام عليها ولذلك قلت عمارتها لهذه
الغاية بعد تغلب الكلدان عليها والفرس الاولى والفراعة واليونان
والروم والفرس الثانية ولاسيما قبيل ان دجا الاسلام وقد كانت
تمزقها الحروب التي تسعرت نيرانها بين بني عامر المتغرضين للفرس
وآل غسان المتغرضين للروم^(٦) فانتقض عمرانها ودرست سبلها
وتداعت احوالها الى الانحلال بعد ان كانت جامعتها في عظمة لم
يكن مثلها في الدول الا قليلاً وكانت التجارة فيها كاعظم ما يكون من
النفاق والعلوم والصنائع سوق راجحة راجحة فدرست تلك المحاسن
وتقلصت تلك الرسوم حتى ليس من مصانعها اليوم الا ردوم^٧
شاخصة وآنار^٨ ناقصة

وانما دعا اهلها الى الفساد وجلب عليهم المذلة وطمع بأبصار

(١) اغاني ٥ * ١٦٦ (٢) انليدي ٢٦٢ (٣) قضاء الشام

(٤) قضاء الشام (٥) الانليدي والمستطرف ١ * ٢٨٧ (٦) ابن الاثير

الملك الى غزوتهم ما وقع بينهم من الشقاق وكان من ميلهم بالاغراض
مع هوى النفس فكان ظهور المرسلين فيهم باعثاً الى تعصب بعضهم
على بعض وان كانت مواعظهم داعية الى المحبة والاتحاد وهذا هو
الأمر الغريب الذي لم يسمع بمثله في البلدان. فان الشام ما برحت
مهبط الوحي ومسقط النبيين ومهجر الاولياء^(١) الطاهرين الذين
كانوا يتخذون الانصار لنفوسهم ويرومون ادخال الناس في شيعهم
ليجمعوا ما كان شتيتاً من شملهم ومتفرقاً من كلمتهم واغراضهم الا انهم لم
يلغوا من ذلك الغاية التي كانوا يرومونها في الدين ولا السياسة...
فانما يجب لاهل الشام ان يكون فيهم جامعة الالفة ولا يتعصبوا
بأميالهم الى غير ما يقصدون منه الوحدة. فالتحصيل عظمة الامم الا
بالاجتماع والعصبة سنة الله في خلقه فانظر الى الدول الرومية كيف
عبث بها العدو حين وقع فيها الانقسام والتجزؤ وانظر الى الدولة
الاموية لم يقارعها ابو مسلم على الخليفة الا عند ما تخالف عنها
صبيتها فيما يرومون به الى طمع الترف والنعيم وانظر الى اهل البيت
السلالة الشريفة والذرية الصالحة كيف وقعت بهم الشدة وهم
متفرقون على اغراض لا تجمع بينهم الى الوحدة فلما اجتمعوا في المغرب
الى ادريس قام لهم ملك يرتجف له الشرق فان تنظر الى ذلك كله
والى كثير مما وقع وما هو واقع في الممالك تجد ان الامم لا تقوم دولهم

الأبراطة الاجتماع والعصبه فان يجلوا منها العقدة او يجاولوا
الاتقسام ينذر امرهم بالانحلال وتنداع أحوالم الى التلاشي
والاضمحلال

ذكر دمشق

عودٌ ولما وفدت على دمشق وسرحت الطرف ناحية الغوطة
وسع مني الصدر الى ان حسبت نفسي في جنة من جنان السماء
ولا غرو فان مياها واشجارها ورياضها لافضل ما في الدنيا من
المنتزهات^(١) يسير الرجل في رياضها يومه ولا تصيبه اشعة الشمس
لالتفاف شجرها بعضه على بعض . وهي في اسي مقام بين مدن
الاسلام بعد دار السلام قد اشتبكت فيها العمارة^(٢) وتزهت عن المثل
في النضارة . لكنها ليست بمفرطة الكبر وربما كانت الى الطول اميل
منها الى العرض^(٣) وهي لا تخلو من السقايات^(٤) في شي من اسواقها ولا
بيوتها ومبانيها طباق فوق طباق^(٥) وتحموي من الخلق على العدد
الذي لا يعلمه الا الله . والناس على مذاهب في من بناها من الاولين
فمنهم من يقول ان عاداً اول من نزلها من الناس وانها هي ارم ذات

(١) ياقوت ٢ * ٥٨٩ ونوم ٢٥٢ وابن خردادبة ١٢٤ (٢) النزويجي

١٢٦ (٣) ابن جبير ٢٨٥ (٤) المقرئ ١ * ٢١ وياقوت ٢ * ٥٩٠

(٥) ابن جبير ٢٨٥

العاد^(١) ومنهم من يذهب الى ان بانيتها الغادر غلام نمرود^(٢)
او دمشق بن كنعان ومنهم من يزعم ان الذي اخطها هو دمشق
مولى الاسكندر الرومي^(٣) ومنهم من يرتأي غير ذلك . الا انه ليس
على ما يقولون حجة ترجع بهم الى صدق الرواية ولا سببا عند الذين
يعزرون بناءها الى الروم فان الرد عليهم واضح لا يحتمل التأويل بعد
ان أتى موسى عليه السلام على ذكر دمشق اكثر من مرة في كتاب
التوراة . ومها يكن من اخلاف المؤرخين في تحقيق بناءها فان هي
الأمدينة اولية^(٤) صحبت الملوك من الكنعانيين والروم وآل جفنة
وبني أمية دهرًا طويلًا واصابها من العزة والعمارة ما قل ان يصيد
غيرها من المدن القواعد ولو كان البناء الذي شاده فيها الملوك
من الحجر الصلد ثم بقي ماثلاً الى هذه الغاية لكانت دمشق زينة الدنيا
ولكنهم رفعوه بالطين واللبن فأتى عليه الانحلال وأدثت الايام
آثاره^(٥) فلم يبق منه الا قلعة من الحجر تعزى الى الروم^(٦) وقصر
يقال له قصر جيرون وعليه ابواب عجيبة من النحاس^(٧) وبنائه
يقال له البريض فيه كثير من العمدان وتزعم العامة انه كان يجري
منه الشراب في قديم الزمان^(٨) وقصران من الحجر لعمر بن عبد

(١) ابن خردادبة ٧١ والفرماني ٥ * ١١٨ والشريشي ١ * ٢٠٧ (٢) الكثر

٢٢ (٣) الفرمانى ٥ * ١٩٢ (٤) تقويم ٢٥٢ (٥) ابن خاقان ٥

(٦) تقويم ٢٥٢ وابن جبير ٢٩٠ (٧) المسعودي ١ * ٢٤٢ (٨) المسعودي

العزیز^(١) وللولید بن عبد الملك^(٢) وهما جميع ما تخلف عن ملوك أمية لان ما أفلت من آثارهم من معول الزمان لم ينج من سخط أبي جعفر^(٣) كما مر في موضعه من الكتاب

ولقد وجدت أهل دمشق أحسن الناس خلقاً وخلقا ورأيهم يكرمون الفقراء ويلتمسون منهم ان يتقبلوا صدقتهم حتى يكونوا هم في صورة السائل^(٤) ولو ان فقيراً اعرض عن كسرتهم قالوا ويحنا لو علم ان فينا خيراً لتناول من طعامنا^(٥) وقد بلغني عن فضلائهم انهم يزهدون في هذه الحياة الدنيا ويتقطعون الى الله تعالى متبتلين في جبل لبنان^(٦) غير اني لا اطلق هذه الرواية الا على فئة قليلة من الصالحين لان جمهورهم مائل الى اللهو والطرب^(٧) ولا سيما في يوم السبت فانهم لا يشتغلون فيه الا بالحبون والتهتك لا يبقى فيه للسيد حجره على الملوك ولا الموالد على الولد ولا للرجل على المرأة^(٨) وهذا امر غريب لم أراه في غير دمشق^(٩) ولا اعلم ان كان النصارى يشاركونهم في ذلك لاني رأيته منقطعين عن مخالطة المسلمين في المنازل والاحياء وانما هم متالبون على كنيسة معظمة عندهم تعرف

(١) ابن جبير ٢٩٢ (٢) المقدمة ١٥٤ (٣) ابن الاثير والماسعودي

٢ * ٤٢ او الخميس ٢ * ٢١٤ (٤) ابن الاشبهي ١ * ١٢ (٥) ابن جبير

٢٨٨ (٦) ابن جبير ٢٨٩ (٧) القزويني ١٢٨ (٨) ابن بطوطة

١٩٧ * ١ (٩) القزويني ١٢٨

بكنيسة مريم^(١) وهي من اعظم بيعة بعد بيت المقدس
 وبقيت في دمشق ثمانية ايام الى ان وفد الغلمان بالدواب
 المحملة وكتب قد استقصيت البحث عن هذا الاموي الذي اتعب
 خاطر الرشيد امره فلم يجد له غرضاً في السياسة ولا هو طامع بملك
 ولا اماره ولا يحدت نفسه بشيء مما يلق بال الرشيد فامسكت عن
 السعاية به لاني رأيتُه وهو خلو من هذه الاغراض مثل الناجر
 الكثير المال والجاه^(٢) ليس الا وقد تمهاني بالاستطلاع عن امره
 ان اقف على اخبار اقاربه من الخلفاء وغيرهم متابعه لما نقل الي عن
 خبره فوجدت في الاولين منهم عقلاً وسياسة الا انه لما صار الامر
 الى صبيتهم المترفين استرسلوا في القصف والتنهك^(٣) وانعكفوا على
 اللهو والطرب واستخفوا بامر الرعية وأغفلوا عن مصالح الملك^(٤)
 فزاله الله عنهم والبسهم الذل بذنوبهم^(٥)

قد انتهى ترّف ملوكهم الى يزيد بن الوليد^(٦) وهو الذي اخذت
 الخلافة بالانحلال بين يديه لقيام اهل بيته عليه وتحرك الدعاة
 بايامه في خراسان بما وجدوا فيه من قاة الخبرة بالملك وانعكافه على
 اللهو والطرب^(٧) وقيام خلافته بين الكاس والوتر^(٨). وقد استرسل

(١) ابن جبير ٢٨٥ (٢) الانليدي ١٢١ (٣) اغاني ١٣ * ١٦٥

(٤) المقدمة (٥) القزويني (٦) الدميري ١ * ٩٠ (٧) المسعودي

٢ * ١٤٦ (٨) ابن خاقان ٤٤

في التبذير حتى أنفق ما جمعه أجداده في بيت المال لأنه افراط في
 الكرم افراطاً فاحشاً حتى لم يقل لا في سؤال سئلة^(١) وكان إذا وصل
 الشعراء عدّ آياتهم وإعطاهم عن كل بيت ألف درهم^(٢). وكان
 يتأنق بصنوف الملاذ من المطعم والملبس حتى أنه لبس القلنسوة من
 الوشي^(٣) مذهبةً واتخذ العقود من الجواهر كالتساء وكان يغيرها
 في اليوم مراراً لشغفه بها^(٤) وكان يتختم بالياقوت ووقع من خواتمه
 إلى بني العباس^(٥) خاتم يساوي أكثر من أربعين ألف دينار وإذا
 أُخرج من محبسه أضاء المكان من شدة لمعانه وكان يسترسل في
 الطرب إلى أن يوجه رسالة^(٦) في طلب المغنين من الحجاز وغيره
 ويعاقر معهم الخمرة^(٧) ويشرب الهففة وهو الشراب الذي كان
 يشربه ملوك الفرس أياماً معدودةً على غير انقطاع^(٨) فتبعهم في ذلك.
 واصطنع بركة صبّ فيها الخمر^(٩) وكان يلقي نفسه فيها من الطرب
 المفرط^(١٠) ثم يخلع ثيابه على الندمان^(١١) ويستقيم الخمر بيده^(١٢) وكان
 إذا سُئل عن الشراب وعذله عليه قال
 يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاعر

- | | | |
|----------------------------|---------------------------|--------------------|
| (١) أبو الفرج ٢١٠ | (٢) اغاني ٦ * ١٤٨ | (٣) اغاني ٦ * ٤٤ |
| (٤) اغاني ٦ * ١٢٩ | (٥) المستطرف ٢ * ٩١ | (٦) اغاني ٢ * ١١٧ |
| (٧) اغاني ٢ * ٩٨ و ٦ * ١٤٤ | (٨) اغاني ٦ * ١٢٠ | (٩) الدميري |
| ٩٠ * ١ | (١٠) الاغاني وحلابة الكعب | (١١) اغاني ٦ * ١٤٥ |
| (١٢) اغاني ٦ * ١٢٠ | | |

نشرها صرفاً ومزوجةً بالسخنِ احبائنا وبالفاير^(١)
 وكان ماجتارديء المذهب حتى ترك صوم رمضان^(٢) وغشي امهات
 اولاد ابيه^(٣). فلم يعظم امره على الرعية من وجه واحد وانما هي وجوه
 قد ائقل بها عليهم حتى حملهم الى الجسارة عليه فنصبوا عليه الحرب
 وقتلوه. هذا ننف من اخباره حدثني به مغنية^(٤) كانت له يقال لها
 برق الافق^(٥) وهي اليوم عجوز تكاد ان تنال الارض بوجهها من
 الكبر وقد اخبرتني في بعض كلامها ان الجوهر كان في صباها
 متداولاً في الناس فلما جمعه يزيد من كل وجه وغالى به غلا ثمنه
 منذ ذلك الحين^(٦) فهذا شيء من الافراط لم يسمع بمثله في أحد من
 الملوك المسرفين فان تنظر الى ما كان عليه بنو أمية من العزة وما
 صاروا اليه من الذل تجدان الله سبحانه وتعالى لا يغير نعمة على
 عبده حتى يغيرها العبد على نفسه بارتكاب المعصية وكفران الجليل
 ولما طال مقامي في دمشق تهيأ لي ان ازور اماكنها المشهورة
 فزرت موضعاً يقال ان هابيل وقابيل قد نزلا فيه^(٧) وموضعاً يقال
 له باب الساعات^(٨) ويزعم اهل الاخبار ان كانت فيها قارة تقدم عليها
 القرايين فما قبله الله منها ابتلعت نار من السماء وما لم تقبله بقي موضعه

(١) الاغاني والطواط وابن الاثير (٢) الطواط ٦٢ (٣) ابن الاثير

١١ * ٥ وابو الفدا والطبري (٤) اغاني ٢ * ٨٧ (٥) الاغاني كتاب ٦

(٦) الفريني ١٢٦ (٧) باقوت ٢ * ٥٨٨

على الصخرة . وزرتُ مشاهد جماعة من اهل البيت والصحابة
 والتابعين والاولياء الصالحين^(١) في جبل قاسيون ومقابر الشهداء^(٢)
 وجبانه باب الصغير^(٣) وبينها قبور بني أمية متهدمة والرخام عليها
 متكسر^(٤) . وزرتُ قريةً في سفح الجبل المذكور يقال لها برزة^(٥) ويزعم
 الناس انها مولد ابرهيم خليل الله^(٦) والى ما فوقها حجارة مصبوغة
 بالدم يقولون فيها عن قابيل بانه رضَّ عليها رأس هابيل^(٧) ثم جرَّه
 الى مغارة هناك يقال لها مغارة الدم^(٨) . وفي حضيض الجبل مغارة
 أُخرى تسمى مغارة الجوع ويزعمون ان سبعين نبياً ماتوا فيها من
 الجوع او اني أسخى ان اتقل حديثهم على سمينه فانهم ليقولون سبعين
 الف نبي^(٩) كان كل من عاش في الشام نبي^(١٠) او ولي^(١١) وفي طرف
 الجبل ما يلي الغرب ربوة^(١٢) يقول المفسرون انها هي المذكورة في قوله
 تعالى واوتيناها الى ربوة ذات قرار معين^(١٣) (ويرد عليهم آخرون
 بان المراد بها ربوة في الاسكندرية^(١٤) من ديار مصر) وهناك مسجد
 يقولون ان المسيح عليه السلام اوى الى مغارة بجانبه وفيه حجر قد
 انفلق الى شطرين ولم ينفصل أحد الشقين عن الآخر بل اتصلا

(١) ابن جبير والشريشي ٢ * ٢٢٦ والطيفات ١ * ٢٩ والمسعودي ٢ * ٤٢
 (٢) قضاة الشام (٣) ابن خلكان (٤) ابن جبير ٢٨٢ * ٢٨٣ والمسعودي
 ٢ * ١٤٢ وابن الاثير ٥ * ١٢٠ (٥) ابن جبير ٢٧٥ (٦) ياقوت
 ٢ * ٥٨٩ (٧) الفزوني ١٢٦ (٨) ياقوت ٢ * ٥٨٨ (٩) الفزوني
 (١٠) ابن بطوطة ١ * ٢٢٢ (١١) الفزوني ١٢٨ (١٢) المحاضرة ١ * ٢

كرمان مشقوق^(١). ولهذا المكان منظر حسن الى البساتين والخضرة في جميع جوانبه ولا إشراف كإشرافه حسناً وجمالاً واتساع مسرح الابصار. وفيه تنقسم امواه المدينة الى أنهار سبعة^(٢) أكبرها نهر ثوري ونهر يزيد^(٣) وهما فيه نهر واحد يعرف بنهر بردى. وهناك بعض قرى مثل نيرب ومزة والسهم والسطر^(٤) وفيها الجوامع والمرافق والحمامات^(٥) إلا أنه لا يظهر منها إلا ما سما بناؤه لتطاول الشجر عليه وفيها من الفواكه والتفاح والخوخ المسى عندهم بالذراقن^(٦) وسائر الاثمار ما ليس في البلاد مثله^(٧) صحة وطيباً والى ما يليها من طرف الجبل موضع يقال له عين برما^(٨) كان معموراً لايام معاوية بجماعة من الخراسانيين ثم توالى عليه الخراب^(٩) بما ظلم الخلفاء بعده حتى أصبح الى هذه الغاية قليل العين وبقي الأثر من عمارته وذهب العين ولقد كانت دمشق فيما خلى من الزمان يعيبها كثرة الوحول في أزقتها وتراكم الطين في ساحاتها وأما كتبها فلما أقام بها الامويون شرعوا في إزالة الاقدار منها^(١٠) وقاية من الطاعون الذي كان ينزل بها تباعاً في السنين السالفة^(١١) وهذا هو الأثر الذي تشهد لهم

(١) ابن جبير ٢٨١ والفزوي ٢٨ (٢) تقويم ٢٥٢ (٣) ابن خلكان

٢٧٨ * ١ (٤) كليات ٢٠٢ (٥) ابن جبير ٢٧٩ (٦) اغاني ١ * ٢٦

(٧) الأكثر ١٤٤ (٨) المسعودي ٢ * ٨٢ (٩) المسعودي ٢ * ٦٢

(١٠) ابو الفداء ١ * ٢١٧ (١١) المسعودي وابن الاثير

البلاد به كما تشهد بحجبل عنايتهم في تشييد البناء على الهندسة التي
ليس اعظم منها وقعاً في القلوب ولا أتمَّ حسناً وجمالاً في العيون
كالذي يبلغنا عما بنوه^(١) في الاندلس من القصور^(٢) التي تحار في
جمالها عقول الفرنجة . فقد شاهدتُ دار الوليد بن عبد الملك من
قصورهم الباقية في دمشق فوجدتها بديعة الحسن مبنية بالحجر
والصناع والعمد ومفروشة بالرخام الأخضر^(٣) وهي تنتهي بالبهاء
والاشراق حتى يضرب المثل^(٤) في احكام رسومها وجماله ببناءها ولو لم
يكن من تمام زينتها إلا العمدان المزخرفة منصوبة في اروقنها فرادى
وازواجاً^(٥) لكنى البصائر روعاً ووسع الابصار ابتهاجاً فاذا ذكر انه
لما ادخلني صاحب الوقوف رياضها لمشاهدة ما فيها من الاشجار^(٦)
الغريبة لم يتحول نظري عن التصر لما رايت من حسن المفرط
واعجبت به من الزينة التي يكبرها الناظر ويقف عندها وقفة
الذاهل المستغرب لما بين يديه وهو بين^(٧) أساطين دقيقة وقباب
رفيعة ورواشن^(٨) مخزومة وخرجات مزينة وطبقان مجسمة وما بينها
من الرسوم العجيبة^(٩) ما تجول فيه الافكار ففجأه وتميل اليه الانظار
فأتمله

(١) ابن الاثير كتاب ٥ و ٦ (٢) الميري (٣) الوطواط ١١١

(٤) المقدمة ٥٤ والفتح بن خافان ٩٤ (٥) الميري (٦) الوطواط ١١١

(٧) الف ليلة وليلة (٨) اغاني ٥ * ١٠ (٩) الميري في فتح الطيب

ذكر جامع الوليد المعروف بالجامع الأموي

هو أ فخر مائة لملوك أمية في دمشق بناه الوليد بن عبد الملك صاحب القصر المذكور وكان ذاهية في تشييد العمارات^(١) والمساجد حتى كانت الناس لأيامه اذا تلاقوا في الأسواق والمجالس تساءلوا عن العمارة^(٢) وعن اي بناء شرع فيه خليفتهم كدأبهم من التساؤل عن الخيز في ايام عمر بن عبد العزيز وعن الطعام في ايام سليمان بن عبد الملك وعن اللهو في ايام يزيد بن الوليد وليس في الاسلام كله مثل^(٣) هذا الجامع حسناً^(٤) واتقاناً وجمال رسم^(٥) وهو مائل الى الجهة الشمالية من المدينة وسمعت عن سفيان الثوري انه قال ان الصلوة فيه بثلاثين الف صلوة^(٦)

كان موضعه قبل الاسلام بيعة للنصرانية^(٧) تعرف بكنيسة مار يحننا^(٨) ومن قبل ذلك بيت عبادة لأهل جاهليتهم^(٩) فلما دخل المسلمون المدينة عنوة تحت قيادة خالد بن الوليد أخذوا يصف الكنيسة ثم دخل عبدة بن الجراح^(١٠) صلحاً فانتهى الى نصفها

(١) ابن جبير وياقوت ١ * ٥٩١ و ابو الفدا ١ * ٢٠٩ وابن الاثير ٥ * ٤

والقري ١٥١ والمقدمة ٢١٠ (٢) القزويني ١٢٧ (٣) الشريشي ١ * ٢٠٨

(٤) نفوس ٢٢٠ وابن بطوطة ١ * ١٩٧ (٥) ابن جبير ٢٦٢ (٦) ابن

بطوطة ١ * ٢٠٤ وابن جبير (٧) ابن الاثير (٨) ابو الفدا ١ * ٢١٠

(٩) ياقوت ٢ * ٥٩١ (١٠) ابن الاثير

الآخر وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى فبقي نصفها في أيديهم^(١) وكانوا يزعمون أن الذي يهدم بيعتهم يحن^(٢) فلما صارت الخلافة إلى الوليد قال أنا أول من يحن في سبيل الله ثم بدأ الهدم بيده^(٣) فبادر المسلمون وأكملوا تخريبها حتى هاجت النصرانية وعلا صياحهم فعوضهم الوليد عنها بمالٍ جسيم وأرضاهم بعدة كنائس صالحهم عليها^(٤) ثم وجه إلى ملك الروم^(٥) في أشخاص اثني عشر ألفاً من العملة والصنّاع والمرحّين وتقدم إليه بالوعيد في ذلك أن توقف^(٦) ثم أكل هدمها سوى حيطانها وأنشأ فيها النسر والقناطر وحلّأها بالذهب^(٧) وعلق عليها الاستار من الوشي والابريسم وبقي العمل فيها نحواً من تسع سنين وكان يعمل فيها ألف مرخم^(٨) والعهد العجيب^(٩) من الرخام والمرمر تأتيهم من كنيسة للنصارى في انطاكية تعرف بمزور^(١٠)

وغرم الوليد على هذا الجامع من الدنانير المصرية زنة مئة وأربعة وأربعين فنطاراً بالدمشقي^(١١) وذلك يعادل عشرة آلاف ألف دينار^(١٢) وقد قرأت في بعض الجامع أن جملة المنفوق عليه كان أربعائة صندوق وفي كل صندوق ثمانية وعشرون ألف

(١) الواقدي (٢) ابن بطوطة ١ * ١٩٨ (٣) ابن جبير ٢٦٤

(٤) الخميس ٢ * ٢١١ (٥) المقدمة ٢١٠ (٦) ابن جبير ٢٦٢

(٧) الخميس ٢ * ٢١١ (٨) تووم البلدان ٢٢٠ (٩) المسعودي ١ * ٢٧١

(١٠) الخميس ٢ * ٢١١ (١١) ابن جبير ٢٦٢

دينار^(١) ففي القدر الحاصل منه توافق بين الروايتين . وكان المتولي على النفقة عمر بن عبد العزيز^(٢) (من قبل ان يتولى الخلافة) فاتخذ في المسجد ستمئة سلسلة من الذهب للقناديل والثريات^(٣) ونزل جدرانه بفصوص الذهب من الفسيفساء مزوجةً بانواع من الأصباغ الغربية تمثل اشكالا من الرسوم ليس ألجم منها في العيون ورفع عمدانه الرخام المحزج طابقاً فوق طابق^(٤) فاتخذ الأساطين الضخمة فيما يجاري الارض والسواري الدقاق فيما يعلو^(٥) القباب وفي خلال ذلك صور المدن والاشجار بالالوان والذهب^(٦) وكتب في حائط المسجد بالذهب على اللازورد ربنا الله لا نعبد الا الله أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين^(٧)

اما طول هذا الجامع (من الشرق الى الغرب) فهو مئتان خطوة أو ثلاثمئة ذراع^(٨) وعرضه من اللقبة الى الجوف مئة وخمس وثلاثون خطوة . وله أربعة ابواب اولها الباب الشرقي ويعرف بباب جيرون عليه عمودان من الحجر في غاية الافراط طولاً وعرضاً يقال انهما من بقايا الكنعانيين^(٩) اذ ليس في وسع اهل هذا الزمان

(١) انليدي ٥١ (٢) المسعودي ٢ * ١١٩ (٣) ياقوت ٢ * ٥٩٥

(٤) الفزوي ١٢٧ (٥) ياقوت ٢ * ٥٩٣ (٦) الفزوي ١٢٧

وياقوت ٢ * ٥٩١ (٧) المسعودي ٢ * ١٢٠ (٨) ابن بطوطة

(٩) الفزوي ١٢٧ ١٩٩ * ١

قطعها ولا نقلها ثم الباب الشمالي ويعرف بباب الناظفين وكان
مدخل الكنيسة قدماً ثم الباب الغربي ويعرف بباب البريد ثم
الباب الجنوبي ويعرف بباب الزيادة وهو يفضي بالخارج منه الى
دار معاوية^(١) المعروفة بالخضراء والتي نزلها مروان بن الحكم بعد
واقعة مرج راهط . وفيه ثلاث مقاصير اشرفها^(٢) المتصورة التي
انخذها معاوية عند ما كان نصف الكنيسة في يده وتعرف
بالمقصورة الصحابية وهي أول مقصورة صنعت في الاسلام^(٣) بناها
وقاية لنفسه من الخوارج ان يغتالوه في اوقات الصلوة كما اغتالوا
علياً عليه السلام فكان اذا سجد قام الحرس على راسه بالسيوف^(٤)
والى جانب هذه المتصورة خزانة مغطاة بالرسم فيها المصحف
الذي وجهه عثمان الى الشام^(٥) واخرج الي منها صاحب الوقوف
خاتماً من الفضة للوليد نقش عليه يا وليد انك ميت ومحاسب و آخر
لاخيه سليمان وكلماته آمنت بالله مخلصاً^(٦) فأخذتها لأطرف بها
المأمون عند وصولي الى بغداد

وعلى هذا الجامع قبة دورها ثمانون خطوة^(٧) عليها رصاص يمتد
منها الى ان يغطي سطوح الجامع كلها^(٨) بالواح طولها اربعة اشبار
في عرض ثلاثة وربما اعترض فيها نقص او زيادة وهيئة السقوف

(١) ابو الفدا ١ * ٢٠٤ (٢) ابن جبير ٢٧٥ (٣) ابو الفدا ١ * ١٩٩

(٤) الفخري ١٢٩ (٥) ابن بطوطة ١ * ٢٠٢ (٦) الخميس ٢ * ٢١٤

والسعودي ٢ * ١١٩ (٧) ابن جبير ٢٩٦ (٨) الفزوي ١٢٧

من الخارج كنسر ناشر جناحيه^(١) وكان القبة رأسه . وهي من سمو
الارتفاع بحيث أنك تراها من أي موضع استقبلت دمشق وإما
صحن المسجد فانه من اجمل المناظر كلها على جدرانه آيات من القرآن
ورسوم بالذهب تحبب البصر والبصيرة وهناك مجتمع الدمشقيين
ومنتزههم لا يزالون فيه بكرة وعشبة بالقراءة او بمبادلة الحديث^(٢)
والى جانبه مما يلي الشرق مسجد مذهب لأمير المؤمنين علي عليه
السلام وآخر عائشة يقال انها كانت تسمع فيه الحديث وكلاهما من
علي وعائشة لم يدخلتا دمشق على انه يقال في مسجد علي عليه
السلام انه رؤي في المنام مصليا موضعه^(٣) وإما موضع عائشة فلا
مندوحة فيه والله اعلم

ولهذا الجامع ثلاث صوامع^(٤) واحدة بالجانب الشمالي وهي
مذهبة من اسفلها الى اعلاها^(٥) وفيها مقاعد ومجالس واثنتان
بالجانب الغربي واحدهما اكبر الصوامع الثلاث . ووجدت في
أروقته ودهاليزه وصحنه وفي المساجد المتشعبة منه ماء يجري بلا
انقطاع وشاهدت في البلاط القبلي قبالة الركن الايمن من المقصورة
الصحابية تابوتا معرضا من الاسطوانة وفوقه قنديل موقود أبدا
في ليل ونهار يقال انه مشهد رأس يحيى بن زكريا^(٦) عليه السلام

(١) ابن جبير ٢٩٦

(٢) ابن خلكان وابن جبير

(٣) ابن جبير

(٤) ابن بطوطة ٢٠٢ *

(٥) الشريفى ٢٠٨ *

(٦) ابن جبير ٢٧٥

ومن حوله عمدٌ عجيبةٌ قد ظهرت فيها عروقٌ أخرى من اجناسها حتى يخيل للعين انها منزلةٌ فيها بايدي الصناع . وفي الجملة فان محاسن هذا الجامع اعظم من ان تحاط بوصفٍ والناس لا يزالون فيه متفرجين ومتزهين ولذلك أقام فيه صاحب الوقف حرساً وكلاءً باخراجهم منه بعد صلوة العتمة ^(١) لاني احسب الزائر لو تردد اليه زمانه لراى في كل يوم ما لم يره قبل ^(٢) ذلك من جمال الرسم واحكام الصناعة ^(٣) كما احسب انه لا يزوره احد الا ويجدد الدعاء لبانيه ^(٤) وان لم يكن غرضه مع الأمويين

—•••—

المرور ببعلبك وركوب البحر من بيروت

رجع الى اقتصاص الرحلة . ركبْتُ من دمشق في غد اليوم الذي سَفَرْتُ فيه الغلمان الى بيروت وملتُ في منتصف الطريق الى بلدةٍ غناء ذات سور قديم يقال لها بعلبك ^(٥) ومنها الى الزبداني وهي مدينة على طرف وادي بردى ثمانية عشر ميلاً ^(٦) وهي ذات اشجار وانهار وعيون وخيرات كثيرة ^(٧) وفيها الكرم الخصب . ولقيت فيها فيلسوفاً من النصارى يقال له قسطا بن لوقا ^(٨) صحبني

(١) اغاني ٦ * ١٤٨ (٢) القزويني ١٢٧ (٣) ياقوت ٢ * ٥٩٢

(٤) ابن جبير (٥) نفوس البلدان ٢٥٥ (٦) ابن بطوطة ١ * ١٨٥ (٧) المنري

(٨) في ترجمة يعقوب الكندي

الى زيارة الآثار الموجودة فيها وأخبرني عنها بما سترى بعضه في سياق الحديث

فان آثار بعلبك قد أخذت بمجامع قلبي حيرةً وإعجاباً واعظها هيكلان كبيران أحدهما أغنق من الآخر^(١) وفيهما من النقوش العجيبة المحفورة في الحجر ما لا يتأتى حفر مثله في الخشب مع ارتفاع جدرانها وعظم حجارتها وطول اساطينها ووسع فتحها وعجيب بنائها ما يذهل الأبواب تحبيراً^(٢) في اقتدار الرجال على مثل هذه العظام. وقد اخبرني قسطا هذا الفيلسوف انه لا يرى هذين الهيكلين الا من بنيان أمة ماهرة في علم الهندسة كما انه لا يرى الحنايا التي تعلها الا أغنق من الآثار الظاهرة ففي ظنه انها وضعت لايام سليمان عليه السلام حتى اذا جاءت الروم هدموا المعبد العتيق ورفعوا الهياكل المائنة مكانه

اما الحجارة الثلاثة العظيمة التي تُعد من عجائب^(٣) الاكوان فقد رفعها الروم بتعاون ايدي عبيدهم على ما جرت عادتهم من استخدام أسرائهم في البنيان وليس كما تزعم العامة من ان الجمان بنوا ذلك لسليمان كدأهم ما يقولون^(٤) في كل أثر لا يقدر ان يأتي بمثله اهل هذا الزمان وانما رفعها الروم بالحيل الهندسية والقوة الآدمية^(٥)

(١) المسعودي ١ * ٢٩٦ (٢) المسعودي ١ * ٢٩٦ (٣) المحاضرة

١ * ٢١ (٤) القرمانى ٥ * ٨١ و ١٧٠ والفنزويني والف ليلة وليلة والمحاضرة

١ * ٤٤ والمسعودي (٥) المقدمة ٢٥٨

استدلالاً مما نجد في اطرافها من الأنقرة التي تقضي بانها كانت تُرفع
جراً بالأمراس بان تمهد لها الارض سطحاً من التراب ينتهي الى
حيث هي مرفوعة ثم تنجرُّ بالسلاسل على عجلات لها بكرات من
الفولاذ عريضة الاطراف حتى لا تغوص في التراب وصغيرة الحجم
حتى تحتمل الثقل وتكون اشدَّ صلابة من البكرات المستنظمة التي
تستمرُّ عرضةً للقصف ولا تأتي بالمقصود من استعمالها لرفع الاثقال
ولقد كانت سياسة الروم مع الأمم التي يتغلبون عليها ان
يأخذوا دينها بالتعظيم والتعجيل ليستميلوها اليهم ويبينوا في أمن
من تحركها للفتنة على غير اضطرار الى تحريمها بالجدد اذ تنبئ
الاخبار السالفة انهم كانوا يملكون معظم الدنيا فلو دعاهم حفظ
البلدان الى اقامة الجند فيها لاقتضى لهم آلاف الوف وهذا بعيد
عن ان تقوم دولة من دول العالم بكفالتهم . فلما دانت لهم الشام
وكان يعل معبوداً فيها من الصائبة وغيرهم (كما قال الله تعالى
بالاشارة اليهم أتدعون بعلاً وتذرون احسن الخالقين ^(١)) بنوا
لعبادته هذا الهيكل على شكل غريب يقصدون منه المعجزة ليظنوا
ضخامة ملكهم لاهل المشرق واقتدارهم على عظام الأمور اذ ليس
للظن بانهم قصدوا اليه المنعة موضع في تأمل العقلاء . فهذا احد
اللوليين اللذين يفضيان بالراقي عليها الى سطوح الهيكل قد اتخذ

أعلاه بما هو زائد عن النصف من حجرٍ واحدٍ فصلت منه الدرجات
والسقف والمحائط الدائر من جميع جهاته وكذلك الحجارة الثلاثة قد
أخذت في أعلى الجدار لتظهر للوفاذ على بعلبك من حيث هو مستقبل
لها. فلو أنه أريد بها المنفعة لاقتضى أن تكون في أسفل الجدار لا في
أعلاه كما أنه لو أريد ذلك من اللولب لكان النصف المتخذ من
قطعة واحدة قائماً فيما يداني الأرض أو بما سها حتى إذا وهى عليه
بقي هو في موضعه أو تداعى جدار السور بقيت الحجارة الثلاثة مرداً
لمهاجرة العدو

ثم أنه لما انقرضت الروم الأولى وانفرد ملك الروم الثانية
بالقسطنطينية وسائر المشرق وقد أخذوا في تعظيم النصرانية رأوا
أن بقاء هذا الهيكل محجة للناس تشغف أفئدتهم بما فيه من الغريب
ولا يتصدون الكنائس وهي دونه في البهاء والاشراق مضرباً بالنصرانية
وحابس لها عن أن تعم الشام فعدوا إلى تخريبه ومحو الأثر المائل
منه وكان في القسطنطينية فطريك ذو عقل وعلم ودهاء يقال
لَهُ فم الذهب يوحنا فإشار على القيصر أن يتخذ كيسة لعبادتهم حتى
تحصل المنفعة منه مع حفظ الأثر الجميل فاتخذ كذلك وفي رواية أنه
أشار عليه بأن يشغل فيه الفاسات فافعل أو يقال أنه فعل. فانظر
إلى شأن هذا الهيكل كيف تقلبت به الأغراض فقد شاده الروم
الأولى لغرضهم في الدنيا ثم خربت الروم الثانية لغرضهم في الدين ثم

مثلت آثاره لهذا الزمان لتتطرق بعزة الله وتشهدان ليس من باقى إله
ولما انفصلت عن بعلبك مررتُ بسهل أفسح يقال له البقاع
وعرَّجتُ فيه على موضع يسمى بكرخ نوح^(١) ويزعم أهله أن فيه قبر
صاحب الفلك عليه السلام . وكنت أرى بمقربة من كل قرية من
قراه ردموا قد تراكت أمثال التلال كأنها من بقايا أمة قد خلت .
وصرفتُ من بعلبك الى بيروت يومين في جبل لبنان لصعوبة
المسلك فيه وكنتُ أميل الى عيون القرى لتنزبه النفس ورواء الظماء
وانها لكثيرة في هذا الجبل المبارك وهي تمذغ في شغفاته . واقمتُ في
بيروت حرسها الله ثلاثة ايام في انتظار الريح الموافقة وهي مدينة
جليلة^(٢) على ضفة البحر طيبة الاقليم عليها سور من حجارة^(٣) وتحفُ
بها عمارةٌ مشتبكة في سفح لبنان كان يستعذبها الوليد بن يزيد
المقدم ذكره فيقول^(٤)

رب بيت كأنه من سهمٍ سوف تأتيه من قرى بيروت

ثم يقول^(٥) والنفس تائفة اليها والفؤاد شغفٌ بجهاها

ألا يا حبذا شخصٌ حما لقياهُ بيروتُ

وهي فرضة دمشق ومعظم الشام وفي مرساها مجتمع كثير من السفن^(٦)

التاجرة ويجلب منها حديد^(٧) لبنان الى ديار مصر . والى شرقها نهر

(١) ابن بطوطة ١ * ١٢٢ (٢) تقويم البلدان ٢٤٧ (٣) الادريسي

(٤) اغاني ٦ * ١٢٢ (٥) ياقوت ١ * ٧٨٥ واغاني ٦ * ١١٧ (٦) الادريسي

(٧) ابن بطوطة ١ * ١٢٢

بغاط في الشتاء قد بنى له اهلها من قديم الزمان قناة^(١) يجرون الماء عليها اليهم والى غربها مشهد الاوزاعي رحمة الله وهو مولود بعلبك^(٢) وفخر المحدثين من اهل الشام له في علوم الحديث^(٣) مدونات جمع فيها الصحيح المروي عن الصحابة والتابعين ومن سمع منهم وعنهم واستخرج الاحكام الشرعية على مذهب ينفرد به اهل تلك البلاد وقد كان لبيروت شأن عظيم في مطرف الايام وكان عليها ملوك من الكنعانيين ومن قام بعدهم بثقل الدول الجسام وكان للعلوم فيها سوق ليس بعدها غاية في الرواج حتى انها دعيت بمدينة الحكمة. وكان فيها للروم منازل وهياكل هجروها بعد الفتح وجلوا عنها^(٤) جلوا لا رجوع لهم بعده باذن الله. ثم عاد اليها العمران من بعدهم بقيام الخلافة في دمشق اذ كانت المدن لا تصلح الا بقيامها بالملك او قيام الملك في جوارها حيث تتوارد الخيرات وتقاطر الوفود وينطلق الامن للتجارة

وان كنت قد شهدت لهذه المدينة بطيب الهواء فلست بالناكر ما في ربحها الشمالي من الرطوبة التي تؤتي الرأس الماء لا يشعر به اهلها الا الغريب الزائر^(٥) غير ان هبوبة فيها ليس بالمتدارك حتى نعدده من عيوب الاقاليم وانما الغالب على بيروت ربح الصبا الذي

(٢) ابن خلكان

(٣) طبقات ١ * ٥٠

(١) تويم البلدان ٢٤٧

(٤) الواقي (٥) النزوي

ينعش النفس يأتيها من جهة الغرب حيث الرمال المنبسطة على
شاطئ البحر فرما وجدت هذا الموضع اُصلح للسكنى من البلد العتيق
وفي نفسي انه اذا توفّر عمرانُه عن ان يسع اهله فلا بد ان يحدثوا
ابناءهم فيه اذ كان أدري عن ربح الشمال وأقرب الى استقبال
نسيم الصبا

وركبت البحر من هذه المدينة في أول يوم من شعبان واقلعت
مركبنا بهواء شمالي ليس بالثقل ولا بالخفيف ولكنه لطيف ارسله الله
علينا من كرمه ولطفه. واستمرّ سيرنا في البحر نحواً من عشرين يوماً الى
ان اقبلنا على مالطة وهي جزيرة من اول بلاد الفرنجة وبها كنائس
لام النصرانية وهم يغفلون فيها فبتنا ليلة في مرفأها وتسوّفنا منها الزاد
ثم اقلعنا عنها الى مرشيلية في ساحل الديار الرومية الى غرب
النبردية^(١)

لقاء الانبرذور والمنصرف من الرسالة

ولما اقبلنا على مرشيلية لم نرَ بها شيئاً من محاسن العمران . ولا
وجدنا في أهلها اثرًا من ظواهر المدنية وانما كانوا من قبل ان تملكهم
الانبرذور يهبون في القفر على وجوههم ولا معاش لهم الا الغزو
والسرقة شأن الامم في خشونتهم وباديتهم فلما استولى على مالكمهم

أقام عليهم أميراً فوَّض إليه الجند والقضاء وجباية الاموال وجعله بمنزلة الوزير في الاسلام واقام تحت يده طائفة من العمال يتولون المناصب في ولايته ولم القاب معروفة عندهم مثل الرئيس^(١) وغيره . ولم أر في عمارة مرشلية المزخرفة الا الكنائس التي نصبها هذا الانبرذور وهو الذي نصر أُمَّتَهُ ونصر القسيسين والرهبان بعد ان اذاقهم اهل جاهليتهم صبر البلاء بل أمر ونار الاضطهاد بل أحرر فلما اطمان له الملك نظر بعين العناية اليهم وأحسن بالنعم الطائلة عليهم واتخذ منهم اولياء يستشيرهم في أمورهم^(٢) ويرجع في السياسة الى رأيهم اذ كان القوم من دونهم هجلاً لا يعرفون القراءة ولا يخط عن بصائرهم قائم الجهل ومعظمهم عبد للمتمول من التجار يموتون جوعاً بين يديه وهم يبللون أرضه بعرق تعبهم وشقائهم ثم لا يحصلون على كسرة يرتفقون بها على الحيوة . فأين هذا من حضارة العرب وصلاح أمرهم واتساع المعاش بين ايديهم واخذائهم أشرف السنن العادلة فكان الله تعالى قد اختص أُمَّتَهُ من الفضل والنعمة^(٣) بما حرّم منه أمّ المغرب فانما العرب أحلى منهم وأحلم وأعلى وأعلم وأقوى وأقوم وأعطى وأعطف وأحصى وأحصف وأشرى للتجار وأشرف وأنفى للعار وأنف وكفاهم من نعم الله السابغة ما ركب في طبائعهم من الانفة وكبر النفس فاذا ذكر انك رأيتم يتظلمون^(٤) الى الخلفاء من العمال الجائرين ويبدلون

(١) الانس الجليل ٢٨٩ * ١ (٢) المقدمة (٣) المسعودي ١ * ٢٢٦

(٤) الماوردي ١٥٦ والابشهي ١ * ١٢١ وابن عون والسبوطي

نفوسهم دون احتمال الضيم ولو طرفة حين
وقد شاهدتُ في ديار القوم كثيراً من الأمور التي أخاف إن
أتيت على بيانها أن تسوق بي الحديث إلى الخروج عما أنا بصدده من
ذكر الرسالة. وقد وجدتُ عاداتهم غير منطبقة على عادات المشاركة
بل إن كثيرها مستهجن أو باق على خشونة جاهليتهم. ومن الغريب
المألوف عندهم أن النساء يشبن في الأسواق بلا نقاب^(١) ويجلسن مع
الرجال حاسراتٍ عن الوجوه وهذا استرسالٌ لا اظن أنه تصان
معه الأعراس مثل صيانتها في المشرق من وراء الحجاب وقد وقع بيني
وبين الأمير الذي صحبني في مرشيلية مذاكرة في هذا الأمر فكان
يظن أن المرأة ذليلة في ملتنا وإن حضور ظهورها إلى الرجال واقعٌ
عليها من قبيل التخمير والاسترقاق فلما ذكرتُ له أن الله تعالى قد
وفاهنَّ حقوقهنَّ في الدنيا والدين ووعدهنَّ الصالحات نعيماً مقياً في
الآخرة وأمر بان تجرى عليهنَّ الوراثة التي لم تكن لهنَّ قبل الإسلام
قال صحيح ولكن العامة عندنا ترقط طباعهم وتحسن اشارتهم ويعذب
كلامهم ويظرف معشرهم إلى خلالٍ محمودة من الرقة يكتسبونها
من هذه المخالطة ثم لا تكون في المشرق الذي لا تجمع مجالسه إلا
الندماء والغلمان

وكان أمير مرشيلية عند ما اتصل به خبر وصولي بالرسالة

قد أخرج إليَّ الجند ولم يترك شيئاً من مظاهر الاحتماء إلا اجراه في سبيل تعظيمها والاجلال لها. فلما سألتُهُ عن الانبرذور اخبرني انَّ له غيبة في رومة لامرٍ بينهُ وبين الباب (وهو خليفة الأم النصرانية^(١)) وانه يمكث عنده أربعين او خمسين يوماً . فاستطوت هذه الغيبة منه وخفت فوات الحج فرأيتُ ان اوافيه الى رومة . فركب معي من لدن الامير رسولُ الى القيصرو خضنا عباب ذلك البحر الذي لم تشقهُ بعدُ سفن المسلمين حتى منَّ الله علينا بالوصول الى ساحل رومة سالمين بعد ان تمنا عنه مسيرة عشرين ميلاً وكدنا ان لا نهتدي اليه لولا ان رأى الربان في الليل ناراً تبعث من اطمه^(٢) يقال لها بركان^(٣) في لغة الروم وموقعها فيما اخبرنا الرسول قبالة رومة الى الجنوب^(٤)

ولما اقبلنا على رومة انهى الرسول الى الانبرذور قدومي من لدن الرشيد فسير اليَّ امراء دولته واهل حاشيته وبطانته فساروا بي الى حيث هو مقيم في قصر الباب وهو قصر بل قصور قد جمعت بين الضخامة والاحكام وعني البابون من خلفاء المسج عليه السلام في تجميلها وتزويقها حتى صيروها نزهة توصف بالحسن وكنت حين جاوزني الامراء مقاصيرها الى مجلس الانبرذور^(٥) قد رأيتُ على

(١) نفوس البلدان ٢٠٩ (٢) المسعودي ١ * ١٩٦ (٣) ابن جبير

٢٢١ ونفوس البلدان ٢٠٠ (٤) الادريسي (٥) هكذا وردت في ابن

جدرانها صور ملوكٍ وأئمةٍ وعبادٍ قد طحنتم رحي المنون من املك
العصور الخالية. فلما دخلتُ عليه اصبتهُ جالساً على منصّةٍ من فوقها
قبةٌ عليها كتابة بالرومية وهي مجلّلةٌ بالذهب وعلى رأسه تاجٌ مرصّع
باللؤلؤ والياقوت والزبرجد وفي يده قضيب الملك وعليه حلة
من الوشي كاعظم ما يكون من حلل الملوك وبين يديه حرسٌ
قد وقفوا بالسيف المشهورة وبينهم طائفة من الجنائقة والرهبان
المقدمين قد لبسوا الوشي الذي يقبون به الصلوة في اعيادهم ومواسمهم
ولكن كالذي لم ترهُ فيمن يجاورنا منهم في المشرق حسناً يكاد ان
يأخذ بالابصار اشدةً لمعانه

فلما مثلت بين يديه قمت بما وجب عليّ من تعظيمه والاجلال
له وبلغتهُ سلام الرشيد على لسان المترجم. فكلمني بترفع الملوك الذين
يحاولون الفناء المهابة في قلوب الوافدين عليهم ولكن من غير ان
يكون في نفسه جبروت وشكر من الرشيد مودتهُ واثني عليه ثناءً
جيبلاً. وكان الامراء والرهبان يمدون اليّ اعناقهم ويحدقون بي ابصارهم
كانهم لم يروا من قبلي مشرقياً ثم اشرت الى الترجمان ان يذكر لهُ
هدية الرشيد وانه يطرف بها جلالتهُ لارتباط المودة فيما بينهما فشكرني
على ذلك مرةً ثانية ثم استدناني منه وامرني بالجلوس واخذ في
مسألتي عن الرحلة تعطفاً عاد اليه بعد الترفع فكنت اُجيبهُ بما
نقتضيه الرسوم من حيد الله على ما اتاه من الملك العظيم والثناء

عليه بما أوجد للرعية من الخير والعمران ثم سألتني عن الدولة في
المشرق وأنه يروم أن يكون الدهر في صفاء للرشيد فأجبتُه بما في
الإشارة منه تحفظ عن ذكر أمراء أمية والملائم الأعيان حاضرون
فسألتُه أن يأذن لي بالدخول عليه في خلوة وانفراد فأجابني إلى
ذلك وهو يظهر أئتناسه لي وتوسمه الخير ما وقع بينه وبين الرشيد
من التواد

ولما انصرفت عن حضرته أوقف لصحبتني من عظماء دولته أميراً
ملك قلبي برقة نفسه واحسن من قلبي بلطيف أنسه لم يترك أثراً مشهوراً
في رومة من قصر منيف ولا منزل مشرق ولا مشهد مزخرف إلا
سارني إليه وإرانيه ليعظم في عيني أمر الفرنجة فما كنت لأكبر من
مبانهم إلا الكنائس المعظمة وتأنقهم في تنميقها بالرسوم التي تنتهي
في الحسن وجمال الزينة وهذا أثر من الصناعة ينفردون به دون
المشاركة الذين تنهائم ملتهم عن الرسم^(١) وإنما هم في حاجة إلى
صناعتهم كل ما بنوا قصرًا أو مسجدًا كما علمت^(٢) إلا أنه لا يصح
استفرادهم بالمحذافة فيه دونهم لانتطاع الموازنة فيما يتركه البعض
ويأخذ فيه الآخرون وفي نفسي أنه لو لم يكن منهيًا عن المسلمين في
شرعهم لما بعد أن يبرعوا فيه الروم فقد رأيت من عمل الرسام في
المشرق الأقصى ما يقرب أن يكون في جودة علمهم ورأيت صوراً من

بلاد الصين وقعت الى البرامكة وهي تمثل رجالاً ونساءً واولاداً بحيث ان الناظر ليميز بين الانسان الضاحك والباكي حتى انه ليميز بين ضحك السرور وضحك الثمالة^(١) وهذا شأن من الدقة لم أر مثله في كثير من صور الروم

فأعظم ما تصفحت من كائنس رومة بيعة بطرس حواري المسيح عليه السلام وهي من عجائب الدنيا^(٢) فيها من الرسوم والتقوش والاصباغ والذهب^(٣) ما اذكرني جامع دمشق في بهائه وجماله وهي ابداع بناءة شاهدها في دار الروم وامتدادها مع مقاصيرها نحو من ستمئة ذراع^(٤) وامتداد الكنيسة يبلغ نصف ذلك^(٥) وهي مستوفاة بالرصاص ومفروشة بالرخام المجزّع وعلى يمين الداخل من آخر ابوابها حوض عظيمة للمعمودية يجري فيها ماء ابدًا من النهر الذي يشق المدينة^(٦).

وفي صدرها كرسي مذهبة يجلس عليها الباب في ايام المواسم وتحتها باب مصفح بالفضة يؤدى الى سرداب فيه مشهد بطرس عليه السلام (فيما يزعم الروم) ولكن اهل الشرق من الروم المملوكية^(٧) يردون ذلك عليهم ويذهبون الى ان بطرس انما قبض في انطاكية وليس في رومة وان كرسي انطاكية هو المقدم على كرسي رومة وفي هذه الاقاويل نظرًا لا موضع له في هذا الكتاب وفي خارج الكنيسة عمود من رخام

(١) الفرمانى ٥ * ٢٢٤ (٢) المقرئى والمخاضرة ١ * ٢١ (٣) التزويفى

(٤) تقويم ١٩٩ (٥) ابن خرداذبة ٩٢ (٦) تقويم ٢١١ (٧) المسعودى

فأتم على قواعد اربع من الخناس وفي اعلاه عمود من الصفر قد
رفعت على رأسه كرة مذهبة يراها كل من في رومة كأنها علم
لموضع الكنيسة.

ولما كان الغد استدعاني التيصر اليه فلقينته في ثياب من
الدباج وعليه تاج من الجواهر كاحفل ما كان عليه بالامس كأنه
يريد ان يظهر لي عظم سلطانه^(١) بما تحوي خزائنه من الجواهر والمال
فلما أمر لي بالجلوس بلغته ما اوصاني به الرشيد من أمر امية وما
يروم من موافقته عليهم ولكن بايجاز ابعثت عنه التوكيد ليكون له
اشارة من المصلحة ليس غير فخطبني بما في معناه قرب من كلام جعفر
اعزه الله فاكبرت ذلك من غير ان أعجب منه اذ كنت أعلم ان
عقول الحكماء قد تتوارد وتتلاقى . ولما ذكرت له قرابة العباسيين
من النبي صلى الله عليه وسلم فكر في نفسه حتى ظننت انه سيقول
لي ان من الناس من هو اقرب منهم ومن امية اليه ثم انبسط له مجال
الحديث فقال اني لارى الاسلام اليوم اقل اجتماع عصبه منه في
ايام الخلفاء الراشدين لتجزئه بين المشرق والمغرب على اني ارى دولة
الرشيد اعظم هذه الدول واوسعها رقعة مملكة . واما امر الامويين
فانه لا يناله الا على تهادى الايام اذ لا يدل الشقاق الواقع اليوم بين
السلطان وعميه على ضعفهم عن مرد العدو فلو شد صاحبك عليهم

لحَوَّطُوهُ بِاطْرَافِهِمْ وَقَاتَلُوهُ بَغْرَضٍ وَاحِدٍ تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ الْحَالَةَ الَّتِي
يَعْمُونَ فِيهَا مِنَ الْخَنَاقِ وَالْإِشْرَافِ عَلَى الْخَطَرِ . فَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى
تَغْلِبُهُ عَلَى الْإِنْدَلُسِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُوَافِقَهَا الْأُمَوِيُّونَ وَقَدْ كَانَ قَضَائِمُهَا
عَلَى أَغْرَاضٍ أَفْضَتْ بِهَا أَجَلَتْ عَنِ الْحُرُوبِ فِيمَا بَيْنَهُمْ إِلَى تَغْلِبِ الْجَبْرِ
عَلَيْهِمْ وَإِنَّمَا الْيَوْمَ وَقَدْ وَافَقُوا بِالْأَمْوَالِ ^(١) فَلَيْسَ مِنَ السَّدَادِ أَنْ
يَبَادِيَهُمْ بِالْقِتَالِ عَلَى حِينٍ يَأْتُونَ مِنْ أَمْرِيْقِيَّةٍ بِالْمُرْتَزَقَةِ مِنَ الْجَنْدِ (وَهُمْ
الرِّجَالُ الَّذِينَ يَكْرَهُونَ نَفْسَهُمْ لِلْحُرُوبِ ^(٢)) وَرَبَّمَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ مَدَاهِمَتُهُمْ
مِنَ الْمَغْرِبِ بِمَا هُوَ وَاقِعٌ مِنَ الْفَرْقَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُلُوِّينَ فَيَكُونُ لَهُ
عَدُوٌّ مِنَ الْأُمَوِيِّينَ وَأَهْلُ الْبَيْتِ وَقَدْ يُقَالُ فِي الْأَمْثَالِ أَنَّ الزَّبِيرَ
إِذَا جَمَعَ مِنْهُ حَبْلٌ يُوَثِّقُ بِهِ الْفَيْلَ الْمَغْتَلَمَ ثُمَّ أَنَّهُ ذَكَرَ لِي عِنْدَمَا اسْتَنْهَضْتُهُ
إِلَى مِظَاهِرَةِ الرَّشِيدِ أَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِنْدَلُسِ مَلُوكًا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّأَ
دِيَارَهُمْ إِلَّا بَعْدَ قِتَالِهِمْ وَقَهْرِهِمْ وَإِنَّهُ يُوجِّهُهُمْ إِلَى مَنَاجِزَةِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ
لِجِهَةِ الْمَشْرِقِ كَأَنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ . هَذَا مَا وَقَعَ
بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنَ الْحَدِيثِ وَقَالَ فِي خَاتِمَةِ الْمَفَاوِضَةِ قُلُوبُ الْأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
أَنِّي عُنَيْتُ بِمَجَاجِنِهِ وَإِذَا كُنْتُ بِمِظَاهِرَتِهِ فِيمَا يَرُومُ وَأَقْرَأُ عَلَيْهِ السَّلَامَ
هَذَا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الرِّسَالَةِ لَمْ تَتَوَسَّعِ الْمَصْلِحَةُ مِنْهَا إِلَى مَا وَرَاءَ
التَّوَادُّ الْظَاهِرِ مِنَ السِّيَاسَةِ كَمَا رَأَيْتُ . وَوَلَبِثْتُ فِي رُومَةٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَأَنَا
عَلَى بَتَاتِمِهَا . وَكَانَ الْإِنْبَرُذُورُ قَدْ اتَّخَذَ لِي وَلِيْمَةً دَعَا إِلَيْهَا عِظَاءَ دَوْلَتِهِ

وتكرم عليّ بخاتم من الياقوت في سبيل التعطف ثم أحبّ اليّ ان
أخذ عليّ تونس لوجهه اليه منها برمة امام عظيم من أئمة النصرانية
يقولون انه من اهل الجنة^(١) فأجبتُه بالامثال الى ذلك فسير في صحبتنا
مركباً من اسطوله لتحملها اليه واقلمت مركبنا عن رومة في يوم
شديد الحر من رمضان كان الحرارة فيه تشمل الاقاليم المرتفعة ايضاً
وقد حق تسميته برمضان من الرمض وهو ان تحترق الرجال من
شدة الحر^(٢)

وكان الفراغ من تقييد هذا الكتاب وانا على متن السفينة

وبيني وبين تونس مسيرة يوم وليلة والله أسأل

ان يبلغنا المقصد بالسلامة وهو الكفيل

بالتيسير والتسهيل

لارب

سواء

الرسالة التاسعة

المرور بتونس من بلاد المغرب

كتبتُ اليك الرسالة الثامنة بعد الانصراف من الرسالة
واليوم اكتبُ اليك من المشاعر المباركة بعد بلاغها الى الرشيد
فاني لما قفْتُ من ديار الروم عرَّجت بتونس من بلاد المغرب فاكرم
عاملها من لدن ابن الأُغلب وفادتي وأخرج اليَّ زورقا حامي به الى
المدينة لان البحر يبعد عنها نحواً من عشرة اميال^(١) وبينها بحيرة قريبة
الغور فسبق اهتمامي باخراج عظام الامام النصراني الى مركب الروم
لابعادهم عن مرفأ المسالمين اهتمامي بما سواه من الامور. ثم اني نظرت
في شأن ابن الاغلب ابرهيم وانقطاع اهل الشيعة عنه الى حوزة
ادريس بن ادريس رضي الله عنه من غير ان اكشف عما بالنفس
من الميل مع اهل البيت اذ كنت اوجبتُ على نفسي ان أقوم بصدق
الخدمة للرشيد في هذه الرسالة التي حملني مجاشمها فاتصل بي من
اخباره معهم جسم حملت خبره الى البرامكة واذكرني حال العلويين
في المغرب ايام عليّ وابي بكر وعمر رضي الله عنهم من الصلاح
يتبعون الرسوم التي حفظوها عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا

يقبون من ابهة الملك الا ما تدعوهم اليه حاجات الخلافة وكذلك
 أهل الشيعة من اتباع سنن الهداية والمحافظة على القراءة التي قرأها
 علي عليه السلام . الا ان الأغلب دمر الله ملكه ينقم عليهم امر
 الدنيا والدين ولا ذنب لهم الا انهم يعادون من يعاد به الله بمعاداته
 أهل البيت ومن عهد^(١) اليه النبي بالخلافة من بعده حيث يقول
 أما ترضى ان تكون مني بمنزلة هرون من موسى^(٢)

وهذه القراءة التي ينقها الاغلب على أهل الشيعة قد كان لها
 شأن عظيم في صدر الاسلام وأسالت من دماء المسلمين مجاراً بما
 تعصبوا له من الاغراض . كان صدور الخلاف بينهم على قراءة ابن
 مسعود وقراءة ابن أبي كعب^(٣) وكان أهل الشام في خلافة عثمان بن
 عفان قد انتطعوا الى قراءة يعارضون بها أهل العراق وزعموا انهم
 أخذوها عن المقداد بن الاسود وكان عثمان يقرأ على قراءتهم وينقم
 على أهل الحرمين والعراق قراءتهم على قراءة أبي موسى الأشعري^(٤)
 فنقص عليه ذلك علي أمير المؤمنين^(٥) ثم حمل عليه الناس وقتلوه
 وكانت تلك أول فتنة في الاسلام . وكان عثمان في خلافته قد عقد
 مجلساً من الصحابة على ان يحمل الناس على قراءة واحدة^(٦) في جميع
 الأقاليم والأطراف فجمع الرقاع والأدراج واللخاف والعسب التي
 كان مكتوباً بها المصحف وأمر بان تحرق كلها وان تنسخ من

(١) السيوطي (٢) العقد الفريد ٢ * ٢٧٥ و ابو الفداء ١ * ١٥٧

(٣) الكندي (٤) ابو الفداء ١ * ١٧٦ (٥) الكندي (٦) الزمخشري

المصحف الذي كتب في خلافة ابي بكر رضي الله عنه وكان مودعاً
 عند حفصة^(١) زوج النبي صلى الله عليه وسلم اربع نسخ^(٢) يبعث بها
 الى الديار الاسلامية فتولى نسخها زيد بن ثابت الانصاري^(٣) وعبد الله
 بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام
 المخزومي وقيل عبد الله بن عباس ومحمد بن ابي بكر^(٤) وقال لهم عثمان
 ان اختلفتم في شيء أو كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما القرآن نزل
 بلغتهم^(٥) ... وهذه المصاحف المنسوخة لم تنزل محفوظاً في مكة
 والكوفة والشام الا المصحف الذي خلف في المدينة فانه فقد في
 الحروب التي اثارها يزيد بن معاوية على اهل الحرمين

ولما انفصلت عن تونس ركبت الجرتوا الى الاسكندرية وفي
 النفس ان ابلغها في خمسة عشر يوماً فلما توسطنا البحر غلبتنا الرياح
 العاصفة ونكصت بنا على الأعقاب مسيرة ايام بضعة ثم انه هداً نائر
 التوواطاب لنا الريح فسرنا بمعونة الله الى ان عاينا منار هذا الشجر
 المخروس والقطر المأموس لليال خلون من شوال فلما طلع النهار
 انتصب أمامنا في عظمه^(٦) وهول مرآه^(٧) حتى كأنه عمود يلقى القبة
 الزرقاء ويصل بين الارض والسماء

رسا أصله تحت الثرى وسمايه الى الجوّ فرع لا ينال طويل

(١) ابو الفداء ١ * ١٦٦ (٢) الفخري وابن جبير ١٩٥ (٣) ابو الفداء

١ * ١٧٦ وابن جبير ١٠٢ (٤) الكندي (٥) ابو الفداء ١ * ١٧٦

(٦) ابن بطوطة ١ * ٢٩ (٧) ابن جبير ٢٧ وعبد اللطيف ٦٤

فهو من سمو الارتفاع بحيث يهندي به أصحاب السفن^(١) عن بُعد سبعين ميلاً^(٢). وربما قدر الناس في ارتفاعه نحواً من مئة وخمسين باعاً وهم يقولون ان بانيه الاسكندر الرومي او ملك من خلفائه يقال له بظلموس^(٣) قاسى مع رومة حروباً صعباً في البر والبحر فبناه لارتفاعهم والاستعداد لمراكبهم قبل وصولها ومحدثون عن الوليد بن عبد الملك الاموي^(٤) انه سؤل له جهالة قومه ان يهدمه^(٥) طمعاً بالوصول الى ما في جوفه من الكنوز فشرع في اسباب الهدم حتى قوَّض جانباً من الاثر^(٦) ثم تعاضت عليه النفقة وهو لا يجد ما يستعوض به عنها فكف عن عجزه لحقه ولوم قد استحقه

وكان مقامي في الاسكندرية عند عاملها الليث بن الفضل الابطوردي^(٧) ثلاثة ايام وكنت احبُّ معاً لقيت من انسه ان امدُّ بساط الاقامة فيها لولا اني خفت فوات الحج فانصرفت عنها في اليوم السابع من شوال وكنت قد استقرت كثيراً من اماكنها المشهورة ووقفت على ما اتسع لاهلها من طرق المعاش فرأيت ان اجل الكتاب بذكره ليبقى فخراً للمسين في استيلائهم على هذه المدينة التي ليس اعظم منها في ديار الروم

(١) نفوس البلدان ١٠٥ (٢) ابن جبير ٢٧ (٣) المقرئ ١ * ١٥٧

(٤) نفوس ١٠٥ (٥) الابشهي ٢ * ١٧٨ (٦) المحاضرة ١ * ٤٢

(٧) ابو الحسن ١ * ٥٢٢

في ذكر الاسكندرية

فان الاسكندرية مدينة متجزة من اعظم مدائن الدنيا وأقدمها
 وضعا^(١) وأحفلها نبيا^(٢) واليها المنتهى في المنعة والحصانة اذ كانت
 مبنية على لسان من الارض والبحر يحدق بهما من جميع جهاتها. ولذلك
 يصعب منالها على العدو وان لم يكن وراءها وعرو ولا هضاب^(٣)
 بتعزز بها جانبها من البر. ولقد كانت في قديم الزمان خاملة
 الذكر يقال لها رقودة^(٤) فلما تبوأها الاسكندر الرومي^(٥) وصارت
 كرسي الملك بعده فتمجلت بجلال الحضارة وتحلت في حلال النضارة
 واتصلت عمارتها تحت الارض^(٦) أزاجا يجتمع فيها ماء النيل كاتصالها
 فوق الارض وأقيمت اسواقها في نهاية من الابداع^(٧) وشوارعها في
 غاية من الاستقامة والاتساع بحيث ان الغريب يسير فيها نهاره
 أجمع فلا يضل^(٨)

ولقد لقيت في كثير من اماكنها وممراتها^(٩) عمدا والواحا من رخام^(١٠)
 تحمل العامة على الظن بانها هي ارم ذات العماد^(١١) التي لم يخلق مثلها
 في البلاد^(١٢). واعظم ما شاهدت منها العمود المعروف بعمود

(١) المقرئزي (٢) المقدمة ٢٠٥ (٣) المقرئزي ١ * ١٤٧ (٤) الفزوي

٩٦ والفرماني ٥ * ١٢٨ وتقويم ١١٢ (٥) ابن جبير والمقرئزي ١ * ١٥٠

(٦) ابن جبير ٢٦ (٧) تقويم البلدان ١١٢ (٨) ابن جبير ٢٧ (٩) المسعودي

والمقرئزي ١ * ١٤٤ (١٠) ياقوت (١١) المسعودي والمقرئزي ١ * ١٦٢

السواري^(١) وهو مائل في العنان الى طرف المدينة تحف به غابة من
النخيل^(٢). وصفته انه حجر صلد من الصوان الاحمر^(٣) يتدنى من
قاعدة غليظة وينتهي الى تاج يكلمه بالرسوم والناس يقولون انه
كان في اعلاه قصر معلق في الجوّ لاهل العالم^(٤) والرئاسة وان
كانت فيه خزائن كتب أحرقها عمرو بن العاص باشارة عمر بن
الخطاب اذ كتب اليه^(٥) الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق
كتاب الله ففي كتاب الله عنه شيء وان كان فيها ما يخالفه فلا
حاجة اليه فتقدم باعدامها^(٦). ولكن هذا قول يحتاج الى التدقيق
والنظر لاني انزه عمر عن مثل هذا المنكر. وظني بهذا العمود انه
نصبه الروم معارضة للعدنان التي نصبها الفراعنة أمثال المسلات
وطعاً بتخليد آثارهم في مصر الى انقضاء الدهر

وقد رأيت اهل الاسكندرية اصحاء الذوق لطاف الطباع
والخلق لقرب مدينتهم من البحر وظهور الصبا عندهم واعندال الحر
والبرد في اقليمهم^(٧) على ان اكثرهم مازيل الاجسام وهان البنية^(٨)
ووجدت لهم تصرفاً واسعاً بالتجارة^(٩) لان المال متوفر في ايديهم
والخيرات تأتيهم من جميع البلاد فيتصرفون في الليل بالبيع والشراء

(١) الفزوي ٩٧ وتقوم ١١٢ (٢) ابن بطوطة ١ * ٢٠ (٣) عبد اللطيف ٦٢

(٤) المقرئ ١ * ١٥٩ (٥) ابو الفداء وابوالفرج ١٨١ والمقرئ ١ * ١٥٩

(٦) ابن العبد (٧) الخطاط ١ * ٤٢ (٨) المقرئ ١ * ٤٤ (٩) المحاضرة

كنصرفهم به في النهار^(١) . وسعت^(٢) انهم بلغوا من سعة العيش الى
ان بنوا في مدينتهم الف حَام واربعمئة ملهى^(٣) واثنى عشر الف دكان^(٤)
وهذا شيء من الكثرة لم يسمع بمثله في البلدان

اما المسلمون في الاسكندرية فهم على ما رأينا من القول بخلافة
اهل البيت وشرائعهم على مذهب مالك^(٥) الا انهم يجاهرون بالسهلة
في صلواتهم ويتدثرون^(٦) بها عوض الخطبة^(٧) كآني بهم قد اخذوها
عن اهل الشام اذ كان الاتصال فيما بينهم مستمرا على غير انقطاع .
واما اهل الذمة فانهم يزيدون عن اربعمئة الف^(٨) بين نصارى ويهود
يؤدون جزيتهم الى الرشيد دينارا واحدا مؤمنا^(٩) بعد ان ضربها
ابن العاص عليهم دينارين واستمرت على ذلك في عهود الخلفاء^(١٠) .
وهم في الاسكندرية وسائر الديار المصرية ملل كثيرة من النصرانية
الا ان معظم سوادهم^(١١) روم يرجعون في امورهم الى فطريكم
بالقسطنطينية وقبط ينكرون على الباب خلافة المسيح ويرجعون
في ملتهم الى بطرك لهم يسمى^(١٢) مرقس كمرجع المشاركة الى بطركهم في
انطاكية^(١٣)

(١) ابن جبير ٢٩ (٢) ابو المحاسن والمقريزي والمخاضرة ١ * ٥٩ وانقرماني
٥ * ١٢٧ (٣) المقريزي (٤) المقريزي ٢ * ٣٢٤ (٥) ابن خردادبة
١٢١ والمخاضرة ١ * ٥٩ والمقريزي ١ * ١٦٢ (٦) ذكر الاغانى انه سمي
بالمأمون نسبة الى ميمون بن عامر ١٧ * ٧٢ (٧) السيوطي وابن الاثير
(٨) المخطوط ٢ * ٤٩٢ (٩) المقريزي ٢ * ٤٩٣ (١٠) المسعودي ١ * ٢٧١

وهؤلاء القبط هم اهل مصر الاولون وفي ايديهم الكنائس المعظمة التي ليس مثلها عند الروم اذ كانوا السابقين الى تشييدها والحافظين لها من تطامعهم تحت ظل الاسلام واعظمها بيعتان احدها كنيسة مرقص^(١) وهي بجوار الدار التي بناها الزبير بن العوام^(٢) فيها رسوم عجيبة وصور تمثل الحواريين والاولياء الذين ظهرت عليهم الكرامات في ملتهم والثانية كنيسة يوحنا المعدان^(٣) قد موه سقفا بالذهب وصورت فيه ملائكة الله مخوفة بالسحاب . وفي جوارها دور كثيرة لم قد رفعت على طباق ثلاث^(٤) وارتفعت على دور المسلمين مع ان المطاولة عليهم في البناء^(٥) محظورة على اهل الذمة^(٦) . وهذا امر يتغاضى عنه الولاة كما يتغاضون عن مجاهرتهم في ملتهم باشياء ان تبد منهم في العراق او الحرمين تجلب عليهم الحين في اقل من طرفه عين وذلك مثل مجاهرتهم بالانجيل^(٧) واخراج آنتهم الى الاسواق وحمل صلبانهم على رؤوس الرماح وغير ذلك^(٨) مما لا يتقمه عليهم المسلمون^(٩) فكأنما يتساحون في امرهم تجنبا من اثاره السواكن او تطامعا في استمرار الخلاطة التي وقعت بينهم واشبهت ان تكون الفة الى الصفاء بل مودة الى الخلة والاخاء وقد وقع لهم وانا في الاسكندرية موسم عظيم يسمونه عيد الميلاد ويتخذونه في اليوم الذي ولد فيه عيسى

(١) المقرئزي ٢ * ٤٩٢ (٢) المقدمة ١٧٨ (٣) الخطط ٢ * ٥١٩

(٤) الفرمانى والمقرئزي ١ * ١٦٢ (٥) المنطرف ١ * ١٢٨ (٦) ابن عابدين

(٧) المقرئزي (٨) ابن جبير ٢ . ٩ (٩) الخطط ٢ * ٤٩٤

عليه السلام وهو اليوم التاسع والعشرون من كيهك^(١) وعادتهم في نزول هذا الموسم بهم من كل سنة ان يجيوا ليلهم كنه بالسرور ويخرجوا آنتهم الى الاسواق وينوروا كنائسهم بالشموع المليحة الاصباغ. فكنت ارى كثيراً من المسلمين يتعاونون لاولادهم من هذه الشموع المسماة بالفوانيس ويجرقونها في أزقة المدينة^(٢) كانتهم يشاركون النصارى بافراحهم ويظهرون الانس بهم الى انقضاء الليل الآخر ووجدت القوم من الروم والتبسط وسائر الملل النصرانية يتأقنون بصنوف الملابس من الخز والديباچ والوشي الذي يصنعون في مدينتهم ويضرب المثل بحسنه في البلاد^(٣) ونوع من الكتان يتنافسون في لباسه الى ان يبيعوا الدرهم من الخيط ثوباً بدرهم فضة^(٤) فكنت احب ان يجمل ظهور النعمة في لباس المسلمين^(٥) مثل ظهورها في اهل الذمة وقد طالما حدث الرواة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه اتخذ جبة مكفوفة بالحريز^(٦) ولبس ثياباً باربعة آلاف درهم وصلى بها^(٧) وكذلك حدثوا عن عائشة انها خلعت على عبد الله بن الزبير ثوباً من الخز^(٨) وعن جماعة من العلماء والفقهاء انهم لبسوا الثياب المهديّة^(٩). فلا أرى موضعاً بعد هذا لان يكون لبس الحمل

(١) المسعودي ١ * ٢٧٢ والمفرزي ١ * ٤٩٤ (٢) المفرزي (٣) اغاني

٧٦ * ٥ (٤) المفرزي ١ * ١٦٣ (٥) تزيين الاسواق ٢ * ١٥١

(٦) مجمع الانهر ٧٩٤ (٧) مجمع الانهر ٧٩٤ (٨) الزرقاني ٤ * ١٠٤

(٩) البخاري

الفاخرة^(١) محظوراً في الشرع كما اني لا أرى استخدام الذهب حين الحاجة اليه مخالفاً للنصوص الشريفة ان لم يقصد منه المباهاة والاسراف مثل شد الاسنان به من الكبر^(٢) وغير ذلك مما يقول بتجويزه العلماء^(٣)



الديار المصرية والنيل

توسّع لي الكلام الى ما خرجتُ به عن اقتصاص الرحلة ولكني أعود الى ذكر الامور التي شاهدتها في ديار مصر فاني ركبتُ من الاسكندرية اربد الفسطاط ثم اسوان ثم عذاب الى طرف الصحراء من ساحل البحر. فمررت بدمنهور وصابرمة وطمندة وقلوب^(٤) في أسرع مدة من الزمان اذ ليس في مصر جبلٌ ولا مسلكٌ وعَرٌّ يعترض الركبان. وكانت العمارة متصلة في طريقنا الى الفسطاط ومن حولها اخضرارٌ في السهل يمتدُّ مع البصر الى ان ينقطع. فاخبرني من كان يصحبني من لدن الليث ان البلاد تتنوع مثل هذا المنظر أربعاً في كل سنة^(٥) فتكون ثلاثة شهورٍ لؤلؤةً بيضاءً اولها شهر ابيب^(٦) المعروف بتموز عند المشاركة يركبها النيل الى ان تصير

(١) ابن عابدين ٥ * ٢٤٤ (٢) ابن خلكان ١ * ١٤٧ والعقد الفريد

٢ * ٢٦٢ (٣) مجمع الانهر ٧٩٦ (٤) ابن جبير ٤٠ (٥) المقرئزي

والمحاضرة (٦) المنوفي

ضياعتها في بحر من الماء ولا سبيل إليها إلا على الزوارق^(١) وثلاثة
شهور مسكة سوداء أولها شهر يابه وهو المعروف بتشرين أو
اقتوبر ينكشف الماء عن الأرض ويترك عليها طيناً علكاً اسود
فيه دسومة صالحة للزراعة يقال له الابليز^(٢) وثلاثة شهور زمردة
خضراء أولها شهر طوبة الذي يمر بنا اليوم بنجم الزرع ويظهر ربيع
الأرض حتى لا يبين الثرى من خلاله ثم ثلاثة شهور سبيكة حمراء
تبتدئ من برمودة المعروف بابريلس عند الروم^(٣) فيتورد الزرع
ببلوغ الحصاد ويكون كالسبيكة الذهب في المنظر والمعاد
وانما يجلب الخيرات الى مصر ويخرج الزرع اليانع من أرضها
الجزر ما يجمل إليها النيل من الطين والدسومات ويفيض عليها
من الماء في أيام من السنة معلومات فكانما تستعويض بالمنفعة منه عن
الثناء الذي يجسه الله عنها رفقا بمصالحها ان تخلل ومساكنها
الطين ان تبتل^(٤) وقد قال سبحانه وتعالى بالاشارة عنه^(٥) في محكم
كتابه أولم يروا انا نسوق الماء الى الأرض الجزر فنخرج زرعاً تأكل
منه انعاصمهم وانفسهم أفلا يبصرون فجعله الله عز وجل من المغورة
والاستجار^(٦) بحيث انه يكفي البلاد كلها من غير ان يكون فيها نهر
ولا عين ولا مسيل ماء غيره^(٧) . والناس يجمعون محاسنه في ثلاثة^(٨)

(١) المفريزي (٢) عبد اللطيف ٢ (٣) المسعودي ١ * ٢٧٢ (٤) المنوفي

وعبد اللطيف (٥) المنوفي (٦) المسعودي وابن جبير (٧) عبد اللطيف

(٨) المفريزي ١ * ٦١ وتقوم البلدان ٤٥

الاول غمورته الى ان يكون بجرأ^(١) تسير فيه السفن والثاني بعد منجره
الى ما وراء الخط من جبال القمر^(٢) والثالث طيب مسلكه على رمال
تروقه وتأخذ المنزوجات الغربية منه . فرما اني وجدت له خلة
من الخير والبركة افضل من هذه المحاسن بانه يزرع عليه ما لا
يزرع على نهر غيره في العالم^(٣) فكأني ما تجتمع فيه محاسن الغمورة
وبعد المنخب وطيب المسلك من الانهر ثم لا تحصل المنفعة منه مثل
ما يحصل لاهل مصر من بركة نيلهم

وشأن هذا النهر المبارك في الفيضان انه يتدنى بالزيادة في
شهر أبيب^(٤) (والتببط يقولون اذا دخل ابيب كان للماء ديبب) ثم
ينغلظ في مسري وهو شهر آب ويزيد بعد ذلك زيادة عظيمة الى
ان يقف حدها في منتصف توت وهو شهر أيلول ثم لا يلبث من
بعد حتى يراجع بالانحسار وقد كفى الناس سقاية زرعهم بمدوده^(٥)
كان النيل ذو فهم ولب . لما يبدو لعين الناس منه
فيأتي حين حاجتهم اليه ويمضي حين يستغنون عنه^(٦)
وإجماع الرأي في هذا الفيضان على ان منشاء السحب الماطرة^(٧) الى
ما وراء خط الاستواء^(٨) والمقبط فيه اقوال كثيرة لا موضع لها في هذا

(١) ابن بطوطة ١ * ٧٧ (٢) المقدمة والمحاضرة والمنوفي والمفرزي وابن

خردادبة (٢) ابن بطوطة ١ * ٧٧ (٤) عبد اللطيف ١٠٩ (٥) المنوفي

(٦) المفرزي ١ * ٦٣ وإصحافي ١٢٢ (٧) تقويم البلدان ٤٥ (٨) عبد

اللطيف وتقوم ٦٤

الكتاب^(١) وهم يزعمون أنهم يعرفون قدر فيضه (قبل حدوثه) من هبوب الريح في أول يوم من بونة وهو شهر حزيران عند المشاركة. وقرأتُ في بعض الكتب أن هذا النهر هو نهر العسل في الجنة^(٢) وأن حائداً اليهودي الذي تاه في الأرض دهرًا لم يستقرَّ فيه بموضع وصل إلى الجنة ما وراء السودان^(٣) فوجد أرضاً ذهباً وترعاً ذهباً ونلاعاً ذهباً^(٤) ورأى النيل ينساب فيها من طيقان قد ارتفعت مثل قوس السحاب. فهذا تصوُّر لطيفٌ كنتُ أقرأ مثله في دواوين الشعراء فأحببتُ أن أذكره لك حتى إذا كنتَ بعيداً عن أن تتعجب منه من حيث الحقيقة فلا أقلَّ من كونك تُعجبُ به من حيث المجاز

ولما وصلتُ إلى الفسطاط نزلتُ على قاضيها عبد الرحمن بن عبد الله من ولد عمر بن الخطاب^(٥) رضي الله عنه فلما أصبحتُ وكان يوم الجمعة أجمعتُ في جامع عمرو بن العاص^(٦) وهو من المساجد المشهورة في الإسلام حسناً وغرابةً صنع وجدتُ على حائطه القرآن الكريم مكتوباً بالسواد على ألواحٍ من الرخام الأبيض فيتراها الإنسان وهو قاعد^(٧) ثم زرتُ مشهد رأس الحسين^(٨) رضي الله عنه ومشهد زينب^(٩) بنت يحيى بن زيد بن الحسين "رضيم" إلى مشاهد كثير من

(١) راجع المفريزي في الكتاب الأول ٥١ و ٥٧ (٢) المحاضرة والزرقاتي

١ * ٢٥٧ والمفريزي ١ * ٥١ (٣) اسحق ٢٦١ (٤) المنوفي (٥) المحاضرة

٢ * ٨٩ (٦) المفريزي ٢ * ٢٤٦ ونقوم البلدان ١١٩ (٧) الفزوي

١٥٧ (٨) ابن جبير ٤٧ (٩) المفريزي وابن جبير ٤٢

اهل البيت واصحابه والشريفات العلويات. ولما مالت الشمس
ركبتُ الى موضع من غربي المدينة يقال له الجزيرة وهو مجتمع للمين
والنزهة لاحاطة الماء به وهناك المقياس الذي يعتبر فيه قدر زيادة
النيل^(١) بناءً سليمان بن عبد الملك في آخر المئة للهجرة وهو عمود
رخام ابيض مفصل على اثنين وعشرين ذراعاً من الاذرع القديمة
التي كان يتعامل بها من قبل ان وضع الرشيد الذراع السوداء التي
تزيد عنها باصبع وثلاثي اصبع^(٢). وهو مبني في موضع ينحصر الماء
فيه فاذا انتهى الفيض الى ان يستوفي ثمان عشرة ذراعاً منغمرة فيه
فهي الغاية في طيب العام^(٣)

وقد اخبرني عبد الرحمن هذا القاضي النبيل ان ما يركبه النيل
بمصر يبلغ مئة الف الف فدان^(٤) والفدان عندهم اربعة مئة قصبة
والقصبة عشرة اذرع (وهو القدر الذي وجدته هشام بن عبد الملك
عند ما مسح البلاد^(٥)) وكلها ذات خيرات كثيرة وغلات وفيرة
تحمل على الظن بان اهلها في رغدٍ من العيش فاخبرني عبد الرحمن
ان الامر على خلاف ذلك وانما غلب على عامتهم من اهل الزراعة
الخمول^(٦) وتولاهم الشقاء وما انفقوا المال الذي اعطاهم الله في
مطالب السعة بل دفنوه تحت اطباق الارض وتظاهروا الى

(١) ابن جبير ٥١ (٢) ابن خردادبة ٦١ او الماوردي والمسعودي ٤٠

والخطط ١* ٥٩ (٣) ابن بطوطة ١* ٧٨ (٤) المقرئبي ١* ٨٠ (٥) المحاضرة

٢* ١٩١ (٦) الخطط ١* ٤٥

ملوكهم بالفقر والمسكنة رجاءً ان يرفقوا بهم في الجبايات فكأنَّ تحلهم
 هذا اوجب للنضيق عليهم بما قد تسامع من كثرة الدفائن في ديارهم
 وكان ملوكهم أقدر ممن سواهم (من الملوك) على تناول المال منهم
 بالرفق - أحياناً وبالشدَّة^(١)



في وصف الأهرام

وفي غد اليوم الذي وصلتُ فيه إلى الفسطاط ركبْتُ إلى أهرام
 الجيزة وهي ثلاثة كبيرة موضوعة على خط مستقيم^(٢) إلى غرب النيل
 من أهول ما بناه المتقدمون^(٣) وأجله خطراً وإبقاه على الأيام أثراً
 فالعهد بجميع الأشياء يخشى عليها من طوارق المحدثان الآهذه
 الأهرام صبرت على مرِّ الأيام حتى راح يخشى منها على الزمان^(٤) اثنان
 منها عظيمان وواحدٌ دونهما في العظم... وهذان الكبيران متناهيا
 السمو يخيل للرأي اليهما انها نهذان قد نهذا في صدر الديار المصرية
 وهما مبنيان بحجارة بيضٍ صلبة^(٥) قد اقتلعت من مغائر تحت
 الأرض بعيدة يدخلها الفارس برمحه فيرتاح فيها . ولقد تقدمتُ
 إلى بعض من كان يصحبني من لدن السلطان ان يطلق سهماً إلى
 أعلى الهرمين فرمى به عن قوس غليظةٍ وساعدٍ قويٍّ فسقط السهم

(١) المقرئزي ١ * ٨٠ (٢) عبد اللطيف ٥١ (٣) الشربشي ٢ * ١٠١

(٤) المقرئزي (٥) عبد اللطيف

دون ثلثي المسافة^(١) . وصفه الهرم انه بناء مخروط مصلح مثلث
الزوايا مربعها^(٢) يتدنى من قاعدة عريضة ويضيق ما مثل في
العنان^(٣) حتى ينتهي الى سطح صغير يكون مبرك بعبرين في الهرم
الصغير ومبرك ثمانية في الهرمين الكبيرين وهذا نمط في البناء يوثقه
متانة تصبر على مرّ الليال^(٤)

اما السبب الذي دعا الفراعنة الى نصب هذه الاهرام فلم يزل
مستتراً تحت ظل الابهام فمن قائل انها بنيت مستودعاً للعلم^(٥) ومن
قائل انها اتخذت لحجز الرمال الثائرة من التفرع على الفسطاط ومن
قائل انها بنيت لدفن الكنوز^(٦) واخذكار الحبوب لا يام يوسف^(٧)
عليه السلام الا ان ما يذهبون اليه من امثال هذه الآراء بعيد عما لدينا
من القياس الظاهر للاشياء فان العلم لا تحفظه الحجارة ان لم يستودع
في صدور الرجال والرمل لا يحجزه سد غير متصل العمارة (وبين الهرم
والآخر فرجة واسعة المجال) والمحّب لم يحنكره فرعون الى دهر
لا انقضاء له وفي موضع لا يقدر منه ان يناوله فما الظن في وضع هذه
الاهرام الا لحدوداً^(٨) للفراعنة الذين كانوا يقولون بالرجعة الى هذه
الدار ويعنون بتحصين مدافنهم عن ان تمسث بها يد الادهار بما كانوا
يطمعون من حفظ حلبيهم واموالهم الى يوم النشركا كان يصنع في

(١) تقوم البادان ١٠٨ وعبد اللطيف (٢) عبد اللطيف ٥٢ (٣) ابن

بطوطة ١ * ٨١ (٤) المخطوط (٥) ابن بطوطة ١ * ٨٢ (٦) المقرئبي

٢ * ١٢٢ (٧) المحاضرة ١ * ٣٤ (٨) المقرئبي وتقوم ١٠٨

جاهليتهم أهل مصر^(١) بان يجعلوا مع الاموات ما لهم وجميع ما لهم
ليجدوه بين ايديهم يوم رجعتهم الى هذه الدار^(٢) كما كانوا يزعمون
وقرأتُ في بعض الكتب ان باني الهرم الكبير من الفراعة
ملك يقال له سوريد^(٣) وجه زواياه الى بعض الابراج السماوية
وزبر عليه انا سوريد الملك اكلتُ بناء الهرم في ست سنين فمن
جاء بعدي وزعم ان له ملكاً مثلي فليهدمه في ستين سنة (وقيل ستمئة
سنة^(٤)) واهدم ايسر من البنيان وقد كسوته بالديباج الصرف
فليكسه هو بالحصر والحصر اهن من الديباج^(٥) اه. فاما توجيه
زواياه الى بعض الكواكب كما يرتأون فهو افتراض ليس بما يعلم من
عبادة المتقدمين للنجوم وتعظيمهم لها موضع الرد عليه واما الكتابة
التي يعزونها الى سوريد فاني لم اجد لها اثرًا على الهرم الكبير ولا
الصغير ولا أعلم ان كانت مرسومة فيه انه يقرأها احد من الناس^(٦)
وحتى لو انه حصل هذا المفاد من قراءتها لما صح ان تكون كسوته
بالحصر معجزة لعظماء الملوك وسعته من الركن الى الركن ثلاثمئة
وست وستون خطوة^(٧). وانما المعجزة في هذه الآثار هو احكام
بنائها^(٨) على هذا الاستواء دون ان يتخلل الحجارة شيء تلتصق به من
الكلس ولا غيره من المواد^(٩). حتى لو ان نجاراً اتخذ صندوقاً من

(١) عبد اللطيف (٢) المحاضرة ١ * ٢٧ (٣) جواهر الجور (٤) ابن

بطوطة ١ * ١٢ (٥) المحاضرة ١ * ٢٤ والمفرزي (٦) ابن جبر

(٧) ابن جبر ٥٠ (٨) عبد اللطيف ٥٣ (٩) المفرزي

الخشب لما أحكم عماله^(١) ووصل قطعه مثل وصل هذه الحجارة
 الضخمة بالتصاق لا تدخل فيه الأبرة وإن صغرت
 وإذا وقف الزائر إلى هذه الأهرام امتلأت عينه من الروعة
 والهول ووقع في نفسه أن الفراعنة الذين نصبوها كانوا ضخام السلطة
 عظام الصول ولم يتعد إلى ما وراء ذلك من تأمل العقلاء الذين
 أحسب أن الأثر الذي يوسع العقول تأملاً وإعجاباً أحب إليهم من
 العظم الذي يملئ العيون روعاً وإرهاقاً. فانما تمثلت الذين رفعوها
 من الفراعنة جبابرة قد ظلموا الرعية فيما آتاهم الله من الملك
 واستهلكوا العباد في مشاق لا فائدة منها ولا طائل تحتها إلا أن
 تنطق بظلمهم على ممر الأزمان أو اني تمثلتهم في نفسي ملوكاً قد كثر
 المال بين أيديهم فما انفقوه في البر والاحسان ولا انتفعوا به من بلوغ
 أغراض العمران بل رفعوا به جبالاً من الحجارة الصوان. وليس في
 أحد الوجهين منصرف لهم عن لومهم أو لوم عليهم فإن انفقوا
 المال في غير سبيله فقد أسرفوا بالملك وإن قبضوا الأجور عن العملة
 بعد أن انتهكوا أبدانهم بالعنت الشديد فقد ضلوا سواء السبيل
 وباعوا رعاياهم بأبخس الأثمان

ورأيت على مقربة من الهرم الكبير صورة عجيبة من الحجر قد
 قامت كالصومعة^(٢) ومثلت رأساً آدمياً وعنقاً بارزة من الأرض

في غاية العظم يسميها الناس بأبي الأهوال^(١) وهي تشهد لصناع ذلك الوقت باجادتهم في فنون الرسم وصحة التمثيل لانهم اتخذوا صورة الوجه متناسبة الاعضاء على كبره وجعلوا عليه خمرة لا يزال دهانها محفوظاً مع الحجر^(٢). وكان الزمان يُعيره رونقاً وجدةً فيظهر للناظر اليه انه ذو مسحة وجمال وان شفقيه تفتحان للابتسام. وأخبرني عنه حاجب اللبث ان كانت له لحية تكسرت على تمادي الايام^(٣) وان جنته مدفونة تحت الارض ويقضي القياس بالنسبة الى رأسه ان يكون طولها سبعين^(٤) ذراعاً الى غير ذلك مما حدثني به عن هذا الصنم وعن غيره من آثار فرعون فيقول وهو أعرف الناس بالبلاد ان بمصر ثمانين كورة وفي كل كورة مدينة عظيمة وفي كل مدينة آثار حسان^(٥) ورسوم مثلان



الى عيذاب فجدّة فالبلاد المحرام

كان انفصالنا عن الفسطاط في بكرة يوم قارس برده وكانت العمارة متصلة في طريقنا على شواطئ النيل فاجتزنا ببلد يعرف بمنية الخصيب وفيه الاسواق والمرافق والحمامات^(٦) ثم اجتزنا ببلدة يقال لها انصنا وهي تبعد عنه مرحلة^(٧) قوية فيها شجر اللبخ^(٨)

(١) ابن جبير ٥٠ (٢) عبد اللطيف ٥٩ (٣) الخطط (٤) عبد اللطيف ٥٩

(٥) المقرئ (٦) ابن جبير ٥٤ (٧) توأم البلدان ١١٥ (٨) المقرئ ١ # ٤ ٢٠

الذي تصنع منه السفن وكثير من العمدان والصخور المحلاة بالنقوش
وفي بعض الكتب انها كانت مسكناً لسحرة فرعون. ثم اجتزنا مجازة
حائط عتيق البنيان^(١) يقال له حائط العجوز^(٢) وهو يمتد من
الفسطاط الى جهات اسوان يزعم المحدثون من اهل الاخبار انه
بنته ملكة يقال لها دلوكة^(٣) وقاية لابنها من الوحش ان يهاجمه في
مزاولة القنص^(٤) مع ان الاقرب الى العقل من ذلك ان يكون
بناؤه خوفاً من الأدميين وغزواتهم وليس من الوحوش التي يصح
ان تكون في هذا الجانب منه كما تكون في الجانب الآخر. ثم مررنا
بمنفلوط من برّ الغرب^(٥) وفيها قمع مشهور برزانه حبه ثم باسيوط
وهي من النيل على ثلاثة اميال فيها الافيون المصري الذي يجمل
الى سائر البلاد^(٦) وهو عصارة ورق الخشخاش الاسود الذي ينبت
فيها^(٧) وفي جوارها. ثم ركبنا مرحلتين الى اخميم^(٨) وهو بلد مشهور فيه
البرّقي العظيمة التي صورت فيها الافلاك والكواكب حين كان
النسر الطائر في برج العقرب^(٩) وهي مرفوعة من صخور منحوتة وفيها
اربعون سارية منقوشة بالرسوم والنقوش^(١٠) وعليها سقف من الحجر
مغشى بالاشكال الغربية حتى ايس فيه مغر زابرة^(١١) وفيه رسم او

(١) ابن جبير ٥٥ (٢) المسعودي ١ * ١٧٢ والمستطرف ٢ * ١٧٧

(٣) المترزي ١ * ٢٨ و ١٩٩ (٤) المسعودي ١ * ١٧٢ (٥) تقويم ١١٢

و ابن جبير ٥٧ (٦) الفزوي ٩٩ (٧) تقويم البلدان ١١٥ (٨) ابن جبير

(٩) ابن بطوطة ١ * ١٠٤ (١٠) الفزوي ٩٤ (١١) ابن جبير

نقش او رمزاً بالخط المسند لا يعلم ما هو فسبحان من اباد امة افتدرت
 على عظام الامور لا اله الا هو رب العرش العظيم
 ثم نادى بنا السير من هذا البلد الى دندرة وهي مدينة عتيقة
 يقال انها من بناء قفطريم^(١) بن مصرام بن حام بن نوح عليه السلام
 وفيها برابي عظيمة من آثار الفراعنة يحف بها نخيل كثير^(٢) ثم ركبتنا
 منها الى قوص من بر الشرق وهي من اعظم مدائن^(٣) مصر^(٤) فيها
 قبائل من عربان عدن وغيرهم^(٥) وليس بمصر ارض يسكنها العربان
 الا قوص واسوان وجهات بلبيس^(٦) وربما كانوا في اسوان اكثر
 منهم في بادية قوص اذ كان يمازجهم فيها قبائل من قريش وقحطان
 ونزار بن معد من ربيعة ومضر^(٧) (وليس هذا اول عهد العربان
 بمصر فقد تنبى الاخبار السالفة انهم غزوها في عهد الفراعنة
 الاولين واستقروا بها زمناً فيما لا كفا له من سعة العيش ونفاذ
 السلطان) وقوص هذه المدينة هي فرضة^(٨) التجار اليمنيين والمصريين
 والحبشيين وفيها جبال وحجارة بحري فيها النيل من غير ان يكون
 سبيل لجران السفن^(٩) عليه (وهي المعروفة بالجنادل والصخور)
 فننقل بضاعات المسلمين الى مراكب الحبشة وتنقل بضاعات الحبشة
 الى مراكب المسلمين فوقع فيها العمران من هذا القبيل باجتماع

(١) المقرئزي ١ * ٢٢٢ (٢) ابن جبير ٦١ (٣) المقرئزي ١ * ٢٢٦

(٤) ابن بطوطة ١ * ١٠٦ (٥) نفوس البلدان ١١١ (٦) المقرئزي ١ * ٨٠

(٧) المسعودي ١ * ١٩١ (٨) نفوس البلدان ١١١ (٩) المسعودي ١ * ٤٧

التجار فيها وتوارد الحجاج اليها في ذهابهم وايابهم^(١) على مراكب النيل
ولما انفصلنا عن قوص ابتدأت صحراء عيذاب بالامتداد وهي
قفرة نفرة لا عمارة فيها البتة فكنا نبيت بها حيث جن الليل علينا^(٢)
ثم نفوز الى ورود الماء على امار أو مناهل نكاد ان لانبقي فيها جرعة
ماء بعد سقاية دوابنا وكنت اذا اصابنا رقدة من حر اجلس في
هودج على ظهور الجمال وارخي عليه الاستار محرگا للهوا فيهبون علي
احتمال عنها الشديد. الا ان صحبي من لدن السلطان كان يجهد
العطش^(٣) دوابهم في الايام الآتية لان السموم كانت تنشف المياه
في الاسقية فكانوا يخالون لذلك بان يستحبوا ابعرة فارغة من
الاحمال ويعطشوها قبل الورود ثم يوردوها على الماء نهلا وعللا
حتى تمتلئ اجوافها ثم يشدوا افواهها كيلا تجترق تبقئ فيها الرطوبة
فاذا نشفت الاسقية نحروا بضعة من هذه الجمال وسقوا خيلنا بما في
بطونها^(٤). هذا شيء من المشقة لم ينزل بنا اشد منه في جميع ما طرفناه
من البلاد ولم نزل في مكابدة عنائه الشديد حتى سهل الله وصولنا
بالسلامة الى عيذاب والحمد لله على جميل ما اولاه حمدا يبلغ رضاه
وبستفيض النعمة من اياه

هذه المدينة هي آخر بلاد مصر^(٥) وعاملها مفوض من لدن الليث

(١) ابن جبير ٦١ (٢) ابن جبير ٦٢ (٣) المفريزي ١ * ٢٠٢ (٤) الفزوي

١٢ (٥) ابن جبير وابن بطوطة ١ * ١٠٩

وهي موسعة باسباب الكسب من الحجاج إلا أن مبانيها أشبه بيوت
القرى منها بيوت المدن^(١) وكل ما فيها مجلوب إليها حتى الماء^(٢).
وليس لاهلها حرفة للتعيش إلاّ تعمير السفن التي يسمونها بالجلبات
واحدها جلبة وهي مملّقة الانشاء (لا يستعملون فيها المسامير^(٣)) وإنما
يخيطون الاخشاب بالليف ويخلّلونها بدسر من عيدان النخل ثم
يطلونها بالشحوم والنورة^(٤) وآفة الحجاج البيت يفرق كثير منهم
بسببها في بحر فرعون ذي الاهوال الموصوفة^(٥)

ولما أخذت بها نصيباً من الاستراحة ركبت البحر ثلاثة ايام الى
جدة^(٦) من ساحل اليمن وهي قرية كبيرة تجتمع فيها مراكب الحجاج^(٧)
وبها آثار عدة تدلّ على قدم اخطاطها وتنطق بانها دخلت في
ولاية الفرس وفيها قبة مشيدة يقال ان موضعها كان منزلاً لحواء
عليها السلام ومسجد بناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجامع بناه
الرشيد منذ ثلاث سنين^(٨) وهو أحفل بناية في المدينة. فمكثت فيها
بقية النهار ثم ركبت عنها من تحت الليل الى القرين^(٩) وهو محط
رجال الحجاج (إسراعاً بموافاة الرشيد الى المدينة المنورة على ساكنها
افضل السلام وازكى النجبة اذ كتبت علمت بركوبه اليها من مكة في

(١) تقويم البلدان ١٢١ (٢) المنريزي ١ * ٢٠٢ (٣) ابن جبير ٦٨

(٤) المسعودي ١ * ٧٨ (٥) ابن جبير ٧١ والمنريزي ١ * ٢٠٢ (٦) تقويم

البلدان ١٢١ (٧) الادريسي والفزوني والمنريزي ١ * ٢٠٢ (٨) ابن جبير

٧٢ (٩) ابن بطوطة

صباح اليوم الذي وصلت فيه الى جدة) فبلغته في جوف الليل ثم
أسريت منه الى مكة المكرمة مهوى الافئدة الصالحة^(١) فقضيت
الواجب من مزار المشاعر المباركة وابتهلت الى الله تعالى في موضع
استجابة الدعاء^(٢) من البيت العتيق والمحمد له عز وجل على ان
شرّفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم



في ذكر المشاعر المباركة

اما مكة باركها الله فانها بطن واد^(٣) بين الجبال تسع من
الخلق ما لا يعلمه الا الله^(٤) لان الحجاج الوافدين عليها يزيدون عن
الف الف في كل موسم اذ كان الحج مفروضاً على المسلم ولو بالعمر
مرة^(٥) لقوله تعالى والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً^(٦)
فلوقدرنا في عدد الرجال اربعين الف الف وقدرنا العمر
اربعين سنة لاقتضى ان يكون نصيبها منهم الف الف في كل سنة
او يزيدون بمن يحج اكثر من مرة في زمانه. ويقال في اجتماع الناس
فيها من جميع الاطراف انه لوجع ما يباع ويشري فيها من السلع
والماكل والبضاعات في ثمانية ايام بعد الموسم لاقام الاسواق^(٧) في
العراق كله وعم كل واحد من اهله نصيبه من حاجته

(١) المنذمة (٢) ابن بطوطة ١ * ٢٠٠ (٣) ابن بطوطة ١ * ٢٠٢
وتقوم البلدان ٨٧ (٤) ابن جبير ١٠٨ (٥) ابن عابدين ٢ * ٢١٢
(٦) آل عمران (٧) ابن جبير ١١٩

ولها كرمها الله ثلاثة ابواب اولها باب المعالي^(١) وهو الى الشرق الشمالي ومنه يخرج الى الحجون وهو جبل بأعلى مكة له ذكر في الاشعار^(٢) وفيه صلب الحجاج بن يوسف جثة عبد الله بن الزبير لما غلبه على الخلافة. ثم باب المسفل وهو الى الجنوب ومنه دخل خالد بن الوليد يوم الفتح^(٣) ثم باب العمرة وهو الى الغرب على طريق الشام وأمامه جبال مكة قد مثلت بلا ارتفاع وكانها أهوت لتسجد لبیت الله أشهرها جبل حراء^(٤) وهو الذي اهترت تحت النبي صلى الله عليه وسلم ومعه ابو بكر وعمر بن الخطاب فقال له اثبت حراء فما عليك الا نبي وصديق وشهيد^(٥). وكان صلى الله عليه وسلم يخاف اليه ويتعبد بالخلوة فيه وعليه نزلت أول آية من القرآن الكريم^(٦) وهي آية اقرأ باسم ربك الذي خلق^(٧)

وكفى بهذه المدينة شرفاً^(٨) ان بناها آدم عليه السلام^(٩) وهبط اليها جبريل الملك الكريم ونزل فيها الوحي على النبيين وخصها الله من المشاهد المباركة والمواقع التي هي مقدس الطهارة ومظهر نور الملائكة بما ليس مثله في جميع العالم. فما تبركت بزواره من مواضعها الميمونة مشهد موالد النبي صلى الله عليه وسلم وقبة الوحي^(١٠) التي ابني

- (١) ابن بطوطة ١ # ٤ . ٢ (٢) ابن خلكان ١ # ٢٤٨ (٣) ابن بطوطة (٤) ابن جبير ١١٢ (٥) الازرقى وابن جبير (٦) المسعودي ١ # ٢٠٧ و ابو النداء ١ # ١١٧ (٧) الشربشي ١١٤ # ٢ (٨) المقدمة ٦ . ٢ (٩) الازرقى

ففيها صلى الله عليه وسلم بخديجة أم المؤمنين^(١) وكان فيها مولد الحسن والحسين رضي الله عنهما. والموضع الذي كان يقعد فيه صلى الله عليه وسلم تبركت به مسه وتقبيله. وزرت دار أبي بكر ودار جعفر بن علي بن أبي طالب ذي الجناحين^(٢) ودار الخيزران التي قدمت ذكرها في بعض الرسائل السالفة وهي على باب زقاق الخرازين وبمقربة من القصر المعروف بمنزل الأجر^(٣). وكنت أحب أن أזור المشاهد المباركة التي في الجبال واتبرك بالغار الذي آوى إليه النبي صلى الله عليه وسلم في جبل أبي ثور^(٤) كما ورد عنه الخبر في كتاب الله^(٥) ولكنه لم يتيسر لي ذلك لقصر الوقت فيما لم يتيسر لي مزاره من المواضع الميونة التي هي في نفس المدينة

وأما البيت المقدس فقد بناه إبراهيم الخليل^(٦) بقوله تعالى واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت. واخذ الناس في تعظيمه والحج إليه من الجاهلية والفرس والتبابعة وغيرهم من دنا ونأى. ثم صارت الولاية عليه بعد ولد اسمعيل إلى آل جرهم وكانت سدانة البيت ومفاتيحه معهم وإلى ذلك يشير^(٧) مضاض بن عمرو بن الحارث الجهمي بقوله

وكنا ولاية البيت من بعد ثابت

نظرف بذاك البيت والامر ظاهر

(١) ابن جبير (٢) ابن جبير ١١٤ (٣) الإغاني ٢ * ١١٦ (٤) الأانس

الجيل (٥) ابن جبير (٦) المقدمة ٦ * ٢ (٧) أبو النداء ١ * ١٢

وإغاني ١٢ * ١٠٨

الى ان يقولوا وهو البيت المشهور^(١)
 كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس^(٢) ولم يسمر^(٣) بمكة سامر^(٤)
 ثم صارت ولايته الى خزاعة^(٥) ثم الى قريش بعد هم وكانت صورة ابراهيم
 واسماعيل ماثلة^(٦) فيه لايامهم فأحسنوا ولايته وجددوا بناءه كما اشار
 زهير بقوله^(٧)

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوته رجال بنوه من قريش وجرحهم
 ثم صارت ولايته بعد الخلفاء الراشدين الى عبد الله بن الزبير فنزع
 عنه كسوته المسوح والانطاع وكساه بالدياج الملون . وكان بطيبة
 حتى يوجد ربح المسك من خارج الحرم^(٨) . فلما رماه يزيد بن معاوية
 بالمنجنيق بعث الى صنعاء في الفضة والكس فعملها ثم شرع في البناء على
 اساس ابراهيم^(٩) فما كاد يستكمل بناءه حتى وفد الحجاج لقتاله بعد يزيد
 وحاصره بالزحوف والترفي وأحرق مكة بالمنجنيق حتى تصدعت
 جدران الكعبة^(١٠) . فكتب اليه عبد الملك ان يعيد بناءها على قواعد
 قريش^(١١) كما كانت في ايام النبي صلى الله عليه وسلم^(١٢) فبناها على
 ذلك الرسم وهي باقية عليه الى هذا اليوم

وهذا البيت المكرم مبني بالحجارة الصم السمرة وفروش بالرخام
 المجرع وفيه عهد ضخمة من الساج وسقفه مغشي بالحزير الملون

(١) ابن جبير ١٠٩ (٢) المقدمة ٦٧ (٣) السعدي ١ * ٢٠٥

(٤) ابو الفداء ١ * ١٢٠ (٥) الاشمي ١ * ١٥ (٦) الازرق ١ * ابن

الاثير (٧) المقدمة ٢٠٧ (٨) ابو الفداء ١ * ٢٠٨

وهو قريب من الربع ونصفه الأعلى من انفضة المذهبة^(١) وله أربعة أركان أولها الركن الشرقي الذي فيه الحجر الأسود ومنه ابتداء الطواف ولا يُدري قدر ما دخل الحجر في الركن^(٢) وإنما سمته الظاهرة ثلثاً شبر وطوله واحد وهو الحجر الذي وضعه النبي بيده^(٣) صلى الله عليه وسلم على ما هو معروف عند الكل. ثم الركن العراقي وهو شمالي ثم الركن الشامي وهو غربي ثم الركن اليمني وهو جنوبي. وارتفاع هذه الأركان ثمان وعشرون ذراعاً إلا الركن الشرقي يزيد عنها ذراعاً^(٤) في الارتفاع لانصباب السطح إلى الميزاب^(٥). وطول الكعبة سبع وعشرون ذراعاً^(٦) وبابها في الصفح الذي بين الركن العراقي والركن الشرقي على أحد عشر شبراً من الأرض وهو من الفضة والذهب المنقوش طوله ست أذرع وزيادته^(٧) وعرضه أربع وهو قريب من الحجر الأسود ويسمى ما بينهما الملتزم وهو موضع استجابة الدعاء^(٨) يتزاحم الناس به في طواف البيت بحيث أنه لا يخلو منهم ساعة من نهار ولا ليل. فأخبرني أمير مكة أنه لا يوجد من يخبر أنه رآه دون طائف به ومصل فيه وأخبرني وهو غاية ما يكون من احترام الدين أن في مكة من الصالحين من لم يدخل الكعبة تعظيماً لها^(٩) أنزل فيها الوحي وأدأست على التقوى والرضوان

(١) ابن جبير ٨١ (٢) ابن بطوطة ١ * ٢١٢ (٣) المسعودي ١ * ٢٠٥

(٤) ابن بطوطة ١ * ٢٠٧ (٥) ابن جبير ٨٠ (٦) الأكتف ١٢١ (٧) الأكتف

١٢١ (٨) ابن بطوطة ١ * ٢٠٠ وابن جبير ٨٠ (٩) النزويبي ٧٧

وفي الركن العراقي المذكور بابٌ يسمّى باب الرحمة ينتهي بالراقي عليه الى سطح البيت وتحتة قبوة فيه حبر مغشى بالفضة^(١) تبرّكت به له وتقبيله وهو مقام ابراهيم سليل الوحي وتحت الميزاب المذهب في صحن الحجر قبر اساعيل عليه السلام وموضعه رخامة بل رخامتان خضراوان فيها نكت تنفتح عن لونها الى الخصرة الصفراء^(٢) حتى كانتها للنظر تجزيع بايدي الصناع . والى جانبه ما يلي الركن العراقي قبر هاجر أمه وموضعه رخامة خضراء ايضا . وفي مقابلة ركن الحجر الاسود قبة^(٣) بر زمزم^(٤) وهي البئر التي شرب منها الخليل سميت بزمزم لقراءة ساوير عندها حين حج الى البيت . والزمزمة عند العرب هي قراءة الجوس^(٥) . وداخلها مفروش بالرخام وعميقها فيما يقال احدى عشرة قامة اربع^(٦) سماء وسبع ماء وهو لمن شربه كما قال النبي عنه طعام طعم وشفاء سقم

اما الحرم فانه يمدق بالبيت العتيق من جميع جهاته وهو قائم على عمد من الرخام وله صوامع سبع^(٧) اكبرها في دار الندوة^(٨) واصغرها على باب الصفا^(٩) وهو اكبر ابواب الحرم وليس مثله في الزينة الاباب السلام وباب السدرة وباب الندوة^(١٠) . وشاهدت في الحرم الشريف مصحفاً بخط زيد بن ثابت الانصاري^(١١) نسخة بامر عثمان

(١) الماوردي ٢٧٨ (٢) ابن جبير ٨٦ (٣) نفوس البلدان ٨٧ (٤) الشريف

٢ * ١١٤ (٥) عجائب الخلوفا ١٩٩ (٦) انابدي ٧٦ (٧) ابن جبير ٨٩

(٨) الكثر ١٠٢ (٩) الكندي

بن عفان في سنة ثمان عشرة للهجرة^(١) ولا ادري في اي مكان كان قبل ان يوضع فيه لانه لم يكن انه في تلك الايام جدار وإنما كان موضعه دور^(٢) لم يتم زيادتها بالحرم الا في خلافة الوليد بن عبد الملك كما لم يتم بناؤه على ما نراه اليوم الا في خلافة المهدي رحمه الله وهو الذي زينه^(٣) بالرسوم وكتب اسمه في مواضع كثيرة منه تبركاً كما بالحير الذي صنع. وما كتب على سارية خارج باب الصفا امر عبد الله محمد المهدي أصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام مما يلي باب الصفا لتكون الكعبة في وسط المسجد في سنة سبع وستين^(٤) ومئة

—><—

موافاة الرشيد الى المدينة

وكان انفصالي عن مكة المكرمة لسبع بقين من ذي الحجة. ومررت في طريقي الى المدينة المنورة بمنازل عربان لم يتغربوا بالاسفار ولا سبق لهم عهد بحضارة الامصار فوجدتهم يقولون^(٥) بالقيافة والعناء واليوم التي تأخذ بثأر المتول^(٦) وغير ذلك مما كان يقول به اهل الجاهلية. وسمعت ان في مجاورتهم عربان لم يدخلوا في دين الاسلام لا يختلفون عنهم الا بتعظيم عيسى عليه السلام وانفط الجين في كلامهم كاقا مخففة فينادون الرجل يار كل^(٧) ... فوصلت من مكة الى

(١) ابن جبير ١٠٢ (٢) المقدمة ٢٠٨ (٣) الخميس ٢ * ٢٣٠ (٤) ابن

جبير ١٠٧ (٥) المقدمة والف ليلة وليلة والسعودي ١ * ٢٥٧ و ٢٨٢

(٦) اغاني ١٦ * ٩٦ وتزيين الاسواق ١١٨ (٧) اغاني ٩ * ١٢٩

بطن مر^(١) وهو وادٍ خصيب ذو عين فوارة^(٢) ثم عطفت منه الى
 عسفان وهي مدينة تحف بها الجبال وفيها كثير من شجر المفل^(٣)
 وبار منسوبة الى عثمان بن عفان^(٤) ثم ركبت الى الخليص وهو موضع
 في بساط من الارض وفيه خيام لقبيلتين كبيرتين من العرب يقال
 لها كمانه وخزاعة وهم متقاربون في المنزل لان بينهم نسباً لم ترم فيه
 العصا^(٥). ثم امتد السير من خليص الى بدر وهي قرية كثيرة
 الخيرات^(٦) كانت بازاء موضع من مواضعها يقال له القلب^(٧) وقعة
 النبي^(٨) المباركة التي اعزت الدين وقهرت المشركين^(٩) ثم اقلعت
 الى الصفراء وهي تبعد عن بدر بريدا ثم الى الروحاء وهي موضع بشر
 يقال ان علياً عليه السلام قاتل فيها الجن^(١٠) ثم رحلت افوز في
 البطاح والمضاب حتى اقبلت على المدينة المنورة حرسها الله وزادها
 شرفاً بمنه وكرمه

وبعد ان تبركت بمزار المسجد المكرم وصلت في الروضة^(١١) التي
 بين القبر المقدس والمبر الذي كان موطن الرسول صلى الله عليه
 وسلم ركبت الى قصر الامارة حيث حلت ركاب الرشيد فاصبته في
 مجلس اشبه ان يكون من مجالس قصره في بغداد يقال له قصر

(١) تقويم البلدان ٩٤ (٢) ابن جبير ١٨٥ (٣) ابن جبير ١٨٦ (٤) الازرقى

(٥) تزئين الاسواق ١١٤ (٦) تقويم البلدان (٧) الفزويني ٥١

(٨) ابن جبير ١٨٩ (٩) ابن الاثير (١٠) ابن جبير ١٩١ (١١) ابن

الفرجة^(١) وهو مزخرف بالصدق^(٢) الأبيض وفيه كتابة بالصدق
 الأحمر والأخضر كأنها للعين ياقوت و زبرجد^(٣) فلما رأني اتسم
 اليّ وابتدرني بالسؤال عن أمر الرسالة فاخبرته بما توسم القيصري في
 غايتها من الخير وما وجدت في البلاد من عدل العمال ودعائم
 له في مساجد مصر والمغرب^(٤) وذكرت له من كلام الانبرور ما
 اقتضته جلالته^(٥) الخليفة... فمخديني على حسن القيام بهذه المهمة
 ولكن من غير ان يظهر اليّ ذلك الصفاء الذي كان يشرفني به قبل
 انزاحي عن بغداد . فلما اذن لي بالانصراف مضيت الى موضع
 البرامكة فوجدت في نفوسهم ما وجدت في نفس الرشيد ليس من
 تجافيم اليّ عن الصفا ولكن من ادمان فكرتهم في أمر ظننت انه وقع
 بينهم وبينه في المشاعر المباركة بحيلة المدالسين التي تصادف محلاً
 في قلوب العباسيين

هذا ختام رسالتي اليك عن رسالتي الى الانبردور وأحب
 قبل ان افارق هذه المواطن المقدسة ان اذكر لك شيئاً عن المدينة
 المنورة لا تبرك بذكره وانت والكتاب . فاني وجدت المسجد المكرم
 قائماً على اعمدة من الحجارة اللامعة وسقفه من الساج الخرم^(٦)
 وجدرانه منزلة بفصوص من الفسيفساء تمثل اشجاراً وثماراً وازهار

(١) الف لبلبة وبلبة ١ * ١١٥ (٢) المقدمة ٢٥٧ (٣) ابن خلكان

١ * ٢٨٢ (٤) ابن الانبر (٥) السيوطي ١ * ١٥٨ (٦) ابن جبير

بإبداع ما يكون من الصناعة وهي من عمل الروم والقيبط^(١) فيما رسم
 لهم عمر بن عبد العزيز^(٢) بأمر الوليد بن عبد الملك^(٣) . ووجدت
 الروضة التي تجاور القبر المقدس مؤزرةً الى ثلثها برخام بديع النحت
 غريب النعت^(٤) وإعلاها مصغح بالمسك والطيب^(٥) . والقبر
 المقدس وجدته مبنياً برخام نقشه وردان^(٦) المرخم الماهر وعلى رأسه
 صندوق من الابنوس مختم بالصندل ومصغح بالفضة طوله خمسة
 اشبار في ارتفاع أربعة وعرض ثلاثة . والى طرف القبر^(٧) ما يلي
 اقدام النبي صلى الله عليه وسلم رأس أبي بكر وعمر^(٨) رضي الله عنهما
 وعليها قناديل من فضة وذهب^(٩) وبين الركن الجوفي والركن
 الغربي من المسجد موضعٌ عليه سترٌ مسبلٌ يقال انه كان مهبط
 جبريل^(١٠) عليه السلام

اما المدينة المنورة فانها بمكان من العظم والاتساع وبدل
 تسميتها بيثرب بن وائل من ولد سام^(١١) مع ما هو فيها من الآثار
 العتيقة على قدم اخذها طما وعلو شأنها بين مدن الحجاز^(١٢) ولها أربعة
 ابواب اعظمها باب الحديد وهو من الحديد^(١٣) ثم باب البقيع حيث

- (١) الفزوني ٧١ (٢) ابن الاثير ٥ * ٤ (٣) ابو الفداء ١ * ٢٠٩
 وابن بطوطة ١ * ٢٧١ (٤) ابن بطوطة ١ * ٢٦٢ (٥) ابن جبير ١٩٢
 (٦) الاغانى ١٧ * ٨٤ (٧) ابن بطوطة ١ * ٢٦٤ (٨) تقويم البلدان ٨٧
 (٩) ابن جبير (١٠) ابن جبير ١٩٢ (١١) الاثقان ٢ * ١٦٧ (١٢) ابن الاثير
 (١٣) ابن جبير ٢٠٠

الآثار المذكورة والمشاهد المباركة^(١) وفيها قصورٌ ليس فيما ينقل
 السفارة اعظم منها في ديار العرب واعظمها قصر المقداد بن الاسود
 في الموضع المعروف بالجرف^(٢) وهو محصص الظاهر والباطن^(٣)
 وقصر لعثمان بن عفان مشيد بالحجر والكلس وابوابه من الساج
 والعرعر^(٤) . وفيها مشاهد كثير من الصحابة والتابعين والانصار
 واهل البيت الكريم^(٥) فزرت منها قبر السلالة الطاهرة ابراهيم بن
 النبي صلى الله عليه وسلم وقبور ازواج النبي وأولاده ومشاهد آل
 علي عليه السلام^(٦) وموضعها رخامة مكتوب عليها بسم الله الرحمن
 الرحيم الحمد لله مبيد الامم ومحبي الرم هذا قبر فاطمة بنت رسول الله
 صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين وقبر الحسن بن علي بن أبي
 طالب رضي الله عنه وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب
 ومحمد بن علي وجعفر بن محمد رضي الله عنهم اجمعين^(٧) . فله دره
 من قبر ما اكرمه وما اشرفه^(٨)

والى مقربة من المدينة المنورة موضع يقال له قباء^(٩) وفيه كان
 مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وموضع المسجد المبارك الذي
 أسس على التقوى والرضوان^(١٠) وفي صحنه شبه محراب على مصطبة

(١) ابن بطوطة ١ * ٢٨٦ (٢) المسعودي ١ * ٢٢٢ (٣) المقدمة ١٢٨

(٤) المسعودي ١ * ٢٢٢ (٥) ابن جبير ١٩٧ و ١٩٩ (٦) المسعودي

٢ * ١٨٢ (٧) ابن جبير ١٩٨ (٨) ابن خلكان ١ * ١٤٦

(٩) ياقوت (١٠) ابو الفداء ١ * ١٢٢ وابن بطوطة ١ * ٢٨٨

يقال أنه أول موضع ركع فيه ^(١) النبي صلى الله عليه وسلم وفي قبلته
 بهر معروفه بيئر أريس يقال ان النبي صلى الله عليه وسلم تفلّ فيها فعاد
 ماؤها عذبا صافيا بعد ان كان آجأ آجأ ^(٢) وفيها سقط خاتمه صلى
 الله عليه وسلم من يد عثمان بن عفان فأضاعه ^(٣). هذا بعض الخبر عن
 المشاعر المباركة والقليل دليل على الكثير والله يخص بقاعا من
 الشرف والتكريم بما لا يخص به غيرها من البقاع وله في ذلك حكمة
 تعالت عن ان يدركها العباد



الرشيد والبرامكة في مكة

هذا الحاق بالرسالة اكتبه اليك من ظاهر الحيرة وانا منفصل
 عن الرشيد في كتاب اجملة الى الرقة من لدنه لاعلمك بما هو واقع
 بينه وبين البرامكة من الامر العظيم. كان انفصالنا عن المدينة المنورة
 في غد اليوم الذي كتبت فيه اليك هذه الرسالة وعلمت فيما نقل
 اليّ نأفد من خدم البرامكة ان الرشيد نحول عليهم خوفا من
 استمالتهم الناس بما وسعوا له من الجود والمعروف حتى اذ جلس
 في مكة للعطاء جلس معه يحيى فاعطى مثل عطائه واذا جلس
 الأمين جلس معه الفضل فاعطى مثل عطائه واذا جلس المأمون
 جلس معه جعفر فاعطى مثل عطائه. ثم استرسلوا واولادهم من بعد

في سعة الهبات حتى ذهبت عطياتهم مثلاً بين الناس فانصرفوا عن
مدح الخليفة الى قول الشعر في مدحهم على الكرم وكانوا يقولون والله
هذا عام الاعطيات^(١) وينشدون

اذا نزلوا بطحاء مكة اشرفت بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فادخل ذلك على الرشيد حسداً وريبةً من تمام النعمة عليهم . وعلم
الفضل بن الربيع منه ذلك فأوغر صدره عليهم بالخوف واغرى جماعة
من لا يميل معهم من الشعراء ان يقولوا في رقعة رفعها الى الرشيد^(٢)
قل لأمين الله في ارضه ومن اليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا مثلك ما بينكما حد
امرك مردود الى امره وأمره ليس انه رد
وقد بنى الدار التي ما بنى الفرس لها مثلاً ولا الهند
الدرُّ والياقوت حباؤها وتربها العنبر والند
ونحن نخشى انه وارث ملكك ان غيبك اللحد

فسمي قلبية عليهم من العداوة التي يازجها الخوف من زوال الملك
عنه فاستدعى من كان في مكة من بني هاشم وبعث الى المدينة في
استقدام اهل الحل والعقد ثم جدد البيعة بمحضهم للامون بعد
الامين^(٣) وكتبها من بعدها الى محمد القاسم ولقبه بالمؤمن فصير
ولاية العهد الى ثلاثة من اولاده^(٤) كما قالت الشعراء في مدحهم له^(٥)

(١) الفخري (٢) ابن خلكان ١٥٢ * (٣) ابو الحسن ١ * ٥٢٢

(٤) انليدي ١٢١ (٥) الديوطي

ابوأمين ومأمون ومؤمن اكرم به والدًا برًا وماولدا
ثم انه ولي المأمون خراسان وهذان الى آخر المشرق^(١) وضم الى القاسم
الجزيرة والثغور والعواصم^(٢) وفرق في الناس نحوًا من الف الف
دينار^(٣) ليوهمهم بسعة الكرم ويحط في قدر البرامكة على ما تناقلت
الاسنة من كثرة عطائهم وهو يظن انه يفعل هذا تحذرًا منهم على
نفسه مع انهم هم الآخذون في إقامة ملكه وتوطيد الخلافة لاولاده
في المشرق وان كانوا لا يحبون قسمته اليوم بين المأمون والمؤمن لما
يتوقعون بعده من حدوث الشقاق ومسيل الدماء على غير فائدة
الألوهن والانحلال

وكان الرشيد يصانع البرامكة ويوهم استرسال نفسه اليهم حتى
لا يبقى لهم مجالاً الى سوء الظن به على ما عقد النية من ازالة النعمة
عنهم فاذا جلسوا اليه اظهر الرضى عنهم والاقبال عليهم بحسن
العاطفة^(٤) ليوهمهم ان الامر على ايالي الجلاء فكان يغرهم ذلك منه
الأجعفر لانه كان اعلم الناس به وحتى اذا اهداهم مسروقاً^(٥) غلامه
قال لي والله ان في اهدائه الينا لحيلة لم يغم علي امرها وقد هجس في
قلي انه أراد ايهامنا برضاه حتى لا نظن به سوءاً^(٦) فيها داخله من
الحسد . . . وقد اخبرني جبريل بن مجنيشوع ان الرشيد تحوّل عليهم
بتحليل الفضل بن الربيع الذي يتعصب على اهل البيت ويذكر له

(١) ابن الاثير (٢) الطبري وابو الفرج (٣) ابن الاثير ٦ * ٦٢

(٤) الاتيدي (٥) الاغانى ٢ * ١٤٠ (٦) الاتيدي

ما على باب البرامكة من الجيوش والغلمان والمواكب وبخوفة
استفحال ملكهم في خراسان وفارس ويوهمة تحلمهم في ازالة الامر من
يده وان مال الدواة كله في أيديهم^(١) والملك لا تصبر على مثل ذلك
فاوغر صدره عليهم من الخوف بعد ان اوغره عليهم من العداوة
هذا ما أتصل بي من اخبار الرشيد مع البرامكة في مكة. وقد
تحوّل عليهم^(٢) لامرين لا أرى له مندوحة في كليهما فاما استفحال
ملكهم في الاسلام وتزلّف الملوك اليهم بالهدايا السنية فانه غير مضر
بالرشيد الا ان يكن ضعيف البصيرة ناعس الهمة. وقد مضى من
اقامتهم دولته وتعظيم شأنه ما يعلم به ان سيفهم خادم انصره. واما
وفور المال في أيديهم وكثرة الضبايع عندهم فذلك لم بعد ان تولوا
الوزارة خمسين سنة. وليس فيها في من اموال المسلمين كما يزعم
الواشون عليهم الى السلطان. فكان الواجب على الرشيد ان يذكر
نعمتهم عليه وانه ما بلغ المجد الا بفضل جعفر ولا قامت دولته الا
بأيديهم^(٣) يجي وليس ان يدب فيه الطمع ويداخله الحسد^(٤) ويمد
عينيه الى ما ادخروه لولدهم بعد ان دبروا امر نفسه وولده وحاشيته^(٥)
والا فان تخوف الملوك من لديهم من الوزراء دليل على فتور الهمة
فيهم كما ان تصديقهم لكلام الواشين دليل على بعدهم عن الحزم
واعراقهم في الجهل والحماقة

(١) المقدمة ١٤ (٢) اغاني ٥ * ١١٠ و ١١٣ (٣) ابن الاثير والغزيري

(٤) الدميري (٥) الانبايدي

ولما اجتمعت بالبرامكة بعد ذلك وخلوت بجعفر النفس الزكية
أخبرني بما هو واقع في نفس الرشيد من الحسد وقال انه يجترئ على
عظام الأمور وما كفى اننا أقمنا ملكه ودبرنا أمره وخففنا عنه الحاشم
المنعبة حتى صار يحسدنا على ما آتانا الله من النعمة فوالله لئن لم يرجع
عن غيِّه ل يكونن ذلك وبالاً سريعاً عليه^(١). فقلت ياسيدي ليس
للرشيد عنكم مرغبٌ فلا أظن انه يحرم دولته منكم فقال تمهل عن
نفسك ان لنا فارس وخراسان^(٢) والمواطن المباركة فان مجاهرنا
بالعدوان تذهب منه الخلافة الى أربابها من اهل البيت... فلما علمت
منه ذلك اعلمت في تهدة خاطره على علمي بانه سريع الفئ من
غضبه. فلم يهدأ ثائر صدره وإنما رجع الى ما كان فيه من الفكرة
وأمرني بان لا أفارق أباه في ذلك الوقت

وكان الفضل بن الربيع لا يفتقر عن السعاية به الى الرشيد ساعة
من ليل ولا نهار ويخوفه منه السعل في مؤامرة جارية بينه وبين
الفرس. فكان يخال الرشيد باستيقاء جعفر عنده واستقباله باللين
والدالة حتى يوهمه بزوال ما عنده من الحقد. وكان جلوسي اليه
في ذلك الوقت قد أفلقه كل القلق فرأى ان يفصلني عنه بالحيلة
التي لا ترد على الملوك بان يوجهني الى الرقة في كتاب من لدنه الى
عالمها وهو يقول ان بنا من جميل الاعتقاد بك ما نرتاح الى انفاذك

بالرسائل فكان عند رجائنا فيك. فادركت الحيلة من ذلك الأمر
ولكن أشار إليَّ جعفر بنان لا أخالف امره حتى نطمع في حسن النجاج
ونطفق من المراد بما قد تمَّ عليه العزم من المناداة بخلافة أهل البيت
فانفصلت عنه بالحيرة في اليوم الذي نزل فيه السفن الى العمر
الذي بناحية الانبار^(١). وكان الرشيد في الحيرة قد غلب عليه الخوف
حتى اذا تناول الطعام خاف^(٢) ان يكون فيه سم فاستبقى على مائدته
الاطباء وكلهم مخالفت للبرامكة الا جبريل بن مجنيسوع وقد طوى
عنه سرًّا ما عزم عليه من ازالة النعمة عنهم الا فيما بدر من منه
الحسد حين رأى اقبال الملوك على بابهم^(٣). وانا اليوم
اسير الى الرقة سيراً حثيثاً حتى لا يفوتني

الرجوع الى بغداد قبل وصول

جعفر بموكب

الحجاج

الرسالة العاشرة

عهدي بالايام يوم نعيم ويوم بوؤسٍ ولكني
لا اعهد لها يوم لا شيء

اكتب هذه الرسالة اليك والدمع جارٍ في الآفاق ليس على
البرامكة وهم احياء في الناس ولكني ابكي على الدنيا^(١) التي ذهب
خيرها^(٢) وعفت البلية رسوم محاسنها حتى كانها طللٌ من هذه
الاطلال التي يهجرها الانس ولا يقف اليها الا الباكون النادبون
كنت قبل الوصول الى الرقة قد وافاني من لدن البرامكة
رسول يستقدمني اليهم ويعلمني ان الكتاب الذي أحمله الى عاملها
يأمره فيه الرشيد بان يستبقني عنده ويحبسني دون الرجوع الى الحضرة
لما داخله في من الرية . ففضضت الكتاب فوجدت فيه تلك
الاشارة فاصابني من الدهول والانتقباض ما لا يقع في نفس الرجل
الذي يستسلم للحين . ووقفتُ أنساءل فيما داخل الرشيدني من السوء
بعد ان أدت رسالته الواجب من الاخلاص وخدمت دولته خدمة
الناسح الأمين فلم اجده باً للمظنة الا فيما هو بيني وبين البرامكة

(١) العقد الفريد ٢ * ٢٧ (٢) اعلام الناس

من الخلطة والصفاء^(١)... فممت لساعتي وتبدلت زبي بزبي الحجاز الجاف^(٢) ثم ركبت الى بغداد في هذا التنكر حتى لا يعرفني أحد من الناس

فلما بلغت ما وجدت في اهلها ذلك الخمول الذي يقع في الجماعة من هول عظيم او اثر منكر^(٣) فاستدلت من ذلك على وقوع الامر بينهم وبين الرشيد . غير اني لم أجد في النفوس اضطراباً كما كنت اتوقع ان يكون فاسرعت الى منازل البرامكة فوجدتها مغلقة^(٤) وعلى ابوابها حرس واقفون بالسيوف فاسودت الدنيا في عيني وكدت أفقد رجلي من الجهد الا انه لم يكن لي وانا طالبة الخليفة ان اطيل الوقوف ثلثاء دورهم فتراجعت امشي على غير دراية الى ثلثاء صد بق اتوجع اليه واستطلع منه عن الخبر حتى قربت من منزل اسحق النديم فنظرت ان لا يكون أحد ناظراً الي ثم دخلت عليه البيت وحسرت عن وجهي اللثام فلما عرفني ترققت في عينيه الدموع وقال بم أندب البرامكة أعزيك ام أعزي نفسي أم أعزي بفقدهم الأيام^(٥) ثم بكى حتى خنقته العبرة فكنت في ذلك الوقت بعيداً عن ان أعي من شدة اليأس ولم يكن اسحق يكلمني عن نكبتهم الا بالتقطع الذي نمازجه الزفرات ...

(١) وفي كتب التاريخ ان الرشيد قبض على صنائع البرامكة وأسبابهم ومن هو مقرب اليهم ومعروف بمخالطهم (٢) اغاني ١ * ٢٥ و ٢ * ١٢٣ (٣) الانليدي ١٧٤ (٤) اعلام الناس (٥) العقد الفريد ٢ * ٢٧

قد علمت فيما مضى من الرسالة السالفة ما كان موقف البرامكة مع
الرشيد^(١) هو يحاول الايقاع بهم حسداً^(٢) على ما آتاهم الله من النعمة
وهم يسلكون معه مسلك الموذة ويمهدون له طرق الهداية حتى يرعوي
عن غيبه ويقلع عماد اخلة من الحقد^(٣) والأستقدموا عليه أهل البيت
الى الحرمين ونادوا لهم بالخلافة التي عهدها اليهم النبي صلى الله عليه
وسلم^(٤) وقام الناس بدعوتها في ايام ابي مسلم كما مر في موضعه من
الكتاب . وقد علمت ان الفضل^(٥) كان موقفاً بزوال النعمة عنه
في استبقاء البرامكة وانه كان يخوف الرشيد مؤامرتهم ويذكر له ان
الخلافة في موقف بعيد عن التخلص من دهائمهم اذ كانت الملوك طوع
أمرهم واموال الدولة كلها في أيديهم^(٦) حتى ملأ صدره عليهم من
العداوة^(٧) وحدث في نفسه موجدة على جعفر النفس الزكية . ثم
علمت ان الرشيد كان أهداهم في مكة مسروقاً غلامه ابوهمم برضاه^(٨)
ولكنك لم تعلم انه كان بينه وبين هذا الغلام مواطاة لنقل احاديثهم
اليه ومراقبتهم في جميع ما يباشرون من الاعمال حتى اذا نقل اليه الكلام
الذي كان يحدثنني به جعفر في المشاعر المباركة عمد الى هدر دم
الزكي ووجهني الى الرقة امثال المجرمين الذين في نفوسهم تبعه من
شرِّ والعياذ بالله

(١) اغاني ٥ * ١١٠ و ١١٣ (٢) ابو الفداء ٢ * ١٧ (٣) الفغري

(٤) السيوطي (٥) هو الفضل بن الربيع (٦) المقدمة ١٤ و اغاني ٥ * ٢١

(٧) ابن الاثير ٦ * ٦٢ (٨) اعلام الناس ١٦٨

فما حدثني اسحق ان الرشيد كان قبل اليوم الذي نكبهم فيه قد ركب الى أرباض المدينة ومعه اسمعيل بن يحيى الهاشمي وجماعة من أقاربه فيبنا هو يسير اذ نظر الى موكب عظيم قد اعترضه بالبعد فقال لاسماعيل يا اسمعيل لمن هذا فقال لايخيك جعفر فالتفت يميناً وشمالاً الى من معه فاذا هو شذمة يسيرة. ثم نظر الى الموكب الذي فيه جعفر فلم يره فقال يا اسمعيل ما فعل جعفر وموكبه فقال يا سيدي قد مضى اخوك في طريقه ولم يعلم بموضعك فقال ما رانا أهلاً لان يزينا بموكبه ويجعلنا بجيشه فقال العفو يا امير المؤمنين لو علم بموضعك ما تعداك ولا سار الابن يدبك. ثم سار حتى انتهى الى ضيعة عامرة ومواش كثيرة وعمارة حسنة فقال يا اسمعيل لمن هذه الضيعة فقال لايخيك جعفر فسكت ثم تنفس الصعداء. ثم سار ولم يزل يمر بكل ضيعة اعمر من الاخرى وكلاماً وسأل اسمعيل عن ضيعة قال هي لجعفر ولاخوته حتى وصل الى الحضرة. فلما خلا مجلسه قال يا اسمعيل انظر الى البرامكة اغنيانهم وافقرنا اولادنا وأهل بيتنا فاني لا اعرف لاحد من اولادنا ضيعة من ضياع^(١) البرامكة على طريق واحد يقرب هذه المدينة فكيف بما هو لم غير ذلك على غير هذا الطريق في سائر البلدان. فقال يا امير المؤمنين انما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات وأموالهم وجميع ما يملكون هو

لكَ فنظر اليه نظرة جبار وقال ما عدَّ البرامكة بني هاشم إلا عبيدهم
 وخولهم وإنهم هم الدولة ولا نعمة لبني العباس إلا وهم المنعمون عليهم بها
 فقال أمير المؤمنين أبصر من غيري بخدمة ومواليه فقال والله
 يا اسمعيل انك لتعلم اني قلتُ هذا وكاني أراك ان تعلمهم بكلامي فتتخذ
 لك عندهم يداً واني أمرت ان تكتم هذا الامر فإنه ما علم به أحدٌ
 غيرك ومتى بلغهم شيء مما جرى علمت انه ما أفساهُ إلا أنت فقال
 يا أمير المؤمنين اعوذ بالله ان مثلي يفشي بسرِّك^(١) ثم ودَّعه وجاءه
 من الغد وهو في محلٍّ من قصره يشرف على دجلة وبازائه منزل
 جعفر فقال يا اسمعيل هذا ما كنا فيه بالامس انظر كم على باب جعفر
 من الجيوش والغلمان والقواد والمواكب^(٢) وانا ما على باب داري
 احدٌ فقال يا أمير المؤمنين ناشدتك الله ان لا تعلق نفسك بشيء
 من هذا فانما جعفر خادمك ووزيرك وصاحب جيوشك وبابه باب
 من أبوابك فاذا لم يكن الجند على بابه فعلى باب من يكون^(٣) فقال
 والله ان البرامكة قد ملكوا الدولة واحتجفوا الاموال^(٤) وانصرفوا عن
 خدمتي الى محبة العلويين وانا لا اصبر على مثل ذلك^(٥)

وكان جعفر في ذلك الوقت يعتمز على الركوب الى خراسان
 وهو عالم بما أضمر الرشيد له ولاهل بيته فما أحبَّ ان يتركهم بغير
 حراسةٍ وانما ابقى في يد الفضل رجالاً تبين فيهم الامانة ليفيهم من

(١) من اعلام الناس ١٦٦ (٢) الفخري (٣) الاثابدي ١٦٧ (٤) المقدمة

مكايد الرشيد وحتى اذا قدم الحرمين بالدعوة وجد في العراق من يستعين به على العباسيين . غير ان الرشيد كان قد فطن لما باشره من تعبية الجند فايقن بالاشراف على الخطر الا ان يتحمل في امره يغلبه به قبل ركوبه الى خراسان^(١) فارسل الى بني هاشم من تحت الليل ان يضموا اليهم جماعاتهم وأمر الفضل بن الربيع ان يحوِّط دور الخلافة بما بين يديه من الحرس والغلمان وأرسل الى يزيد بن مزيد انه اذا ركب جعفر من الغد الى دور الخلافة يبعث من يحوِّط البرامكة ويقبض عليهم^(٢) واستبقى الامر سرّاً لم يستخدم في قضائه الا^(٣) جماعة من اقاربه دون الغلمان . ثم ارسل في تلك الليلة الى البرامكة من يقول لجعفر انه يمكنه من بيوت المال ان يتناول منها ما يشاء وان يأخذ الجند من ينتخبه فيهم وان امانته فيه فوق كل امانة وامثال هذه المصانعة^(٤) حتى لا يبقي لهم مجالاً الى الظن والعلم بما هو آخذ في تدبيره من المكيدة . فكان جعفر يعلم بما في تحل الرشيد من المصانعة ولكنه ظن انه يريد بها استمالته وآله اليه ورجوعهم الى الثقة به لا انه يريد نكبتهم^(٥) في صباح تلك الليلة

فلما اصبح الرشيد استدعى خادمه مسروراً^(٦) وقال له قد انتخبك لأمري لم أر له محمداً ولا عبداً لله ولا القاسم فحقق ظني واحذر ان

(١) الانليدي ١٧١ (٢) ابوالهداه ٢ * ١٨ وان الانبير ٦ * ٦٣ (٣) ابن

خلكان ١ * ١٥٢ (٤) الانليدي ١٦٨ و ١٧١ (٥) اعلام الناس

(٦) اغاني ١١ * ٥٤

تخالف فتهلك فقال مسرور لك عليّ أمر مطاعة فمرفني يقتل نفسي
لافعل^(١) فقال امض الساعة الى الحديقة وحوطها بالحرس وضم^(٢)
الي جماعة من الغلمان^(٣) ثم اذهب الى جعفر وجئني به وقل له انه
وردت كتب من خراسان فاذا دخل الباب لا تدع من معه يدخل
بعده فاذا تمكنت منه فخذ رأسه ولا تراجعني بذلك^(٤) فاذا فاتك
الامر فاياك ثم اياك . فسار مسرور الى جعفر فاصابه في منزله قد
طرح نفسه ليستريح^(٥) فقال له سيدي اجب امير المؤمنين يدعوك
لرسائل وردت الساعة في خريطة البريد من خراسان^(٦) . فلبس
جعفر ثيابه وقلد سيفه ثم ركب في جماعة من الحرس والحمد اذ لم
يكن بأمن من غدر العباسيين . غير انه لما دخل الباب طلع عليه
من في الحديقة من الحرس وحاولوا رد غلمانهم وهم غير مأمورين
بالقتال فاستفرد مسرور وبضع عشرة نفر دخلوا معه الباب
فجرد عليه السيف واستقدم من معه من العبيد والنخعيان فهدروا
دمه الزكي^(٧) . فالشر لست انسبه الى مسرور هذا الخادم الملعين فانما
هو ذئب قد استرعاه الرشيد ومن استرعى الذئب فقد ظلم) ولكني
أوفيه نصيبه من اللعنة بان اجري باقى ما يكون^(٨) ولا ارى بينه
وبين العقاب الا الموت ان ينزل به ويسوقه الى عذاب الآخرة

(١) ابن خلكان ١ * ١٥٢ (٢) اغاني ١١ * ٥٤ (٣) ابن الاثير ٦ * ٦٣

(٤) انليدي ١٧٢ واغاني ١١ * ٥٤ و ٦ * ٢١٢ والف لهلة و ليلة (٥) الثغري

(٦) ابن خلكان (٧) انليدي

هذا ما بلغني من اسحق ثم سمعت في احاديث الناس ان جعفر
 لما صار في وسط الحديقة ولم ير معه الجند ارتاع لذلك وندم على
 ركوبه في تلك الساعة فقال لمسرور يا اخي ما القضية فقال
 يا سيدي ان امير المؤمنين قد امرني بقتلك فيقولون ان جعفر بكى
 وجعل يقبل مسروراً ويقول له انت تعلم كرامتي لك دون خول
 الرشيد وان حوائجك عندي مقضية في جميع الاوقات وانت تعرف
 مكائتي من الرشيد وما يوجه الي من الاسرار ولعل ان يكون بلغوه
 عني باطلاً فهذه الف الف دينار او قالوا عشرة آلاف الف ادفعها
 اليك الساعة وخاني اهم علي وجهي فقال لا سبيل الي ذلك فقال
 احمني اليه واوقفني بين يديه فلعله اذا وقع نظره علي تدركه الرحمة
 فيصغح عني فقال وهذا ايضا لا سبيل اليه^(١) ولا يمكنني مراجعته
 فقال توقف عني ساعة وامض اليه وقل له انك فرغت مما امرك
 به واسمع ما يقول ثم عد وافعل ما تريد فان فعلت ذلك وسلمت
 فاني اشهد الله وملائكته اني اشاطرك في نعمتي وأولئك من الامور
 جسيماً. ولم يزل به وهو يبكي فيما يقولون حتى طمع في الحيوة فقال له
 ربما يكون ذلك. ثم انه وكل به غلماناً من السودان يحفظونه ومضى
 الي الرشيد وهو جالس يقطر غضباً فلما رآه قال له ثكلتك امك
 ما فعلت فقال يا امير المؤمنين قد انفذت امرك قال فاين رأسه

قال في قبة الحديقة قال اثني الساعة به^(١) فرجع مسرور وجعفر يصلي وقد ركع ركعة فلم يمهل ان يصلي الثانية حتى سل سيفه وضرب عنقه وأخذ رأسه وطرحه بين يدي الرشيد وهو يشخب دماً. فتنفس الصعداء وبكى بكاءً شديداً وراح يقول من باب المعاتبة يا جعفر ألم احلك محل نفسي يا جعفر ما كافأني ولا عرفت حتمي ولا حفظت عهدي يا جعفر ما ذكرت نعمتي ولا نظرت في صلاح أمري يا جعفر قد غرتك نفسك فدار عليك الدهر. وكان يقول هذا وينكث الارض بشيء في يده ويقرع اسنانه بالقضيب أثر كل كلمة^(٢) وكان ذلك بين سلخ المحرم^(٣) وأول صفر^(٤)



وقوع التواني في الدولة بعد نكبة البرامكة

فلما اتصل بي خبر البرامكة نفرت الدمعة من عيني وتفظرت مرارني من الندم على قتل هذه النفس الزكية اذ لم يكن في اليد حيلة على حكم الله الا البكاء بذلك البكاء المر الذي ينبعث من القلب مثل النار بل احراً. فكنت مثل الرجل الذي يبصر في منامه بهول عظيم قد نزل به ولكن من غير ان يدرك سره ولا ان يجد لنفسه مرداً يبقى به شره وإن كان يسوءني من الرشيد تحله في مصانعة

(١) ابن الاثير ٦ * ٦٣ (٢) الانليدي ١٧٣ (٣) ابن خلكان ١ * ١٥٢

(٤) ابوالحسن ١ * ٥٢٦

البرامكة^(١) قبل مسير جعفر الى خراسان حتى ذهلوا عن تدبير ما
 يتقون به مكايده لظنهم بانه كان يقابلهم بالمعروف ليقبلوا عليه بالميل
 مع انه كان يريد قتالهم^(٢) والعياذ بالله من شر ما صنع فانما كان يسوئي
 اكثر من ذلك ما بلغني عن جهد مجي هذا الشيخ في محبسه^(٣) وشديد
 ما يقاسي مع الفضل من العذاب^(٤) حتى انها ليطلبان الماء الفاتر
 للوضوء فلا يحصلان عليه^(٥) ويشتميان طعاما الى الحراس فلا يجدان
 من يطبخه لهما فيضطران الى ان يحضراه بأيديهما ويقوما على التدر^(٦) مع
 جلاله قدرهما كلها . فهذا شيء لا يفطر الا فتدة رحمة على هؤلاء الملوك
 الذين اخذهم الرشيد غدرا^(٧) تعيبة به الايام واني لاحسب جعفر بما
 أصيب من المكروه اكبر حظا من ابيه وسائر اخوته بانه استشهد في
 دعوة اهل البيت ولا صار الى هذا الهوان الذي صاروا اليه وهم
 الذين عرفتهم رؤوس الملة^(٨) والذين اتوا دولة الرشيد بحكمهم منعة
 لم يكن مثلها لدولة من دول الاسلام

ولقد كنت أحب ان اتوصل الى موضع البرامكة او استنبط
 حيلة لانقاذهم مما يعانون من الشدة . غير اني رأيت الامر لا يتم على
 الوجه الذي نرومه الأبا القوة التي تغالب الحرس . واذ كان جماعتنا
 في بغداد فئة قليلة من الرجال واكثرهم داخل في جيش الخليفة

(١) الاغانى ١١ * ٥٤ (٢) العند الفريد ٢ * ٢١ (٣) الانبليدي ١٧٧

(٤) ابن الاثير والعقد ٢ * ٢١ (٥) الابشهي ٢ * ١٢ (٦) الانبليدي

١٧٨ والدميري (٧) الفخري (٨) ابن خلدون

ونحت أمرة العباسيين لم اجد مجاهرة الرشيد بالعدوان قبل العودة الى فارس من الرأي السديد ليس خوفاً على نفسي من القتل لان النفوس لا يعظم بذلها في سبيل البرامكة ولكن رحمة بهم من جور الرشيد الذي يضيق عليهم^(١) بقدر ما يرى من الناس ميلاً الى الوصول اليهم او النار بدمهم . فقد بلغني من بعض المقرئين الى دور الخلافة انه لما قام عثمان بن نهيك ليشأ بجعفر وهو يقول والسيف صلت في يده يا ضل ما تجري به العصا واجعفره واسيداه والله لاقتلن قاتلك ولا تأرن بدمك^(٢) اعتزم الرشيد بعد قتل عثمان هذا الكرم النفس على التضيق عليهم وتفريقهم في الحبوس^(٣) المنقطعة وقبض ضياعهم عن اهل بينهم^(٤) حتى يقتلهم بالشدة التي هي أمر من السيف

ولقد مضى علي اليوم في بغداد وانا منقطع النفس سبعة واربعون يوماً لم آل فيها جهداً للوصول الى البرامكة وانا لا أحصل على ذلك مع كل ما بذلته من المال وكنت أحب ان ألقى أحداً من خدمهم وحجابهم فلم أجدهم في بغداد وكأني بهم قد تصدعوا في الآفاق^(٥) في جملة من هرب من غلمانهم وجواربهم ومغنياتهم^(٦) ومن هو معروف بمخاطبتهم من الشعراء وسائر اهل الادب . غير اني رأيت

(١) ابن الاثير ٦٣ * ٦٦ ابن الاثير ٦٦ * ٦٦ (٢) الانليدي وابو

الفرج وابن الاثير (٣) ابو الفداء ٢ * ١٨ واغاني ١٨ * ٧٩ وانليدي ١٧٤

وابن الاثير ٦٣ * ٦٦ (٤) الانليدي ١٧٤ (٥) اغاني ٣ * ١٨٢

فبين بقي من الطامعين اليهم دموعاً يسترونها عن الوشاة وما وجدتُ
فيهم إلاّ منقبض النفس ومن تذيبة الرحمة على مقتل النفس الزكية
حتى كأنهم صدعٌ واحدٌ في لوم^(١) القاتل . فما اذكر اني نزلتُ مرّةً
الى السوق الاّ ورأيتُ على الجدران اشعاراً في رثاء جعفر او البكاء
على اهل بيته فيما بقي في ذهني من هذه الابيات قول بعضهم^(٢)

الآن استرحنا واستراحت ركابنا
فقل للعطايا قد أمنت من السرى
وقل للنايا قد ظفرت بجعفر
وقل للعطايا بعد فضل نعطي
ودونك سيفاً برمكياً مهنداً
وامسك من يدي ومن كان يحمدي
وطي الفياقي فدفاً بعد فدفاً
ولن نظفري من بعده بسود
وقل للرايا كل يوم تجددي
أصيب بسيف هاشمي مهنداً
وقولهم^(٣)

يا منزلاً لعب الزمان باهله
ان الذين عهدتهم فيما مضى
أصبحت تنزع من رآك وطالما
ذهب الذين يعاش فيا كناهم
فابادهم بتفرق لا يجمع
كان الزمان بهم يضر وينفع
كنا اليك من المغارف تنزع
وبقي الذين حياتهم لا تنفع
وقولهم^(٤)

لعمرك ما في الموت عارٌ على الفتى
ومن كان مما يحدث الدهر جازعاً
اذا لم تصبه في الحيرة المعابر
فلا بد يوماً ان يرى وهو صابر

(١) ابو المحاسن ١ * ٥٢٧ والخزري وابن الاثير ٦ * ٦٧ والاتيدي وابن عبد ربه

(٢) ابو النداء ٢ * ١٨ وابن الاثير ٦ * ٦٤ (٣) الاتيدي ١٨٠ (٤) اغاني

فلا يبعدنك الله عني جعفرًا
بروحي ولو دارت علي الدوائر
فأليت لأأنفك أبكيك مادعت
على فنن ورقاء او طار طائر
وقول بعضهم ^(١)

أما والله لولا خوف واش
وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول قبرك واستلمنا
كما للناس بالحجر استلام
فما ابصرت قبلك يا ابن يحيى
حسامًا حنفة السيف الحسام
على اللذات والدنيا جميعًا
ودولة آل برمك السلام ^(٢)

فكان يرى الرشيد من كثرة البكاء عليهم وقوع الفتن في الدولة
فمنع الشعراء من رثائهم ^(٣) تحت معاقبة القتل ^(٤) وأمر الحراس ان
يرفعوا الرقع التي تعلق في الاسواق لئلا يثير نائر الشعب من
الشعب ^(٥) الا أنه لم يبلغ من ذلك الغاية التي كان يرومها من محو
ذكرهم ^(٦) بعد ان زينوا الاسلام بهلكم نحواً من خمسين سنة وانطبع
محبتهم في قلوب الناس ^(٧) بما صنعوا من المعروف ووسعت ايديهم
له من العطاء ^(٨) ثم ان خوفه من غوائل هذا الامر لا يتوقف على
فتن الدولة فقط فرمى وصله ان فارس قد قامت فيها القيامة

(١) اغاني ١٥ * ٢٦ (٢) العقد الفريد ٢ * ٢٢ (٣) الفغري والانيدي

وحلبة الكميت (٤) الاسحاقي ٩١ والف ليلة وليلة ١ * ٤٧٢ (٥) اعلام

الناس ١٧٤ (٦) ابن الاثير ٦ * ٧٥ والعقد الفريد ٢ * ٢٦ وابن خلكان

(٧) ابن الاثير ٦ * ٧٠ وابو الفداء ٢ * ١٧ (٨) المقدمة ١٥٦ والمستطرف

وخراسان^(١) قد عصفت فيها ریح الفتنة والمغرب قد تضعض حکمة
 فی يدأبن الاغلب والروم قد امتنعوا عن تأدية الجزية^(٢) لعلمهم
 باختلال الدولة بعد نكبة البرامكة وضعف آل الربیع الذين
 تولوا الوزارة بعدهم^(٣) والذين لا أراهم یثبتون فیها زمناً طويلاً كما
 اشار ابونواس الى ذلك بقوله^(٤)

مارعی الدهر آل برمك لما ان رمی ملكهم بامر فظيع-

ان دهرًا لم يرعَ عهدًا ليجي غير راعٍ زمام آل الربيع-

حتى اذا اتصل بهم خبر الروم وامتناعهم عن الجزية لم ينههم العزم
 ولا الحزم على إبلاغ الرشيد بانفسهم^(٥) وانما اتخذوا طريقة البلاغ
 على لسان الندمان فقال شاعر^(٦) على سبيل الاستخفاف بالامر وهو
 بعيد عن سياسات الدول

نقض الذي اعطيته تقفور فعليه دائرة البوار تدور

ابشر امير المؤمنين فانه غمّ اناك به الاله كثير

فتأمل في هذه الدولة التي كانت زينة الدنيا في ايام البرامكة^(٧)
 كيف صارت الى رجال لا عزيمة عندهم ولا عزيمة . فان يبلغك
 عن انحطاطها خبر^(٨) فيما بعد فتعلم ان فتور الصدور هو صدور الفتور

(١) الانليدي ١٧٤ (٢) ابوالنداء ٢ * ١٨ (٣) ابن عبد ربه ٢ * ٥٤

(٤) المحاضرة ٢ * ١١٤ (٥) اغاني ١٧ * ٤٥ (٦) السيوطي وابن خلدون

والمسعودي ١ * ١٥٨ والاغاني ١٧ * ٤٥ وابن الاثير ٦ * ٦٦ (٧) الف

وهذه الجنود التي تراها في قبضة الرشيد لا تظن انها تنفع دولته ان لم يكن عنده عقلٌ يدير بها سياسته. فكم نرى من دولة كانت عظيمة في العالم ثم عمى ساستها الجهل فانحطت بفقدان الحكمة. ومن دولة كانت خاملة الذكر ثم تولّى امرها رجال عقلاء فاصحوا ما فيها من الاخلال وصعدوا بها من العزّة المقام الذي لا ينال. فتأمل في الدولة الاموية كيف قامت بمعاوية بطل الملة في السياسة والتدبير حتى انه ضمّ الاسلام الى مصلحة واحدة من طرف المغرب الى اقصى المشرق ثم اقام دولته على هذا الاساس المتين وتأمل بعده في الحجاج بن يوسف كيف اصلى ما فسد من العراق وازال ما وقع في اهله من الشقاق حتى جعل الجزيرة والحرمين اقرب الى طاعة الامويين من الشام ثم تأمل في الدولة العباسية كيف قامت على اثار تلك الدولة فيما دبره ابو مسلم رحمه الله وكيف عجز ابو جعفر بعد مقتله عن ردّ الفرس والاكراد الاّ بخالد البرمكي الذي ضمن له الكفاية عليهم بالرأي^(١) دون الجنود وانظر الى دولة الرشيد كيف زهت في وزارة البرامكة بالذي^(٢) لم تنزه به دولة الهادي ووزرائه اغفال من آل الربيع. فهذه دول لم تنزه بقوة الجند كما يسبق الى وهم الناس لانه لم يكن لابي مسلم من الرجال ما كان للملوك مروان ولا كان للرشيد ما لم يكن للهادي قبله. وانما كان المعزّز لها رجال يرسلون

(١) ابن خلكان ١ * ١٤٩ (٢) الرمنشيري في كتابه ربيع الابرار

من عقولهم على الناس اشعة تحوِّطهم مثل اشعة الشمس ولا سيما هؤلاء
البرامكة الذين احرم الرشيد دولته من مساهمتهم اياه وتديبرهم امره
فلمست اعلم ما سيكون شأنه مع صهب السبال اذ ان به اليوم من
النَّاسف على جعفر ما يشغله عن الدنيا كلها فقد بلغني عن هو
مقرب اليه انه يذكره لكل طلوع شمس ويبكي عليه بتحرِّق النفس
ولا يستطيع ان يخلو بنفسه بعد مقتله الا ان يكون عنده جاعة
يسلو بمسامرتهم عما فرط منه في امره^(١) فاذا خلا مجلسه احبَّ الى
قومه ان يدخلوا عليه اياً كان^(٢) من الندمان ليستأنس بهم ويلهو
بمناذمتهم عما هو فيه من البلاء وقد رأى خلل السياسة في دولته
وكثرة الاراجيف

—>o<—

فما يتحدث به الناس من اسباب نكبة الرشيد بالبرامكة
ولما كان الحديث عن هذه النكبة المرّة دأراً على السنة الناس
تخالفت آراؤهم فيما دعا اليها الرشيد وان كانت تتوافق خواطرهم
في لومه والبكاء على جعفر فمن قائل انه نكبة وأهل بيته لاستبدادهم
في الدولة^(٣) واحتجاجهم اموال^(٤) الجباية حتى لقد كان يطلب اليسير
من المال فيما يزعمون فلا يصل اليه . ومن قائل انه حنق على جعفر

(١) العند الفريد ٢ * ٢٨ (٢) ابن خلكان ١ * ٢٢ (٣) المقدمة ١٤

(٤) ابن الاثير ٦ * ٦٢

من قوله لي انه لأن لم يرجع عن سوء مظهره فيهم ليكون ذلك وبالاً
 سريعاً عليه^(١). ومن قائل انه تنقص من الفضل ان يكون اكرم^(٢)
 من اولاده وجعفر افصح منهم لساناً واحكم سياسةً وان محمداً قد
 فضلهم في المروءة^(٣) وموسى قد غلبهم في الشجاعة فنكبهم لذلك.
 ومن قائل انه ما نكب جعفر الا غشيانه العباسية اخت الرشيد^(٤)
 ويروون لذلك من الخبر ان الرشيد كان له مجلس معه بالليل فقال
 له يوماً يا جعفر لا يطيب لي ذلك الا بحضور اختي العباسية ولكن لا
 يجوز الا ان كتبت لك عليها لباحة النظر من غير ان تقر بها
 فيقولون انها انفقوا على ذلك وان الرشيد عقد له عليها وصارت
 تحضر مجلسه الى ان بلغ عشقه من فؤادها فيزعمون ان كانت لجعفر
 امرأة تزين له الجوارى كل ليلة فبجاءت العباسية لها واغرتها بالمال على
 ان تزينها له وتدخلها عليه في جملة جواريه ففعلت ذلك فظن جعفر
 انها جاريتة فواقعها وهو لا يعلم انها العباسية فلما اصبحوا قالت له
 انا العباسية وقد كنت اسألك ان تساعدني على مودتك فتأبى فلما
 ايست منك اخذت عليك بما رأيت في هذه الليلة وان لم تواظب
 لاكونن سبياً في زوال نعمتك وهل انت الا زوجي فقال لها جعفر

(١) الاثنيدي ١٦٨ (٢) الاثنيدي ١٨٢ والمستطرف ١ * ١٩٥ والوطواط

٢٤٩ وابو الفداء وابن نباتة (٣) ابن خلكان ٢ * ٢٦١ (٤) ابن الاثير

٦ * ٦٢ والفخري والاثنيدي ١٦٥ وابن خلكان والدميري ٢ * ١٥٢ وابو النرج

٢٢٢ وابو الفداء ٢ * ١٧

و يحك اهلكني واهلكت نفسك فيزعم الذين يتناقلون هذه الحكاية انه لم يزرها من بعد حتى ظهر امرها للرشيد . هذا ما يتحدث به العوام عن نكبة هؤلاء الملوك الذين رماهم الدهر بالارزاء وسحب عليهم اذيال الفناء . والخواص يتناقلونه كلة الا خبر العباسية ينكرون وقوعه ليس لتنزيه جعفر عن المنكر بل لزعيم انه غير ممكن الوقوع لما كان العباسية من جلالة القدر وسلالتهم من الاشرف الذين كانوا عطاء الملة والدولة ^(١) . فلو علموا ان جعفر كان من نسب الاشرف في الفرس ^(٢) ما كان الرشيد في العرب وان العشق ميل يملك النفس حتى يرجعها الى الشهوة النفسانية ولا يبق موصفا للمقامات والرتب اذا خرج بصاحبه عن حد الاعتدال لما ظننتهم ينكرون هذا الامر من حيث يبالغون في شرف العباسية بل يرون انه كان في الامكان حدوثه وان هو لم يحدث . فكنت احسب من تناقل هذه الاحاديث ان للرشيد بدا في اشاعتها بين الناس ليعي عليهم امر البرامكة وانهم راحوا شهداء في دعوة اهل البيت ^(٣) فاجتمع قليلا من الدنيا فانما ايام الشباب فيه سريعة الزوال دارسة الطلال

ويعلم في الحساب اذا التقينا غدا يوم النشور من الظلوم ^(٤)

(١) المقدمة ١٣ (٢) المسعودي (٣) الفخري وابو الفداء ٢ * ١٧ والدميري

٢ * ١٥٣ وابن خلدون وابن الاثير ٦ * ٦٢ (٤) انليدي ١٧٨

ولست أطيل لك الكلام على هؤلاء الملوك الذين توارثوا المجد
 طرفاً وكانوا نكتة محاسن الملة كما علمت^(١) اذ لو اني كتبت اليك
 عنهم غير ما ذكرت لما بقي عندي إلا البكاء والعويل على اني لا
 أحب ان اختم رسالتي اليك الا بذكر هذه المأثرة التي هي لهم من
 كثير ما صنعوا في الورى من الجميل وذلك ان الرشيد مع ما تقدم
 فيه من النهي عن رثائهم^(٢) بلغه ان شيخاً يحضر ابلاً الى اثار دورهم
 وينشد شعراً ويذكرهم ذكراً كثيراً ويديهم ويبكي عليهم ثم ينصرف
 فدعا مسروراً هذا الخادم اللئيم وساره بالامر وامره بان يمضي من
 تحت الليل حتى يرد تلك المنازل التي كانت مظهر الانس فيما اتى
 الله اهلها من النعم وان يستتر خلف بعض الجدران هو واثنان من
 الخدم ساهما له واظنهما ياسر^(٣) ومروان^(٤) حتى اذا جاء الشيخ وبكى
 وندب وانشد ابناً قبضوا عليه وجاؤا به اليه . فأخذ مسرور
 الخادمين ومضى بهما في آخر الليل الى موضع الحراب فاذا هم بغلام
 قد اتى ومعه بساط وكرسی حديد واذا شيخ قد جاء وله جمال وعليه
 مهابة ولطف واثار نعمة فجلس على الكرسي وجعل يبكي ويتعجب
 ويقول^(٥)

ولما رأيت السيف جندل جعفرًا ونادى منادٍ للخليفة في محبي
 بكيت على الدنيا وزاد تأسفي عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

(١) المنذمة وابن خلكان وابن عبد ربه (٢) الاحقافى ٢١ (٣) ابن خلكان

مع ابيات اطالها فلما فرغ قبضوا عليه وقالوا له اُجب أمير المؤمنين
 ففزع فزعا شديداً وقال دعوني حتى أوصي بوصية فاني لا اوقن
 بعدها بحياة ثم تقدم الى بعض الدكاكين واستفتح واخذ ورقة وكتب
 فيها وصيته وسلها الى غلامه ثم سار به مسرورا الى دار الرشيد فلما
 مثل بين يديه زجره وقال له من انت وبما استوجب البرامكة منك
 ما تفعل في خرائب دورهم فقال يا أمير المؤمنين ان للبرامكة ايادي
 خطيرة عندي افتأذن لي ان احديثك بحالي معهم قال قل فقال
 يا أمير المؤمنين انا المنذر بن المغيرة من اولاد الملوك وقد زالت عني
 نعمتي كما نزول عن الرجال فلما ركبت الدين واحتجت الى بيع ما على
 رأسي ورؤوس اهلي وبيتي الذي ولدت فيه أشاروا علي بالخروج الى
 البرامكة فخرجت من دمشق ومعني نيف وثلاثون امرأة وصبياً وصبية
 وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض
 المساجد فدعوت ببعض ثياب كنت اعدتها لاستتر بها فلبستها
 وخرجت وتركتهم جياعاً لا شيء عندهم ودخلت شوارع بغداد
 سائلاً عن البرامكة فاذا بمسجد مزخرف وفي جانبه شيخ بأحسن زي
 وزينة وعلى الباب خادمان وفي الجامع جماعة جلوس فطعمت في
 القوم ودخلت المسجد وجلست بين ايديهم وانا أقدم رجلاً وأخر
 أخرى والعرق يسيل مني لانها لم تكن صناعتني واذا بخادم قد أقبل
 ودعا القوم فقاموا وانا معهم فدخلوا دار يحيى بن خالد ودخلت

معهم واذا بجي جالس على دكة في وسط بستان فسلمنا عليه وهو
 بعدنا مئة وواحداً وبين يديه عشرة من ولده واذا بغلام أمر قد
 عذر خداهُ قد أقبل من بعض المقاصير وبين يديه مئة خادم
 متنطقون في وسطهم بمنطقة من ذهب يقرب وزنها من الف مثقال
 ومع كل خادم مجهرة من ذهب وفي كل مجهرة قطعة من عود كهيئة
 الفهر قد قرن بها مثلها من العنبر فوضعه بين يدي الغلام وجلس
 الغلام الى جنب يجي . ثم قال يجي المقاضي تكلم وزوج بنتي عائشة
 من ابن عمي هذا فخطب القاضي وزوجه وشهد اولئك الجماعة واقبلوا
 علينا بالشار بينادق المسك والعنبر فالتمطت والله يا أمير المؤمنين
 ملء كمي ونظرت فاذا نحن في المكان ما بين يجي والمشايخ وولده
 والغلام مئة واثناعشر رجلاً واذا بمئة واثنى عشر خادماً قد أقبلوا علينا
 ومع كل خادم صينية من فضة عليها الف دينار فوضعوها بين يدي
 كل رجل منا صينية فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في
 اكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم ويقوم الاول فالاول حتى
 بقيت وحدي لا أجسر على اخذ الصينية فغمزني الخادم فجسرت
 واخذتها وجعلت الذهب في كمي واخذت الصينية في يدي ثم قمت
 وجعلت التفت الى ورائي مخافة ان أمنع من الذهاب فينا أنا كذلك في
 صحن الدار ويجي بالحظي اذ قال للخادم اتني بهذا الرجل فرددت
 اليه فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان في كمي ثم أمرني بالجلوس

فجلستُ فقال لي مَنْ الرجل ولم تلتفتْ مِنَّا وشمالاً فقصصتُ عليه
 قصتي فقال للخادم أئتني بولدي موسى فاتاهُ به فقال له يا بني هَذَا رجل
 غريبٌ فخذهُ اليك واحفظهُ بنفسك ونعمتك فقبض موسى على يدي
 وأدخلني إلى دارٍ من دورهِ وأكرمني غاية الأكرام وأقامتُ عندهُ يومي
 ولبتي في الدَّ عيشٍ واتمَّ سرورٌ فلما أصبح دعا باخيه محمد وقال له
 ان الأمير قد أمرني بالعطف على هذا الرجل وقد علمتُ اشتغالي
 اليوم في دار أمير المؤمنين فاقبضهُ اليك وحوطهُ بنعمتك ففعل
 ذلك وأكرمني غاية الأكرام فلما كان من الغد تسلَّني أخوه العباس
 فبثَّ لي عندهُ بين غناءٍ وانوارٍ وبهجةٍ ثم تسلَّني أخوه خالد^(١) ولم
 أزل في أيدي البرامكة يتداولوني مدةَ عشرة أيام لا عرف خبر عيالي
 وصبياني أفى الأموات هم أم في الأحياء . فلما كان اليوم الحادي عشر
 جاءني خادمٌ ومعه جماعة من الخدم فقالوا لي قم فاخرج إلى عيالك
 بسلام فقلتُ وأويلاه سلبتُ الدنانير والصينية وأخرج إلى عيالي
 على هذه الحالة أنا لله وأنا اليه راجعون فرفع الستر الأول ثم الثاني
 ثم الثالث ثم الرابع . فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لي مها كان
 لك من الخواصِّ فأرفعها إلي فاني مأمورٌ بقضاء جميع ما تأمرني به فلما
 رفع الستر رأيتُ حجرةً كالشمس بهاءٍ وإشراقاً واستقبلني منها رائحةُ الندِّ
 والعود ونفحات المسك وإذا بصبياني وعيالي يتقلَّبون في الحرير والديباج
 وحمل إلي ألف الف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشورين بضيعتين

وتلك الصينية التي كنت اخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق واقمت
يا امير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس
امن البرامكة انا ام رجل غريب اصطنعوني فلما نزلت بهم الفادحات
احجفتني عاملك على العراق والزميني على هاتين الضيعتين من الخراج
ما لا يفي دخلها به. فلما تحامل علي الدهر كنت في آخر الليل أفصد
منازل القوم فاندبهم واذكر حسن صنيعهم اليّ واشكر جزيل
تعطفاتهم عليّ. فقال بكم غصبك قال بكذا وكذا من المال فقال هو
مردود لك وتستمر وعقبك من بعدك علي ما كان لك في ايام
البرامكة. فعلا نحب الرجل حتى كاد يقع من شدة الحزن فلما رأى
الرشيد كثرة بكائه قال له يا هذا قد احسنّا اليك بالذي كنت
تظلم منه فما يبكيك فقال يا امير المؤمنين وهذا ايضا من صنائع
البرامكة اذ لو لم آت منازلهم فابكيتهم واندبهم حتى اتصل خبري بامير
المؤمنين ففعل بي ما فعل من اين كنت اصل الى امير المؤمنين.
فدمعت عينا الرشيد وظهر عليه حزنه وقال لعمرى هذا من صنائع
البرامكة فعلمتهم فابكيت واياهم فاشكر^(١) . . . والله در أبي نواس اذ
يقول^(٢) في وداع الدنيا بعد نكبتهم
سلام على الدنيا اذا ما فقدتم

بني برمك من راحلين وغاد

خاتمة الكتاب

أودعتُ رسالتي اليوم إليك سطوراً قد كتبتها بدموع العين
وانا بين حزنٍ على هؤلاء الشهداء وخوفٍ من الرشيد ان يعلمه
بموضعي الرقباء فيطعنني عسفه والعياذ بالله عن الاستصراخ بدعوتهم
في فارس وخراسان^(١) وسائر بلدان اليمن والحير لاني علمتُ من
بعض المقرّبين اليه انه يطلبني طلباً شديداً ويجعل لمن يأتيه بي مالاً
جسماً فربما كان هذا الكتاب آخر عهدي براسلتك بعد اليوم . . .
وإن كنت قد رأيت فيما تقدم اليك من الكتب السالفة ان العرب
قد حصلوا في زماننا هذا ما لم يخلد بصدورهم فيما مضى من عصور
الخلفاء وانهم نبغوا في جميع فنون الآداب وانواعه واستوعبوا علوم
الدين بما حوّطوه من تمام العناية وسنوا شرائعهم على المذاهب التي
نتهي اليها الغاية في صحة المبدأ وجميل المعاد وتجروا في علوم الفرس
والروم واليونان على طريقة وضعوها بالزيادة فيما نقلوه من فلسفتهم
وسائر علومهم وأجادوا الاجادة التامة في جميع انواع الفنون
والآداب والصناعات^(٢). فانما الفضل في ذلك كله للبرامكة وليس
لرشيد وهم الذين رفعوا منار العلم^(٣) وقربوا اليهم الادباء واجزلوا
اعطيهم بالمال الكثير^(٤) فقد كان عصرهم^(٥) تاجاً على هامة الدهر

(١) الا تيدي ١٧٤ (٢) المقدمة (٣) العقد الفريد ٢ * ٢٨ (٤) ابن

ذلكان (٥) الزمخشري في كتابه ربيع الابرار

ونوراً اضاء المشرق شعاعه حتى انقلب من الخمول الى سمو الارتفاع
ومن عمارة الجهل الى سعة الاطلاع فما هو عندي الا الزمن الذي
يبقى عند العرب الى آخر الدهر محموداً بالعلم والصلاح وكثرة الخير
وسعة اسباب المعاش^(١) والانتفاع من علوم الاعاجم ومحاسن هؤلاء
الملوك الذين كانوا جمال المشرق وزينة العالم^(٢) ومنعة هذه الدولة
التي لم تقم من قبلهم الا بالحيل والمكايد فانك لتعلم ان الدعوة التي
قام بتقلها ابو مسلم لما كانت لذرية النبي صلى الله عليه وسلم وهم اولاد
الحسن والحسين رضي الله عنهما لم يكن للعباسيين غرض في انضمامهم
اليها الا لمقارعة بني مروان في جيلة من انضم اليها من اهل البيوتات فلما
خدمهم السيف رأوا ان ينفردوا بالخلافة دون اربابها من اهل البيت
وصرفوهم عنها بالحيلة التي كان يازجها ابو جعفر بتذليل العمال
وظلم الرعية في الخراج^(٣) حتى يوقع بهم الثقل ويقعدهم عن الخروج
عليه^(٤) في دعوتهم . فكان عظماء الملة يرون ذلك منه ولكنهم لم يروا
ان يجلولوا الامة على الخلاف ضناً بالنفوس الصالحة ان تسيل
دمائها في اقتتال المسلمين بالمسلمين . فثبت له الملك من هذا الوجه
لم ينازعه فيه ولا قارعه عليه الا جماعات متفرقة من اهل الدعوة
ومن كان لا يضمه الغرض الى جماعة واحدة في جميع الانحاء فلم

(١) الف ليلة وليلة (٢) ابن الاثير ٦ * ٢٥ و ابو الفداء ٢ * ١٨ (٣) الماوردي

١٢٧ (٤) الفخري

يستطيعوا مقاومتَهُ ولا يبلغوا من غرضهم بِهِ إلا أن جعلوا لَهُ سبيلاً
الى غالب جماعةٍ منهم بعد جماعةٍ فلما مات وكان قد اعمادُ حبِّ
الولد حتى خلع ابن عمه عن ولاية العهد وصيرها الى المهدي من
بعده لم يكن في الناس إلا من ينغص ذلك عليه فيما كانوا ينغصون
عليه من الظلم وسياسة القتل^(١) فخاف الربيع ان تذهب الخلافة
من ابنه وله بصيرها اليه مصلحة لا تكون له في دولة غيره من اهل
البيت ولا من العباسيين انفسهم ففتق له عقله تلك الحيلة^(٢) التي
تسارع اليها اهل الحل والعقد على غير رضى من نفوسهم إلا
الخوف من ابي جعفر وهم يظنونهُ في عالم الاحياء . فلما استوثق له
الامر استهل خلافته باستمالة الناس بالاحسان والمعروف^(٣) حتى
لا تنفر منه قلوبهم ولا يظنون فيه تبعاً لسيرة ابيه من الظلم والجبروت
فاقام لهم ديوان المظالم^(٤) ورفع عنهم ضرائب الخراج الفادحة وأوسع
لهم اسباب المعاملة بعد ما ضاقت نفوسهم من إساءة ابيه اليهم حتى
استسلم لغرضه واستلمكم في سلطانه فلم يبق عليه بعد ذلك إلا ان
يأمن خروج اهل الدعوة في جمعٍ شير متفرق فرأى ان يستميل
الحرمين وهو الموضع الذي ينادى فيه بالحقوق المقدسة لاربابها من
اهل البيت ففرق في أهل الاموال الجسام ووالى عظماءهم بالحجبل
وبنى لهم البيت العتيق وعهد اليهم بالولايات والامارات واجرى

الارزاق الواسعة على من استخدم في الجند من اولادهم^(١) كما علمت .
 فلما خلت منه الخلافة وصارت الى الهادي بعده وهو بمكانه من
 الغفلة وقلة الخبرة بأمر الملك وانعكافه على اللهو والملذات عاجل
 العباسيون في قتله^(٢) خوفاً من ذهابها من يده الى من تجمع عليه آراء
 المسلمين وتجمع اليه كنههم من جميع الاقاليم والاطراف . فرأى
 البرامكة وهم أهل العقل والتدبير ان ليس للعلويين بعد ذلك
 كله مطمع في المشرق بازاء العباسيين الذين يستخدمون الحيلة من
 وراء السيف فانصرفوا عن تدبير امر الحرمين لهم الى تهديد الطريق
 لخلافتهم في المغرب^(٣) . وراموا ان يعظموا دولة الرشيد ويضموا
 المشرق كله الى جناحه حتى ينصرف عن مقارعة أهل البيت ويقنع
 بما دبروا له من السلطان العظيم الذي لم يكن مثله لاحد من الخلفاء
 قبلة^(٤) . فكان من بعض ما أشاروا به اليه لتعميم هذا السلطان ان
 يأخذ الرعية باللين والعاطفة بعد ان آمنوه خروجهم في الدعوة التي
 كان يجشي ان تعصف ريجها من ناحيتهم . فجري على ما رسموا له من
 سياسة الحلم والرفق مدة من الزمان ثم غلبت عليه طبيعة العباسيين
 من الحسد^(٥) فرجع الى العسف^(٦) والغلظة ووقع بالناس من الشدة
 ما خص أفججه بمن كان اصح له من أقرب خواص أهل بيته اليه

(١) ابن الاثير ٦ * ١٨ (٢) ابن الاثير ٦ * ٢٦ (٣) ابن خلدون

(٤) الفخري والسبوطي (٥) الانليدي ١٦٨ (٦) الاغانى ٢ * ١٧٨

فهذه هي دولة العباسيين التي اشرقت شروق الشمس في البهاء
والعظمة وانها لتحتاج الى رجال عقلاء يديرون سياستها ويدبرون
أمرها لانها لو سقطت على يد خليفة قليل الخبرة بامور الملك لما
قامت لها قائمة بعد ذلك اذ كانت دولة حيل ومكايد^(١) وكانت المحقوق
فيها لاربابها من اهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم... فاليوم اترك
الاسلام بين رايات خضر وسود وبيض فاما العلويون فانهم اهل
البيت ومن لا تخرج محبتهم من قلوب المسلمين واما العباسيون فانهم
حائزون على أمر المشرق وهم اهل سيف^(٢) شديد الوطأة واما
الامويون فانهم يرتقبون للخلافة من وراء البحور ويرومون استعادة
الملك الذي ذهب من أيديهم بغفلة صديانهم في دمشق والمسلمون في
عرض ذلك يتمزقون بالفتن والشقاق . فاذا كان هذا حال الدولة
من العظمة وهي متفرقة على اغراض لا تضمها الوحدة فما الظن لو
جمعتها عصبية الدين الى جامعة الاسلام ففي الملة ملوك عظام احسبهم
يتجهون الى ما بهم من الانقسام ويفيمون على اساس الجامعة دواة
تهتز لها دول الفرنجة والله يرفع الامم التي تسبح بحمده وتقدس
له الى اسمى مكان من الشرف والعظمة
لا اله الا هو رب العرش
العظيم

المخلاصة

يقول مؤلف الكتاب هذا ما انتهى اليه كلام صاحب هذه
 الرواية من ذكر مآثر الاسلام في ذلك الوقت الذي لم يدل بما
 انتهى اليه من عظمة الرشيد على ما كان يخشى بعده من وقوع
 التجزؤ في المسلمين لان الاغراض لم تنزل مستكمنة في النفوس
 حتى انفجرت فيما بعد الى ما بعد عن العصبية الى ان اتاح الله
 للاسلام رجوع صولته اليه على يد السلاطين الظافرين من آل
 عثمان وهم الذين غالبوا على القسطنطينية بعد ان جمعوا اليهم
 كلمة المسلمين ثم اقاموا فيها على اساس الجامعة دولة تملك
 المشرقين والمغربيين وتضم اليها البرين والبحرين لا زالت دولتهم
 محفوفة بالنصر المبين وسلاطينهم غرة على جبين السلاطين ما
 توالى الملوان وتعاقب القمران

وكان الفراغ من تبييض هذا الكتاب في السنة الثانية
 والثمانين بعد المائتة والالف وهي السنة السابعة من خلافة أمير
 المؤمنين المؤيد بالنصر السلطان الغازي عبد الحميد خان
 أيده الله بالاسلام وأيد الاسلام

به من الله

وكرمه

اصلاح خطأ

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
٢	٢	يتسبر	صوابه
٢٢	٤	رفعة	دفعه
٢٢	٧	خالد بن روك	خالد بن برمك
٢٣	١٦	النهردان	النهران
٢١	١٢	ان تناهي	انه تناهى
٢٧	١٢	من أولاد	من أولاد الملوك
٤٢	٢	نكب يو	نكبه
٤٤	١	مكبن عند السلطان ومكين لديو	حظي عند السلطان ومكين لديو
٧٤	٩	بشار	لبشار
٧٨	٤	بمكانه من الجمل كما علمت	بمكانه من الجمل كما علمت
٨٧	٧	ورفع	ودفع
٩٩	١٤	كلمة	كلمته
١٠٢	٤	يو	بها
١٠٩	٩	ووجهم	ووجههم
١٢٢	١٠	واذا زارم	واذ الرشيد زارم
١٢٣	١٢	اسباب النعيم	اسباب النعيم والكبر (ابن جبير ٢١٩)
١٢٦	٥	في الصدور	في ذات الصدور
١٢٩	٨	امتناعهن	امتناعهن
١٤٨	١٥	والكمكان	والكمكان
١٥٢	٩	حتى انهم	حتى لقد
١٥٦	١١	احتمل	بجمل
١٥٧	١٥	ويقيم	ويقوم
١٥٩	١٠	وامام الناس ومشهور	وامام الناس ومشهور

الصفحة	السطر الخطأ	صوابه
١٦١	١٢ جزيل	جبريل
١٦٢	١ تجلّت	تجلّلت
١٦٩	١٥ ناحية	ناحيئة
١٧١	٨ ضمير	خيرم
١٧٠	٤ ابناه سراري	وَأَلَدَ سَرَّيَّةَ
١٧٥	١٢ ما	ما
١٧٥	١٢ تواربك الارض وياكلك التراب	تواربه الارض وياكله التراب
١٧٥	١٥ فُقد	فَقَدُ
١٨٤	٤ صفوف	صنوف
١٩٤	١٦ رحمان	دحمان
٢٠٢	٧ بعد	بعض
٢٠٩	٧ يعزّر	بهزّر
٢١٩	٢ صلى عليه وسلم	صلى الله عليه وسلم
٢٢٥	٧ عن	على
٢٢٧	١١ بعد	بعض
٢٢٢	٥ المتقدمين	المتقدمين
٢٢٢	٢ داود	دواد
٢٢٢	١٦ سرعة	وسرعة
٢٤٢	١٤ اجازة	اجادة
٢٥١	٤ حسن	حفظ
٢٥٢	٤ من الحلم والنخب والقوة . . . والمكر	صوابه من الحلم والمكر والجراءة . . . والحق الى آخر
٢٥٨	١١ الطلاق	التلاق
٢٨١	١٢ ذات قرار معين	ذات قرار ومعين

الصفحة	السطر	المخطأ	صوابه
٢٨١	٩	استحي	استحي
٢٧٤	١٢	عنها	عليها
٢٨٢	٦	والصفاح	والصفاح
٢٨٦	١٢	اللقبة	اللقبة
٢٩٠	٥	مثله	مثله
٢٩١	١٢	الصائبة	الصائبة
٢٩٥	٤	ابناهم	بناءهم
٢٩٦	٥	نصر النيسين	نصر النيسين
٢٩٨	١٧	الانبرذور	الانبرذور
٢٠١	١٤	من الروم الملكة	من الروم الملكة
٢٠٨	١٥	للمسبن	للمسلمين
٢٠٢	١٠	الدرهم من	منه الدرهم
٢١٥	١٥	المغمورة	المغمورة
٢١٦	٥	فكأني	فكأني
٢١٩	١	فكأن	فكأن
٢٢٢	٧	العظيم	العظيم
٢٢٣	٤	وطولة واحد	وطولة شبر واحد
٢٢٤	٧	أمة	أمة
٢٢٩	١٤	حتى اذ	حتى اذا
٢٤٠	١	عطاياهم	اعطياهم
٢٤٢	١٢	المحل	التنخل
٢٤٥	١٢	ما لا يقع	ما يقع
٢٥١	١٦	أجرى	أجرى الجريمة